

الْبَلَاغَةُ الْعَرَبِيَّةُ

تأليف

على الجندى

عميد كلية دار العلوم — جامعة القاهرة
وأستاذ الدراسات البلاغية بها سابقاً

الطبعة الثانية

١٩٦٦

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد علي قريه (عمار الديرى سابقاً)

بِسْمِ اَيْدِي الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الرحمنُ . علمُ القرآن . خالقُ الإنسان . علمُسه البيان ،

• • •

المحمود : الله جل ثناؤه ، والمصلّي عليه : رسالته وأنبيائه ،
والمدعو له : الوطن العربي وأبناؤه .



مَكْتَبَةُ
لِسَانِ الْعَرَبِ

www.lisanarb.com

مقدمة الطبعة الأولى

هذه فصول في ألوان من البلاغة ، شغلت أذهان علماء البيان ، وجماعة الأدباء والشعراء في الماضي ؛ ولم يزل لأكثرها شأنه في الحاضر ، على أن ما أفل نجمه منها لا يزال يُلقى على بعض أدبنا الموروث من شعر ونثر ، ظله السابغ الشّعشع ، وينهض فيه أثره واضحاً ملبوساً ؛ بحيث لا نستطيع دراسته كما يجب ، ونقدرة حق قدره ، ونتوصل إلى فهمه ، ونحيط بدقائق صورته ، بغير هذه البحوث الكاشفة الواسعة ، التي هي سمة الجامعات وميزتها الكبرى .

وهذه الفنون البلاغية التي أشرت إليها ، والتي مارسها في كتابي هذا ، تتميز بالرغم من عناوينها الكلاسيكية - - بالطرافة والجددة - - فهي تروك أبدأ وتروك دائماً ، كالروض تخلع عليك أزهاره كل يوم صوراً مستحدثة ، وكالقمر تجلو عليك أنواره كل ليلة جمالاً جديداً !!

وهي - إلى ذلك - تتسم بالثراء والترف والنعمة ؛ فهي ليست ككل كلام استحق اسم البلاغة ؛ بما حوى من شيات الجمال المتعارف لدى البلغاء ، ولا يكفي فيها أن تكون حلوة الألفاظ ، بارعة الأساليب ، جميلة الأخيلة صادقة الأداء . بل لا تقنع بما يقنع به غيرها من ذلك التحسين والتنميق والتجبير ، الذي يوفر لها ما يسمى بالمحسن البديعي ، ولكن لا بد لها وراء ذلك من ثروة في الأنغام ، وغنى في الألحان ، ودسومة في الفواصل والقوافي إلى حد التخمّة ، حتى يصير الكلام كله غناء ، أو شديهاً بالغناء ، ومن هنا جاءت تسميتها «بالبلاغة الغنية» ، لأنها غنية حقاً وصدقاً ، بل لعلها مفرطة الغنى ، مسرفة الثراء !!

وقد سلكت في معالجتها ما يحتمه النهج العلمي الجامعي : من قراءة شاملة

ونظر مستوعب ، وتحقيق دقيق ، ونقصد فاحص ، وموازنة سديدة ،
واستنباط رشيد ، مستصحباً في دراستها بعلم النفس ، وفلسفة الجمال ، وروح
الأدب ، مستهدياً بصناعة الشعر ، وما توفره لصاحبها من ذوق موسيقى ،
وحاسة فنية .

وكان وكدي الأول أن أجعلها بلاغة أدبية ، تعتمد على حسن العرض
وأناقة السرد ، وتخير الشاهد والمثال ، والافتنان في إيراد النماذج الفاخرة
لحشدت فيها ما ينخطئه العد من آثار القدماء والمحدثين ، عارضاً لها بالنقد
نارة والموازنة أخرى ، مبيناً غمها من سميتها ، ومعوجها من قوعها ، حتى
أصبح الكتاب كتاب أدب إن شئت ، وكتاب بلاغة ونقد إن أردت ،
وديوان شعر إن رمت . ولست أزعج أن بلغت الغاية ، أو أرضيت نفسي
كل الرضاء ، ولكنني أستطيع أن أقول : إنى بذلت جهد الاستطاعة ، وجريت
إلى نهاية الشوط ، وأخلصت فيما صنعت ، والحمد لله على كل حال ، وهو
وحده المتصف بالسكال .

على الجندي

الفصل الأول

الالتزام

ويسمى أيضاً . لزوم ما لا يلزم ، والإعنت ، والتصنيق ، والتشديد ،
والتضمنين (١) .

ويسميه نقاد الغرب : القافية الغنية .

وجماها عندهم : ناشيء عن ندرتها (٢) .

وأسماءه كلها ناطقة بما يأخذ به صاحبه نفسه من عسر القيود ، وثقل
المثونة ، وتحجير ما وسعه الله عليه ، وتكلف ما لو تجنبه ، لم تلحقه تبعه ،
ولا أدركه عيب ، ولا وقع في قصور أو تقصير .

وقد عرفه ابن أبي الإصبع : بأن يلزم الناثر في نثره ، والشاعر في شعره
— قبل روى النثر والشعر — حرفاً فصاعداً على قدر قدرته ، وبحسب
طاقته ، مشروطاً بعدم الكلفة (٣) .

وقال النويري : هو أن يعنت نفسه في الترام ردف (٤) ، أو دخيل (٥)
أو حرف مخصوص قبل حرف الروي ، أو حركة مخصوصة (٦) .

وتوحن بعضهم الاختصار في تعريفه ، فقال : هو أن يلتزم الناظم
في نظمه ، أو الناثر في نثره — قبل حرف الروي من البيت ، أو الفاصلة
من النثر — ما ليس بلازم في مذهب السجع (٧) .

(١) سمي تضمنين ، لتضمن القافية ما ليس يلزمها .

(٢) مسائل فلسفة الفن المعاصرة — ١٧١ .

(٣) تحجير التحجير ٢٤٤ « مخطوط » وانظر كتاب بديع القرآن - ١٨٠ - ١٨١ .

(٤) الردف : حرف ساكن من حروف اللين ، يفتح قبل حرف الروي ليس بينهما شيء .

(٥) الدخيل : الحرف الذي بين حرف الروي وألف التأسيس . والتأسيس : الألف التي

ليس بينها وبين حرف الروي إلا حرف واحد كقول النابغة :

كلمتي لهم يا أميمة ناصب
وليل أقاسية بطيء الكواكب

(٦) نهاية الأرب - ٧ - ١١٣

(٧) انظر خزانة الأدب للحموي ، وحسن التوسل للحلبي في الالتزام .

أى إن هذا الالتزام زيادة لا تتطلبها التقفية ، سواء أكانت فى النظم أم النثر ، فلو لم توجد لاستقام بدونها ؛ ولم يقع عليه ضم بتركها ، ولكن جرى معها مبالغة فى التناسب والتماثل ، وغلبوا فى التزيين والتنميق .

فالسجع بمعناه الواسع : أى التقفية ، يكتب فىه بتساوى أجزاء الفواصل . وفى الالتزام زيادة التماثل قبل حرف الروى ، فهو سجع وزيادة .

فمثلا يجوز أن تجعل كلمة « كتاب » مقفاة مع كلمة « صواب » وكلمة « فهم » مصدر فهم ، مع كلمة « علم » مصدر علم ، ولكن التزام التاء فى مثل كتاب وعتاب ، وعلم وحلم — بكسر العين والحاء — يكسب التعبير بهاء ، ويزيد النعمة نداوة ورخامة ورنينا .

والالتزام على ثلاثة أقسام :

١ - التزام الحركة وحدها كقول ابن الروى :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها لاوسع بما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه بما سيلاقي من أذاها يهدد
فقد التزم الفتح قبل الروى .

٢ - التزام الحرف :

ويكون بحرف واحد ، كقوله — تعالى — : « فأما اليتيم فلا تقهر »
وأما السائل فلا تنهر . فالراء بمنزلة حرف الروى ، ومجىء الهاء قبلها فى
الفاصلتين « لزوم مالا يلزم » لصحة السجع بدونها ، لو حولناه إلى سجع آخر
فى غير القرآن الكريم ، نحو : فلا تقهر ولا تسخر .

ومثل ذلك قوله — سبحانه — : « ألم نشرح لك صدرك ... » الآيات
التزم فيها الراء « قبل الكاف » .

« فلا أُقسِمُ بالحنس . الجوار الكُنس (١) » .
التزم فيها النون المشددة قبل السين .
« والليل وما وسق . والقمر إذا اتسق (٢) » .
التزم فيها السين قبل القاف .

ومن ذلك قول ابن خفاجة الأندلسي : وقد التزم العين قبل
حرف الروي :

أنتى تطاولنى ودونى بسطتا جدّ يساعدى وجّد مسعد
ها قد حلت وللتقلل غاية فى حيث يشرق ثم يشرف مقعد
طلب السماء فهل سمعت بحيلة ترقى بها نحو السماء وتصد
الزم ثراك وعض طرفك ذلة فكأنى أنأى عليك وأبعد
ولئن ضربت - وقد عرتى وعكّ فالليث يبرد والمهند يرد
ويكون بحرفين ؛ كقوله - تعالى - « والطهور وكتاب مسطور »
التزم فيها الطاء والواو قبل الراء .

« ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرأ غير ممنون »
التزم فيها النون والواو قبل النون .
ويكون بثلاثة أحرف ؛ كقوله - تعالى - : « فإذا هم مبصرون ،
ولخوانهم يمدّونهم فى القسى ثم لا يقصرون »
التزم فيها الصاد والراء والواو قبل النون .
وابن الأثير - كما يأتى - لا يعد مثل هذه الواو داخلة فى اللزوم ،
لأنها ليست من بنية الكلمة .
٣ - التزام الحرف والحركة معاً ، كما فى بعض الأمثلة المتقدمة .

(١) الحنس بضم الحاء وفتح النون المشددة : الكواكب السيارة سميت بذلك لحنوسها :
أى رحوعها . والكنس بوزن الحنس ؛ سميت بذلك لأنها تكس كالطباء و دخولها كناسها :
أى تستتر تحت ضوء الشمس .

(٢) وسق من باب وعد : جمع وحل . واتسق : انتظم وامتلاً نوراً .

وكقول عبدالله بن الزبير (١) الأسدي - يمدح عمرو بن عثمان بن عفان: (٢)

سأشكر عمراً ما تراخت منيتي

أيادي لم تمين وإن هي جلت

فتي غير محبوب الغنى عن صديقه

ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت (٣)

رأى خلقتي من حيث يخفى مكانها

فكانت قذى عينيه حتى تجملت (٤)

حرف الروى - وهو التاء - قد جاء قبله بلام مشددة مفتوحة .

وهو ليس بلازم في السجع ؛ لصحة السجع بدونها . مثل جلت ، ومدت

ومننت ، وأنشقت ، ونحو ذلك .

ففي الأبيات نوعان من اللزوم :

أحدهما : التزام الحرف .

والآخر : فتحه .

وقد يوجد الأول بدون الثاني ، وبالعكس .

ولا يعد الردف في القافية - وهو الياء والواو قبل حرف الروى -

من باب اللزوم ، كعين ، وقين ، وحول ، وصول ؛ لأنه لا يمكن العدول

عنه ؛ لتعين السير عليه في كل الأبيات .

وقد ذكر ابن الأثير : أن بعضهم عد من هذا النوع بيتين في الحماسة ،

قافيتهما : « طيش » و« عيش (٥) » .

(١) الزبير بوزن أمير : شاعر كوفي المنشأ والمولد من شعراء الدولة الأموية ، وهو أحد

الهجائيين المشهورين .

(٢) هذه رواية معاهد التنصيص - ٢ - ١٠٥ وفي التجريد على السعد - ٤ - ٤٥٠ :

أنها لمحمد بن سعيد الكاتب في عمرو بن سعيد الأشدق .

(٣) لم تمنن بالبناء للمجهول : لم تقطع ، أو لم تخلط بالبن ، وهو ذكر الصنمية .

(٤) الحلة بفتح الحاء : الحاجة والفقر والخصاصة .

(٥) ديوان الحماسة - ٢ - ٤٠٢

وليس هذا من باب اللزوم ؛ لأن اللزوم هو : أن يلتزم الناظم والناثر
ما لا يلزمه ؛ كقولنا : شرق وشرق مثلاً ؛ فإنه لو قيل بدلا من ذلك : شرق
وحتى لجاز ذلك ؛ وفي هذين البيتين لا يقع الأمر كذلك ؛ لأنه لو قال :
طيش وعرش لما جاز ...

وإذا جرى بذلك في الشعر ، والكلام المنشور ، لا يقال . إنه التزم مالا
يلزم ، لأن الملتزم مالا يلزم ، له مندوحة في العـدول إلى غيره ، وههنا
لا مندوحة .

ثم قال : وربما وقع بعض الجهال في هذا الموضوع ، فأدخل فيه ما ليس
منه ، كقوله - تعالى - « إن المتقين في جنات ونعيم ، فاكهين بما آتاهم
رؤسهم ، ووقاهم رؤسهم عذاب الجحيم » .

وهذا لا يدخل في باب اللزوم ، لأن الأصل فيه « نعم » و « جحيم »
والياء من حروف المد واللين ، فلا يعتد بها ههنا (١) .

وهذا كلام ظاهر الجودة ، ولكن ينقصه أن يقال : إن الجمع في
القوافي بين الواو والياء غير معيب (٢) ، كما جاء في مقطوعة لبعض العصريين
عنوانها « السمن الفقيـد (٣) » وهى :

لفقد السمن قد جوعت	وناحت ربة البيت
فقلت . تجلدى فالتو	ح محظور على الميت
ولا تلوى على «كوى»	- فما تجدى - ولاء ليت ،
فقد ولى بلا رجعى	فسلى الهمم بالزيت
أيا «تجار» هل يسرى	إلى أسماءكم صوتى
هى الدنيا بما فيها	ومن فيها إلى فوت
نخافوا سطوة الجبا	ر ، واخشوا فجأة الموت

(١) المثل السائر - ١٠٩ - ١١١ .

(٢) مفنح العلوم - ٣٠٠ .

(٣) ألحان الأصيل - ٣٣١ .

فلو أن الشاعر التزم الواو وحدها ، أو الياء وحدها ، لعد صنعه من باب اللزوم ، لأنه التزم شيئاً لا توجبه عليه قواعد العروض .
وقد قال ابن أبي الإصبع في قوله - تعالى - : د والطور وكتاب مسطور ، جاءت الطاء قبل واو الردف لازمة ، وجاءت الواو ردفاً . مع جواز تبديلها بالياء .

وقال في قوله - عز وجل - : د أمرنا مُترفيها ففسقوا فيها ، .
لزم فيها الفاء قبل ياء الردف ، ولزمت الياء مع جواز تبديلها بالواو (١) .
ومها يكن فيجوز من غير قبح وقوع الواو في بعض أبيات القصيدة ، والياء في بعضها الآخر عند العروضيين ، وإن كان التزام أحدهما وحده - إذا وقع عفواً - أحسن تنغيماً ، بخلاف الألف فإنها لا يصح أن تقع مع الواو والياء .

وبعض المحدثين يقع في هذا الخطأ ولا يعرفه .

ومن ذلك قول السموءل :

إذا المرء لم يدس من اللؤم عرضه

وقوله فكل رداء يرتديه جميل

وما ضر من كانت بقاياها مثلنا

شباب تسمى للعلا وكهول

فقد جمع كثيراً بين الواو والياء في هذه القصيدة العصماء .

والشواهد على ذلك كثيرة لا تحصى ، بل من النادر أن توجد قصيدة مردوفة بأحدهما فقط (٢) .

وقد جاء اللزوم كثيراً في القرآن الكريم على رأى الحموى ، وقليلاً على رأى ابن الأثير (٣) .

والحق أن المتتبع له - على الشرط الذى ذكره - يجده كثيراً في الكتاب العزيز ، كما مر في الأمثال .

(١) نديع القرآن - ١٨١ .

(٢) هامش شرح المفصل - ١٠ - ٩٥ .

(٣) خزانة الأدب - ٥٣٠ - المثل السائر - ١١٠ .

وكقوله - تعالى - : « ياأبت إني أخاف أن يمَسَّكَ عذاب من الرحمن ، فتكون للشيطان ولياً ، قال أرأغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرُجَمَنَّكَ واهجُرُنِي ملياً » .

« قال قرينه ربنا ما أطغيتنه، ولكن كان في ضلال بعيد، قال: لا تختصموا لى » وقد قدمت إليكم بالوعيد .

« فذكّر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، وإن لك لأجرأ غير ممنون (١) .»

« أقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق . »
وقد جاء كثيراً فى الحديث الشريف ، كقوله : - عليه الصلاة والسلام - : « شرما فى المرء : شح هالع ، وجبن خالع . »

« الأرواح جنود مجنونة: فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف .
« إذا استشاط السلطان ، تسلط الشيطان (٢) . »
ومن ذلك قول عمر - رضى الله عنه - : لا يكن حبك كلفاً ، ولا بغضك تلفاً .

وقول بعض الأدباء : وجهه وسيم ، وفضله جسيم .
وقول امرأة : المس : مس أرنب ، والريح : ريح زرنب (٣) .
ومن النثر المطبوع الذى وصفه ابن الأثير بالحلاوة وعدم الكلفة :
قول بنت قيس بن خالد لزوجها الثانى - تصف له زوجها الأول « لقيط ابن زرارة » - : « خرج لقيط فى يوم دجن - وقد تطيب وشرب - فطرد البقر - بقر الوحش - فصرع منها ، ثم أتانى - وبه نضح من دم - فضمنى ضمة ، وشمنى شمة ، فليتنى مت شمة (٤) » 11

(١) ممنون : مقطوع .

(٢) استشاط : التهب غضباً .

(٣) الزرنب وزن زينب طيب ، أو شجر طيب الرائحة ، والزعفران .

(٤) المثل السائر - ١٠٧ وانظر القصة كاملة فى الكامل للمبرد - ٥ - ٩٣

والشاهد في قولها : ضمة الخ .

وهو في الشعر كثير مستفيض ، ويتفاوت في الحسن والقبح تفاوتاً كبيراً .

فمن المطبوع الجيد : قول عروة بن أذينة (١) :

إن التي زعمت فؤادك ما لها

خُلقت هوالك كما خُلقت هوى لها

بيضاء باكرها النعيم فصاغها

بلباقة فأدقها وأجلتها (٢)

حجبت تحيبتها فقلت لصاحبي

ما كان أكثرها لنا وأقلها

وإذا وجدت لها وساوس سلوة

شفع الضمير إلى الفؤاد فسلبها

وقول أبي نواس :

اترك الأطلال لاتعبأ بها لمنها من كل بؤس دانيه

وانعت الراح على تحريمها - إنما دنياك دنيا فانيه

من عقار من رآها قال لي : صيدت الشمس لنا في آنيه (٣)

وقوله :

أما وزن أبي د علي ، إنه زند إذا استوريت سهل قد حكا
لأبي الصنع عالي همتي من غيركم ، ويعاف إلا مدحكا

(١) ديوان الحماسة - ٢ - ٦٨ - ٦٩

(٢) دقت : دق خصرها وأنفها وحاجبها ، وجلت : عظم ساقها وعضداها وكل ما يحسن كبره فيها . دولة النساء - ٢٧٠ وهو كقول الشنفرى :

ددت وجلت واسبكرت وأكلت فلو جن إسان من الحسن جنت

(٣) المقار بالضم : الحمر لأنها عقرت العقل ، أو عاقرت العقل ، أو عاقرت الذن أى لازمته .

(٤) استوراه : استخرج ناره .

وقول أبي تمام :

خدم العلاء فجد منه وهي التي لا تتخدمُ الأقسامَ ما لم تتخدم
فإذا ارتقى في قلعة من سوود قالت له الأخرى بلغت تقدم
وقول أبي الطاهر السنري قسطنطى :

كل حبيب له دلال وربما شابه ملال
وأنت أنت الحبيب لكن من دون إسعافك الهلال
وقول المعرى :

يقولون في البستان للعين لذة وفي الخمر والماء الذي غير آسن
إذا شئت أن تلقى المحاسن كلها ففي وجهه من تهوى جميع المحاسن
وقوله :

لا تطلبين بألة لك رفعة قلم البليغ بغير حظ مغزل
سكن السماء كان السماء كلاهما هذا له روح ، وهذا أعزل (١)
وقول أبي جعفر الغرناطى :

ناواته وردة فاحمر من خجل وقال وجهي يغنيني عن الزهر
الحمد: ورد، وعيني: نرجس، وعلى خدى عذار كريحان على نهر
وقول أبي الفضل الميكالى :

تعز عن الحرص تعزز به ففي الطمع الذلى والمنقصه
ولا تُنزلنُ أبدأ حاجة بمن كابد البؤس والمنقصه
ولو نال نجوم الدجى ثروة وأوطأ شمس الضحا الخمسه (٢)
وقول شوقي في رثاء الأستاذ الإمام محمد عبده :

مفسر آى الله بالأمس بيننا قم اليوم فسر للورى آية الموت
رحمت! مصير العالمين كما ترى وكل هناء أو عزاء إلى فوت

(١) السماء كان: نجهان بيران .

(٢) الأخمس بفتح الميم : مالا يضيب الأرض من باطن القدم .

هو الدهر ميلاد فشغل فأنم
فذكر كما أبقى العدى ذاهب الصوت
ومن النوع الردى قول المعرى :

بنتُ عن الدنيا ولا بنتَ لى فيها، ولا عرسٌ، ولا أخت (١)
وقد تحمّلتُ من الوزر ما تعجز أن تحمله البُخت (٢)
إن مدحونى ساءنى مدحهم وخلت أنى فى الثرى سُخت

فهو قد فارق الدنيا ولا بنت ولا زوجة له؛ لأنه لم يتزوج ولم ينسل ،
وكان ذلك باختيار منه، ولكن فقدانه الأخت لا يتصل بما تقدم، لأنه ليس
من عمله هو فقد كان أبوه متزوجاً ، وكان يمكن أن تكون له أخت، ويصح
أن يكون له إخوة وأخوات وماتوا مثلاً ، وكلمة الأخت بالذات متكلفة فلم
اخترها دون الأخ مثلاً ، والغرض أنه يريد أنه مقطوع من شجرة ١٩

والبخت جاءت لمناسبة الأخت، والتمثيل بالجبال مثلاً أولى فى هذا المقام
من البخت ، وهو المشهور المعروف .

وكلمة سُخت : ثقيلة وسخيفة ، ولم تأت لغير القافية ، وهم يقولون :
تمنيت أن الأرض انشقت فابتلعتنى ، ولا يقولون ظننت نفسى سُخت .
وكرهته مدح الناس لا تستوجب أن يقول هذا ، وإنما يقول مثلاً :
خلت أنى أرمى بالحجارة والسهام وما إلى ذلك .

وقوله :

تنازع فى الدنيا سواك ، وماله ولا لك شيء فى الحقيقة فيها
ولكنها ملك لرب مُقدر يُعيرُ جنوب الأرض مُرتد فيها (٣)

(١) العرس بكسر الراء : الزوجة .

(٢) البخت بالضم : الإبل الخراسانية .

(٣) الجنوب بالضم : جمع جنب : والمرتد : الراكب خلف الراكب .

ولم تحظ من ذلك النزاع بطائل
فيا نفسُ لا تعظم عليك خطوبُها
ومن المتكلف قول الوطواط :

غرّف الإمامُ الفرد عبدُ الواسع
قرم رفيع القدر ، راية مجده
هو منهل الآراء ، أبناءُ المنى
ماضر من يحميه حرزُ ثنائه
اللزوم في شعر القدماء :

برى العلماء : أن اللزوم حلية قديمة ، وقعت في أشعار المتقدمين على
الندرة ، وأن ماجاء منها غير مقصود ، وكله من النوع الحسن المطبوع ،
وأما المتأخرون فقد قصدوا عمله وأكثروا منه .

فإن ذلك قول امرئ القيس :

فملاكُ حُبلى قد طرقت ومرضع
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له
وقول طرفة :

ألم تر أن المال يكسب أهله
أرى كل مال - لا محالة - ذاهبا
وقول حجر بن حية من شعراء الحماسة :

ولا أدوم قدرى بعدما نضجت
حتى تُقسّم شتى بعدما وسعت
بجلا ، فتمنع ما فيها أنا فيها (٢)
ولا يُؤنّب تحت الليل عافيا (٣)

(١) القرم كسح : السيد . والرقيع : كل طبقة من السموات .
(٢) التأمم : التماويز جمع تيمية . والمحول : ما أتى عليه حول ، والمراد : الطفل .
(٣) دوم القدر وأدامها : نضحها بالماء البارد ليسكن غليانها . والأناى : ما يوضع عليها
القدر من الحجارة وغيرها . والعاى : طالب القرى والمعروف .

. وقول الحطيئة :

ألا من لقلب عارم النظرات يقطع طول الليل بالزفرات^(١)
إذا ما الثريا آخر الليل أعنت^(٢) كواكبها كالجزع منهحدرات^(٣)
وقول الفرزدق :

منع الحياة من الرجال ونفعها حدق - تقلبها النساء - مراض
وكان أفتدة الرجال إذا رأوا حدق النساء لنسبها أغراض
وقول آخر - وقد قال فيه ابن المعتز : وأظنه قديماً^(٤) - :

عصاني - قومي - والرشاد الذي به أمـرت - ومن يعص المجرّب يندم
فصبراً بنى بكر على الموت لمنى أرى عارضا ينهلّ بالموت والدم^(٥)
والذي أراه : أن اللزوم لا يصح أن يوصف : بأنه قديم أو حديث ،
ولأنما يصح أن يقال فيه : إنه كثير في شعر شاعر ، وقل في شعر شاعر آخر ،
وأنه حسن في شعر هذا ، وقبح في شعر ذاك .

أما وصفه بالقدم فهو من اللغو ؛ لأنه لا بد أن يكون كذلك ؛ فهو
سمة شعرية ولدت مع الشعر ، وسائرته في جميع عصوره ، ولا يمكن أن يخلو
منه شعر شاعر ، بل قل أن تخلو قصيدة ، بل مقطوعة من اللزوم ، مادامنا
نقنع بوقوعه في البيتين أو الثلاثة ، وأى شعر يخلو من مثل هذا القدر
اليسير يجيء عن طريق المصادفة ١٩

ودونك الشعراء من أقدم العصور إلى يومنا هذا ، فإنك لا تعدم في
القصيدة الواحدة منه أبياتاً وقع فيها اللزوم ، دون أن يفتن له الشاعر ،
لأنه لم يرتكبه قصداً .

(١) العارم : الشديد .

(٢) أعنتت نابتت . والجزع يفتح الجيم ويكسر : الحرز الجاني الصبي ، فيه سواد

وياس تشبه به العيون .

(٣) البديع - ١٣٣ .

(٤) العارص : السحاب المعترض في الأفق . وينهل : يسقط .

ولكنى أعود فأقول: إنى لا أعتبر هذا النوع القليل، من اللزوم، فليس من الصواب أن يمثل له بالبيتين المتواليين، أو الأبيات المتفرقة المتناثرة في تضاعيف القصيدة.

فاللزوم عمل فنى، يعد من أشق صناعات الكلام مذهباً، وأبعدها مسلماً - كما يقول ابن الأثير (١) - وهو - من أجل هذا - يحتاج إلى نية سابقة، يظهر أثرها بتوخيه في أبيات القصيدة كلها أو جلها على الولاء، كما سنراه في نتاج عشاقه من الشعراء والكتاب المحدثين، الذين ولعوا به وسكنوا إليه. الملتزمون:

من أشهر شعراء اللزوم في العصر الإسلامى: «كثير عزة»، فقد نظم قصيدته التائية المشهورة (٢) على هذا النمط، وهى القصيدة التى أولها (٣):
خَلِيلِي هَذَا رَبُّعٌ عَزَّةٌ فَاعْقَلَا قَلُوصِيكَمَا تَمَّ ابْكِيَا حَيْثُ حَلَّتْ (٤)
والقصيدة تبنى على عشرين بيتاً، ولكنك لا ترى فيها أثراً للتكلف والتعقيد، وضعف النسيج، بل ترى أبياتها مترادفة في بجاحة أخاذه، واطراد ساحر، كأنما كان يغترفها من بحر.

وفيها يقول الأستاذ الدكتور طه حسين: لا تتردد في أن الشاعر قد تعتمد التزام اللام والتناء، ولكنك في الوقت نفسه لا تشعر بأن «كثيراً»، قد لقي في ذلك جهداً، أو احتمال فيه عناء، وإنما يخيل إليك أنه دعا الألفاظ فاستجابت له، وأهاب بها فأسرعت إليه.

وأوضح من ذلك وأظهر: أنك لا تحس في بيت من أبيات هذه القصيدة: أن القافية هى التى نظمت البيت ودبرت أمره، ووضعت بعض ألفاظه بإزاء بعض، وأجرته على الأسلوب الذى جرى عليه، وإنما تشعر: بأن البيت قد نظم، فألفت ألفاظه، واطرد أسلوبه ومضى حتى انتهى إلى قافيته

(١) المثل السائر - ١١٦ .

(٢) أمالى القالى - ٢ - ١٠٩ .

(٣) وبرى: خليلى هذا رسم عزة فاعقلا قلوصىكما تم انظرا حيث حلت

(٤) القلوس: الناقة الشابة .

انتهاء هادئاً مطمئناً مريحاً : تشعر معه بأن البيت هو الذى دعا القافية ،
لا بأن القافية هى التى دعت البيت^(١) ...

ولا شك أن صدور هذه القصيدة من شاعر غزل ، وعاشق متهالك ،
ومحب مدله موته ، وصب مهجور محروم ، أضفى عليها هذه التهاويل البيانية ،
ورقرق فيها هذه الدمائية الندية ، وسبكها هذا السبك السلس الوديع ، وجعلنا
نلمس فى ثناياها تباريح القلب الملتاع ، والكبد الحرى ، ونكاد نغفل عن هذا
اللزوم المتتابع المستوعب ؛ لأن الأداء النفسى الصادق التابع من قرارة
الوجدان ، أذهلنا عن كل ما سواه !

ولعل هذه القصيدة اللزومية — من حيث طولها — أول أثر من هذا
اللون فى الشعر العربى كله ؛ فإننا لانجد لها نظيراً فيما سبقها من الشعر الجاهلى
والإسلامى ، وإن تجدد لها نظيراً إلا فى لزوميات أبى العلاء الذى جعل من
وكد هذا الضرب من الشعر .

وكان أبو العلاء المعرى يذهب إلى أن اللام قد التزمت فى جميعها ، فلما
سأله تلاميذه عن البيت الذى يروى فيها ، وهو :

أصاب الردى من كان يهوى لك الردى

وَجُنَّ اللواتى قلبن : عزةٌ جُنَّت

قال : إن هذا البيت ليس من القصيدة^(٢) .

وأحسب أن تعصب المعرى ، هو الذى دعا إلى نفي هذا البيت عنها .

وكأنه يعتذر عن نفسه بأن من الشعراء من سبقه إلى هذا العمل .

وهبه محقاً فى ذلك ، فماذا يقول فى هذا البيت ؟ ! :

فما أنصفت أمّا النساءُ فبَغَضتْ إلىّ وأما بالنوال فضنّنت

وقد أشار داود الإنطاكى إلى : أن من أول القصيدة إلى قوله « فها

أنصفت ... » لزوم ما لا يلزم^(٣) .

(١) مع أبى العلاء فى سجنه .

(٢) سر الفصاحة — ١٢٧ .

(٣) تزئين الأسواق — ٤١ .

وعلى هذا يكون البيت المتقدم فاصلاً بين لزومين وقعا في القصيدة .
وإذا صح أن هذين البيتين الخاليين من اللزوم قاطبهما « كثير »، فإنى أرجح أنه لم يفتن إلى هذا اللزوم الذى شاع وذاع فى قصيدته، وإلا لما هان عليه أن يترك هذه الثلمة فى القصيدة، ولما شق عليه أن يأتى بلزومين آخرين، ليسد هذا النقص الذى يلفت النظر، وتجرى القصيدة كلها على نظام واحد .
كما أنى أعتقد أن المعرى قد اتخذ من « كثير » قدوة له وإماماً فى ارتكاب اللزوم الكامل، وقد تقدم لنا أن هذه القصيدة كانت من مروياته، وأنه فكر فيها وقدّر، وشغلت ذهنه، وملكته خاطره، وحاول أن ينفي عنها ما ليس من اللزوم، لأنه شغف فيها باللزوم ! .

ويقول ياقوت (١): وقد التزم « كثير » فى قصيدته اللام قبل التاء، وذلك لا يلزمه، ولم يفعل كما فعل الشنفرى فى قصيدته التى على التاء؛ لأنه لم يلزم فيها إلا حرفاً واحداً، ولكنه خالف بين الحروف التى قبل الروى، فقال:

أرى أم عمرو أزمعت فاستقلتت وما ودعت جيرانها يوم ولت
وقال فيها :

بريحانة من بطن حلية نورت لها أرجح ما حولها غير مُسنتت (٢)
وقال فيها :

لها وفضة فيها ثلاثون سيحفا إذا آنتت أولى العداة استقرت (٣)
وكان ابن الرومى — على قوة طبعه، وقلة تكلفه، وامتداد نفسه —
مغرمًا باللزوم .

يقول فيه الخفاجى: إنه يلتزم الحرف . وحركة ما قبل الروى، وإن ذلك كثير فى شعره (٤) .

(١) معجم الأدياء — ٣ — ١٥١

(٢) المسنتت: المجدب وحلية بالفتح: ثلاثة مواضع .

(٣) الوفضة: حبة السهام . وانسيحج: النصل العريض، وقيل: الطويل، وفى المفضليات

اقشمرت: أى انتفضت . (٤) سر الفصاحة — ١٧٢

ويقول ابن رشيق : كان ابن الرومي خاصة من بين الشعراء ، يلتزم
مالا يلزم في القافية ، حتى إنه لا يعاقب بين الواو والياء في أكثر شعره ،
قدرة على الشعر واتساعاً فيه .

فمن ذلك مطولته :

شاب رأسى ولات حين مشبب وعجيبُ الزمان غير عجيب
فقد التزم فيها الياء قبل الروى .
كما التزم الواو في مقنلو عنه :

وجهك يا عمرو فيه طول وفي وجوه الكلاب طول
ويقول في موضع آخر :

وكان ابن الرومي : يلتزم حركة ما قبل الروى في المطلق والمقيد ، في
أكثر أشعاره اقتداراً (١) .

ويقول النويرى : وكان ابن الرومي أولع الناس بذلك (٢) .
فمن ذلك قصيدته القافية في « السوداء » (٣) ، ومنها :

أكسبها الحب أنها صبيغت صبغة حب القلوب والحدق (٤)
فأقبلت نحوها الضمائر والأبصار يُعِنَقن أَيْمًا عَنَق (٥)
يفتر ذلك السوداء عن يَتَق في ثغرها كاللالي اللَسَق (٦)
كأنها - والمزاح يُضحكها - ليل تفرسى دجاء عن فَلَاق (٧)
وقصيدته في مدح صاعد بن مخلد :

أبين ضلوعى جمرة تنوقد على مامضى أم حسرة تنجدد
وهي طويله التزم فيها فتح ما قبل الروى .

(١) العمدة ١ - ١٠٢

(٢) نهاية الأرب - ٧ - ١١٣ (٣) المصدر نفسه - ٢ - ٣٦ (٤) حب القلوب بالفتح :

جمع حبة وهي سويداؤه أو مهجته أو ثمرته ؛ أو هنة سوداء فيه .

(٥) يمتنن : يسرعن والعنق : نوع من سير الإبل . (٦) اليق حركه : شدة البياض .

(٧) تفرى : انشق . والفلق : الصباح .

وقصيدته في ذكرى ولديه : « محمد ، و علي » التي يقول فيها :
لم يسترح من له عين مؤرقة وكيف يعرف طعم الراحة الأبرق
فقد التزم فيها كسر ما قبل الروى .

ويبدو حب ابن الرومى للالتزام فى قصيدته الطويلة التي مدح فيها أبا
أحمد الموفق العباسى ، بعد قضائه على ثورة الزنج ، وأولها :

أبا أحمد أبليت أمة أحمد بلاء سيرضاه ابن عمك أحمد (١)
فإن الصولى يقول : افتتح ابن الرومى هذه القصيدة على ما يلزمه من
فتح ما قبل حرف الروى اقتداراً ، فحمله ذلك على أن قال :

أمتاح له مقداره فكأنما تقوض شهان عليه وصندد (٢)
وهذا لا يصح ، إنما هو صندد بكسر الدال ، لأن « فعلل » بفتح اللام
لم يجرى إلا فى أربعة أحرف : درهم ، وهجرع ، وهبلع ، وقلم (٣) .
وقد التزم الدال فى قصيدته التائية التي مدح بها المهتدى بالله ، ومطلعها :
رأت وخط شيب من قريب فصددت

ولم ينتظره بنوى قد أجدت (٤)

وقد يقع الالتزام فى أول الأبيات ، كالتزام الدال فى قول أبى جعفر
الألبيرى (٥) :

دفاع لمكروه ، أمان لخائف

سحاب لمستجد ، هلال لمستعدى

(١) أبيات أمة أحمد . . . أى بذلت لها غاية ما تستطيع .

(٢) زهر الآداب - ٣ - ١٩٦ .

(٣) شهان بالفتح جبل بمكة . وصندد بكسر الصاد والدال : جبل بتهامة

(٤) الجرع كدرهم وجعفر . من معانيه . الأحن والطويل المشوق . وهبلع كدرهم .

من معانيه : الأكل المعاييم اللقم ، الواسى الحنجور . وقلم كدرهم : جبل .

(٥) فتح الغائب ٢ - ٤٢٠

دُرُوب على الحسنى ، عَفُوب لمن جنى
مُشِيب لمن أثنى ، مجيب لذى قصد
دع الغيث إن أعطى ، دع الليث إن سطا
دع الروض إذ أهدى ، دع البدر إذ يهدى

ولأبي ذؤيب في وصف حمر الوحش والصائد ، مقطوعة من ثمانية
آيات التزم الفاء في أولها (١) .

والآيات فيها حوشية وخرابة كسائر الطرديات لهذا لم نثبتها ، ولكنه
- كما يقول ابن رشيق - : اطرّد له هذا النسق بالفاء ، ولم ينحل عقده ،
ولا اختل بناؤه ، ولولا ثقافة الشاعر ومراعاته لإياه ، لما تمكن له هذا التمكن .

ثم يقف على ذلك بكلمة جليظة في الصنعة مطلقاً ، فيقول : واستطر فوا
ما جاء من الصنعة نحو البيت والبيتين في القصيدة بين القصائد . يستدل بذلك
على جودة شعر الرجل ، وصدق حسه ، وصفاء خاطره ، فأما إذا أكثر من ذلك
فهو عيب يشهد بخلاف الطبع ، وإيثار الكلفة ، وليس يتجه ألبتة أن يأتي
من الشاعر قصيدة كلها أو أكثرها متصنع من غير قصد . . .

المعرى والالتزام .

يعد المعرى شيخ الالتزام بلامراء ، وديوانه « اللزوميات » جاء كله على
هذه الطريقة ، وكذلك سلك هذا النهج في أكثر منشوره .

فلم يكن فنه كله تأملاً مستوحياً ، واستشفافاً نافذاً ، وتقبلاً للإيحاء
وانفعالا بتأثير ، واستجابة لنداء الحسن ، وروعة السحر ، والتناساً لهم
الوجود وما فيه ، بل لا تلبث أن تغلبه قوة تلك الدوافع القاهرة المخدلة من
بيئته ، فتراه ولعاً بالظواهر من زخارف الحسن السطحي الشكلى (٢) .

(١) العمدة - ١ - ٨٤

(٢) الفران لأبي العلاء ٤٢ نقلاً عن التفسير الأدبي لتاريخ مصر للإستاذ أمين الحولى

ولعله من العجب العاجب: أن المعري — وهو معروف بعمق الفكر، وبعد النظر، وقوة النفس، وأستقلال الشخصية، وعشقه للحرية في مظاهرها المختلفة، وتساميه على نواب الزمن بكبريائه ومصابرته، وتحديه لمعاصريه بمعتقداته وآرائه — ينساق في هذا الطريق الوعر الشائك، ولا يكتفي بذلك بل يزيد في الطنبور نغمات: بما يضيف إليه من الغرابة والتعمق، والرموز والألغاز في كتابه «الفصول والغايات» (١)، حتى ليجتاح قراؤه إلى من يبرجه لهم من العربية إلى العربية، بل اضطر المعري نفسه أن يترجمه للقراء، فأنشأ — كما يقول ياقوت — كتاب الشاذن (٢) في ذكر غريب هذا الكتاب، وما فيه من اللغز؛ مقداره: عشرون كراسة، وكتاب «إقليد الغايات» لطيف مقصور على تفسير اللغز، مقداره: عشر كرايس (٣).

وهذا اعتراف منه بأنه ألفه لنفسه أولاً، لا للناس !!

وقد فعل ذلك في شعره اللزومي؛ فقد ألف كتاباً سماه: راحة اللزوم؛ يشرح فيه ما في لزوم مالا يلزم من الغريب نحو مائة كراسة (٤)، وكتاب الراحلة؛ ثلاثة أجزاء في تفسيره أيضاً (٥) وكتاب سماه: زجر النابح يتعلق كذلك بلزوم مالا يلزم، وذلك أن بعض ذوى الجهالة، تسكلم على أبيات من لزوم مالا يلزم؛ يريد بها التشسر والأذية، فالزم أبا العلاء أصدقاؤه؛ أن ينشئ هذا الكتاب وهو كاره (٦).

(١) ألفه المعري في سبعة أجزاء تمجيداً لله — تعالى — ولكن خصومه الواقفين له بالمرصاد أتهموه ظلماً وزوراً: بأنه عارض به القرآن، ويسمو إليه في ذلك قولاً مدسوساً؟ والكتاب في ذاته رفيع القيمة، جليل الشأن، وهو عنوان عبقرية المعري، ومقدرته الضخمة الهائلة؛ وقد قيل: إنه بدأ به قبل رحلته إلى بغداد، ثم أممه بعد عودته إلى مرة النعمان.

(٢) في كشف الظنون ١ السادر، وعند الذهبي: السادن.

(٣) معجم الأدباء — ٣ — ١٤٧

(٤) معجم الأدباء — ٣ — ١٥٩

(٥) المصدر نفسه ٣ — ١٦١

(٦) المصدر نفسه — ٣ — ١٥٣

وقد رأينا الأستاذ الدكتور طه حسين يشرح بعض مختارات من أشعاره في كتاب « اقرأ » (١) وأحسب أنه لو كان يترجم شعراً عن الفرنسية ، ما لقي فيه هذا الجهد والعناء .

وأظن أنه لا يوجد في عصرنا الحاضر أديب — 'مهما بلغ محصوله اللغوي — يستطيع أن يستغنى عن عدة معجمات مطولة ، يستظهر بها في فهم هذه العقدة ، وليس ذلك بغريب على من كان يحفظ للكاتب سبعين اسماً !

ولاحلاف في أن المعري من نودار الزمن ، وفلتات الدهر ، ومن مفاخر العربية الكبرى ، ومن قادة الإنسانية وفلاسفتها .
وهو نسيج وحده في الذكاء والفهم وقوة الحافظة ، وأعجوبة من العجائب في اللغة ، وحفظ شواهدا ، وتقييد أوأبدها (٢) .

ولكننا نقره على الإيغال في الصنعة إلى هذا الحد المتجاوز الحد ولو أن هذه الشخصية العبقرية الفذة ، لم تجر في آثار هذا الركب المتعمل وصاححت في وجوههم صيحة مدوية : أن ارجعوا إلى الطريق المستقيم ، كما صاح ابن خلدون من بعده بثلاثة قرون ، لم يكن بعيداً أن يقيم ذلك من هذا الجرى الملتوى ، ويرده إلى الوجهة الصالحة (٣) .

وشعر المعري منه الجيد معنى ومبنى ، والجيد معنى والردى مبنى ، وليته إذ شدد على نفسه في النثر ، رفق بها في النظم ، وتركها على سجيته ، فسلم شعره الفيلسفي الاجتماعي العميق مما التاث به من هذا التكلف الذي لم تكسب منه الصياغة فائدة ، وما كان ضره أن يقدم لنا هذه الأفكار العميقة الدقيقة في سلاف رقرق شهى ، بدلا من مزجها بالصواب والعالمق ١١ .

(١) صوت أبي العلاء

(٢) أبو العلاء لأحمد تيمور باشا — ٢٢ .

(٣) فن الاسجاع — ١ — ١٢٩ .

بل ما كان أخرى هذه الأفكار الحرة الملممة ، التي أنزلت صاحبها منازل
الخالدين ، وجعلته في نظر الغربيين شاعراً ، يضاهاى أعظم شعرائهم
الاجتماعيين ، ما كان أخرى هذه الأفكار أن تكون بنجوة من هذا
الغلاف السميك ، الذى حجب سناها عن الأفهام ؟

فهل أراد الشيخ أن يسجنها كما يسجن نفسه ؟

يظهر أنه كان مضطراً لذلك تحت تأثير العوامل المختلفة التي أحاطت به
وحببت إليه هذه العزلة القاسية ، فكان أن وجد في هذه اللزوميات السجينة
ترفيهاً وترويحاً من الضجر والضيق ، والكبت والحerman ، والتبرم بالناس
والزمان ، وسجين يتأسى بسجين ١١ .

فاللزوميات - كما يقول الأستاذ الدكتور طه حسين (١) - ليست
بنتيجة الجد والسكد ، وإنما هي نتيجة العبث واللعب ، وإن شئت فقل : إنما
هي نتيجة عمل دعا إليه الفراغ ، ونتيجة جد جر إليه اللعب ... ولم أجد
نفسى حين اعتقدت : أنى شهادته يعبث بالألفاظ والمعاني ألواناً من العبث ،
لأنه لم يكن يستطيع أن يصنع غير هذا : ألواناً من العبث كثيرة الاختلاف
نثر مرسل ، ونثر مسجوع ؛ وشعر حر ، وشعر مقيد ، والشعر الحر هو
الذى يقوله الناس جميعاً ، فيلتزمون أوزانه وقوافيه المعروفه ، والشعر
المقيد هو الذى يقوله أبو العلاء ، فيلتزم فيه مالا يلتزم .

وهو لا يلتزم مالا يلتزم في القافية وحدها ، وإنما يلتزم مالا يلتزم في
المعاني أيضاً .

وهو لا يلتزمها في المعاني التي أودعها «ديوان اللزوميات» ، وإنما يلتزمها
في المعاني التي أودعها كتاب «الفصول والغايات» ، أيضاً .

ويقول : لقد حكم - أبو العلاء - قانونه الفلسفى الصارم في نثره ، كما حكمه
في شعره وحياته ، فالنظم في الكتابة مالا يلزم من إشار الغريب ، وتصريف

(١) انظر كتاب «م أ» أبو العلاء في سجنه ففيه دراسات عميقة متشعبة مستوعبة لهذه المتخصية
الاجتبية في جميع نواحيها .

اصطلاحات العلم في التعبير عن العواطف ، والدلالة على المبول ، فهو يؤدي كثيراً من الأغراض بتلك الضروب العروضية ، التي ما أراد الخليل ، بها إلا أن تدل على مجرد الأوزان والتفاعيل (١) .

ومعانيه لا تحصى كثرة ، وهي نتاج عقل نافذ ، وفكر ثاقب ، ونظر شامل محيط ، ولكنه إذا انصرف إلى صناعته اللفظية ، وعبثه بالجمل والكلمات ، شغله ذلك عن العناية بصحة المعنى ، والاكتراث بسلامة الفكرة ، فصدرت عنه مبالغات لا يسيغها الذوق ، ولا يقبلها المنطق (٢)

ومن الكتاب المكثرين من اللزوم : محمد بن يوسف التميمي السرقسطي فقد صنّف خمسين مقامة بناها على لزوم مالا يلزم (٣) .

كما كان أبو النجيب المراهي يتكلف في شعره اللزوم ، فقال فيه الأبيوردي :

شعر المراهي وحوشيتم كعقله . أسلته أسقمه
يلزم ما ليس له لازماً لكنه يترك ما يلزمه (٤)

ومما لا خلاف فيه : أن ما يأتي من اللزوم عفو البديهة ، يعلى من قدر الكلام ، ويزيد فواصله تناسباً ، وقوافيه تنغياً ، ويضفي عليه بشاشة من الموسيقى العذبة المنسجمة العميقة الدسمة .

فهذه القيود التي أضافها الشاعر إلى قيود « البحر والقافية » تكثر العناصر المكونة لموسيقى اللفظ ، ويكون لذلك صدى في النفس مركب أيضاً ، متعدد العناصر ... ومثل هذا الشعر يحمل العقل على أن يوافق نموذجاً محدوداً من النغم ، ويكون له في النفس صدى موسيقى محدوداً أيضاً

(١) تجديد ذكرى أبي العلاء - ٢٣٢

(٢) الفجران لأبي العلاء - ٥٧

(٣) معاهد التنصيص - ٢ - ١٠٦

(٤) وفات الأعيان - ٢ - ١٧

كأنما صب في قالب ذى أبعاد محدودة معينة ، إذا تغير بُعد منه ، أحسّت به النفس ، وأخل بموسيقاها^(١) .

وعند جوتيه^(٢) : أن جوهر هذا الفن هو القافية الغنية «لزوم ما لا يلزم» حتى لقد كان من عاداته أن يقول للشعراء الشباب الذين يستنصحوونه : ابدعوا أولاً بتكوين قاموس من القوافي .

وقد دافع عنها «دى بانفيل» ، دفاع مؤمن ، وكان يرى أن الشاعر لا يملك أفكاراً في عقله ، بل أصواتاً وقوافي وجناسات ، وهذه الجناسات تلازمه وتلح عليه ، وتهميه له معاني ، أو ما يشبه المعاني^(٣) .

ورأى في اللزوم : أنه من الأنواع القليلة التي لا تعاب بكثرتها في الشعر ، لأن الكثرة هنا لا تنبو عنها الأذن ولا يضيق بها الصدر ، إذ ليست إلا الانسجام السارى في مقاطع الكلام : من قواف وفواصل ، وهو مطلوب ومحبوب .

ولذلك لا نجد من يقول : إن هذا القصيدة مثلاً كثر فيها الالتزام ؛ لأن هذه الكثرة لا تحس مادامت طبيعية غير متكلفة ، وإنما الذى يقال عادة : إن هذه القصيدة كانت أحلى جرساً ، وأبدع إيقاعاً ، لو أن الشاعر استطاع أن يوحد فيها الحركات ، أو الحروف التي سبقت الروى .

والذى أخذ على المعرّنى ليس هو اللزوم نفسه ؛ بل هذا الإسراف الفاحش الذى حداه أن يبني عليه ديواناً ضخماً ، لا يسلم العقل أنه برىء من التكلفة ، فجعله ديدنه الأول والأخير ، واستهلك فى سبيله معانيه وأفكاره وإلا فقد كان ابن الرومى — كما تقدم — يفرم باللزوم ، ولكن لم يكن له الشأن الأول عنده ، فلم يطغ على شعره ، ولم يهجن معانيه ، بل لا يكاد يحسه

(١) دراسات فى علم النفس الأدبى - ٩٤

(٢) مسائل فى فلسفة الفن المعاصر - ١٥١

(٣) المصدر السابق - ١٣٤ - ١٥٤

إلا الدارس الفاحص الخبير ، ومن هنا عداه الملام الذى وجه إلى
أبى العلاء .

فأفة هذه الخلية — إذن — هى اجتلابها وتكلفها، ومتى تجنب الشاعر
ذلك، فليس من العدل أن يوصف بأنه التزم ما ليس بلازم؛ لأنه أتى بما هو
أدخل فى صناعة النظم، وأمت^١ به صلة، وأدنى إليه نسباً، بل الأولى أن
يقال: إنه فعل ما هو لازم؛ بتوفيره للقافية كل عناصر الجمال .

ولهذا كان على الشاعر أن يعرف أنه أدخل نفسه فى هذه المسالك
الضيقة، ورمى بها فى هذه المآزق المتلاحمة، دون أن يطالبه أحد بذلك .
فمن حق الفن الذى تعبد^٢ له — وقد كان حراً — أن ينهض بتكاليفه
الباهظة، ويؤدى حقوقه كاملة غير منقوصة، ويراعى شرائطه حق رعايتها،
لا يخرم منها شرطاً واحداً، حتى يبلغ نهاية الشوط الذى قدره لجريه من غير
أن تنبهر أنفاسه، أو تعتريه فترة، أو يتخو^٣نه ملل، أو تنزل به قدم،
وإلا حوسب حساباً عسيراً على معاناة مالا يحسنه، وتعاطى مالا تناله قدرته،
والتورط فيما يصعب عليه الخروج منه، وخـطبة ما يعجزه الإنفاق عليه .
وفى ذلك يقول الخفاجى: وليس يغتفر للشاعر — إذا نظم على هذا
الفن لأجل ما ألزم نفسه مالا يلزمه — شىء من عيوب القوافى؛ لأنه إنما
فعل ذلك طوعاً واختياراً من غير إكراه ولا إكراه . ونحن نريد الكلام
الحسن من أسهل الطرق، وأقرب السبل، وليس بنا حاجة إلى التكلف
المطرح، وإن ادعى علينا قائله مشقة نالته، وتعباً مر به (١) .

وما من شك فى أن الحرص على اللزوم يسوق حتماً إلى عيوب القافية
— وإن كره الشاعر ذلك — فأولى به أن يدع المعنى يختار اللفظ الذى
يريده، وهو حرى — إذا فعل هذا — أن تستقر أبياته على قواف قويمه
متينة فى موضعها، غير قلقة ولا نائية، بحيث يلحها السامع من أول البيت
فيردها قبل الشاعر .

ولكن الإسراف في العناية بالقافية — وأهم مظهر له هذا اللزوم — يفقد الشاعر عادة ربط المعاني بعضها ببعض ربطاً منطقياً ، ومعنى هذا أنه يفقده عادة التفكير ، والتفكير — كما قال — كنت — : توحيد وربط .
وإذا غرق الشاعر في العناية بالقافية وحدها ، فسرعان ما يصبح عاجزاً عن متابعة معنى من المعاني إلى النهاية ، فإذا شعره يقفز من معنى إلى معنى بضربات مضرب القافية ، ويفقد جناحيه الإلهيين اللذين كانا ينبغي لهما أن يمضيا به قدماً في رحب السموات — على حد تعبير هوجو — ويصبح طيرانه متذبذباً كطيران الخفافيش .

إن عبادة القافية في ذاتها يُدخل في عقل الشاعر نفسه شيئاً بعد شيء نوعاً من الاضطراب ، والفوضى الدائمة ، تحطم القوانين المعتادة التي يخضع لها تداعى المعاني : أي تحطم منطق الفكر ليحل محل ذلك — صدفة — تلاقى الأصوات ، ومن عقل من هذه حاله تخرج المعاني تترى خروج الرصاصات من مسدسات جنود أعرار ، لم يعرفوا بعد كيف يسددون نحو الهدف ، ويفقد الفكر زمام نفسه وراء هذه الضجة المتقطعة ، التي تحدثها اللفظة الرنانة حين تنفجر في نهاية البيت ! تلك هي « الغنائية » — كما حققها « بوالو » مع فوضى حلت محل الإلهام .

هذا إلى أن عبادة القافية ، تبطل عادة الكلام البسيط ، عادة استعمال العبارة المناسبة الدقيقة ، فالشاعر مضطر دائماً أن ينفخ المعنى فيطيله ، ويمدده من بيت إلى بيت ، حتى يلتقي بسلسلة القوافي الغنية التي ينشدها ، والتعويض عن الكلمة الواحدة بجملة برمتها .

ثم إن ذلك يؤدي إلى فقدان الصدق فالفنان الذي يسرف في العناية بالألفاظ ، يفقد القدرة على التقاط العاطفة غضة حارة قبل أن تفترا لأنه لا يحترم الفكر لذاته ، وهذا الاحترام أول ميزة يجب أن ينعم بها الكاتب .

إن موقف الشاعر — وهو يقني آلامه وأفراحه — موقف مستغرب

في حد ذاته ، فكيف إذا أضفت إليه حيرة الشاعر ، وهو يطلب إلى القافية حرفاً أكثر مما ينبغي في السابق .

وثم خطر آخر — وليس هو أهون الاخطار — هو أن يُقفر الشاعر عقله ويستنفده ، ويفرغه بطريقة آلية صرفة ، فإن الألفاظ التي تصلح للقافية الغنية قليلة ، ومتى انحصر الشاعر في عدد ضئيل من الألفاظ . انحصر في عدد ضئيل من المعاني ، ومتى التزم الشاعر هذا الشكل الفقير جداً ، صعبت عليه الجودة والأصالة (١) .

ألوان من اللزوم .

يلحق باللزوم ألوان من الكلام يصعب حصرها ، ويجمعها هذا التشدد الذي يرتكبه القائل ، ويعنت به نفسه ، تعشقاً للزينة ، وكلفاً بالتصنع وحباً في التفاصيل .

فمن ذلك :

١ — تصغير الكلمة الأخيرة من الشعر ، أو من فواصل المنثور ؛ فإن ذلك ملحق باللزوم — عند ابن الأثير (٢) . — ويكون التصغير عوضاً عن تساوي الحروف التي قبل روى الأبيات الشعرية ، والحروف التي قبل الفاصلة من الشعر .

وذلك كقول بعضهم :

عزّ على ليلي بذي سُديّر	سوء مبيتي ليلة الخُمير
مُقبضاً نفسي في طُميرى	تنتهز الرعدة في ظميرى (٣)
حتى بدت لي جبهة القمير	لأربع خلون من شمير

(١) اقرأ مسائل فلسفة الفن المعاصرة - ١٧٢ إلى ١٧٦ .

(٢) المثل السائر - ١١٠

(٣) طمير : تصغير طمر بكسر الطاء ؛ وهو الثوب الخشن . وتنتهز : تمهض وتمحرك .

ومثله قول أبي نواس لعنان جارية الناطق .

أما تَرَبَّقْ لَهَبْ يَكْفِيهِ مِنْكَ قُطَيْرُهُ^(١)
ولا شك أن في التصغير خفة ورشاقة وحلاوة ، ولكن يجب ألا يكثر
حتى لا تتسم القوافي بالتخنث .

ويذكرون في ذلك : أن ابن قيس الرقيات أنشد عبد الملك قوله :
إن الحوادث بالمدينة قد أوجعني ، وقرعن مَرُوتِيهِ^(٢)
وجيبِنِي نَجَبَ السَّنامِ ولم يترك ريشا في مناكِيهِ^(٣)
فقال له أحسنت لولا أنك خنثت في قوافيك .

وقد دافع الشاعر عن كلامه : فقال : ما عدوت كتاب الله « ما أغنى عني
ماليه . هلك عني سلطانيه » .

ولكن الفرق جسيم بين أواخر هذه الفواصل في النغم والروح ، وبين
قوافي ابن الرقيات .

وهو قد أراد أن يحتذى القرآن ، إلا أنه لم يكن موفقاً في ذلك^(٤) .
ويذكر السيوطي : أن رجلاً من أهل المدينة ، أنشد أبا عمرو بن العلاء
قول ابن الرقيات المتقدم ، فأنتهره أبو عمرو ، وقال : مالنا ولهذا الشعر
الرخو ، إن هذه الهاء لم تدخل في شيء من الكلام إلا أرخته ! ؟

فقال له المدني : قاتلك الله ! ما أجهلك بكلام العرب اقال — تعالى —
« ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه » . وقال : ياليتني لم أوت كتابيه ،
ولم أدر ما حساييه » .

فأنكر أبو عمرو إنكاراً شديداً^(٥) .

(١) الفطارة بالضم : التافه اليسير الحقيق ، نقول : أعطني منك فطارة ، وقطيرة .

(٢) قرع : دق . والمروة : الحجارة البيض ، كناية عن استذلاله .

(٣) جبه : قطعه ؛ كناية عن استئصال عزه .

(٤) تاريخ النقد الأدبي عند العرب - ٣٧ .

(٥) المزهر - ٢ - ٢٣٣ .

وللأواء الدمشقي قصيدتان تعدان الغاية في البرود والركاكة (١) .
مطلع الأولى :

طاف بشمسين من عُقَارَيْنِ في ذَهَبَيْنِ جَوْهَرَيْنِ
ومطلع الثانية :

صَوَّلَجَ لَامَيْنِ فِي عَذَارَيْنِ في ذَهَبَيْنِ جَوْهَرَيْنِ
ولصق الدين الحلي قصيدة سخيفة ، عددها أربعة وعشرون بيتاً (٢) ، أولها
نُقْنِيطُ مِنْ مُسَسِّيكِ فِي وُرَيْدِ خَوَيْلِكَ ، أَوْ وَسِيمِ فِي خُدَيْدِ
وَذِيَاكِ اللُّثْوَيْمِ فِي الضُّشْحِيَا وَجَنِيهِكَ أَمْ قُبَيْرِ فِي سُعَيْدِ
يريد أخالك : نقط من المسك في الورد ، أو هو وسم في الخد ؟
وذلك اللامع في الضحا وجهك ، أم قر السعد ؟
ولا مزيد على برده وضعفه !!

ولابن منير الطرا بلسى قصيدة طويلة من هذا النوع المخبث القوافي أولها (٣)
من ركب البدر في صدر الرديني وموه السحر في حدّ اليماني (٤)
أما وذائب مسك من ذوائبه على أعلى القضيبي الخيزراني
وما يُجِنُّ عَقِيْقُ الشَّفَاهِ مِنَ الرِّيْقِ الرَّحِيْقِ وَالشُّغْرُ الْجَمَانِي
ومنها :

مَنْ مَنَّقَدِي أَوْ مُجْبِرِي مِنْ هَوَى رَشَا

أَفْتِي وَأَفْتِكَ مِنْ عَمْرُو بْنِ مَعْدِي (٥)

لباء فارس في لين الشام مع الظرف العراقي والنطق الحجازي
وما المدامة بالألباب أفتك من فصاحة البدو في ألفاظ تركي
ويتصل بهذا النوع المتهافت قول الشاعر :

(١) ديوانه - ٢٢٠ - ٢٢٤

(٢) فوات الوفيات - ١ - ٣٥٨

(٣) نهاية الأرب - ٢ - ٢١٠ - وفات الأعيان - ١ - ٨٧

(٤) الرديني : الريح : يريد : أن وجهها بدر على قوام كالرمح .

(٥) أفتي : من الفتوة ، وعمرو هو : ابن معد يكرب الزبيدي .

أيا تملك يا تملك صليبي وذرى عدلى
ذرينى وسلاحى ثم شدى الكفّ بالغزل
ومنى نظرة بعدى ومنى نظرة قبلى
وثوبان جديدا ن وأرخى شرك النعل^(١)
ولامات ياتملى فكونى حرة مثلى
ومن الغريب : أن هذا الشعر بما اختاره الأصمعى بخفة رويه ا
وكقول الآخر :

ولو أرسلت من حُبك مبهوتا من الصين^(٢)
لوافيتك قبل الصبح أو حين تُصلين
وكان الأصمعى يتمثل به كثيرا^(٣) .

وهذا دليل على أن ذوق العلماء واللغويين والنحاة ومن إليهم ، غير ذوق
الأدباء والشعراء والفنانين .

ويجب أن يقع التصغير موقعه ، كأن يراد به التعبير عن لطافة الشيء أو
خفائه أو قلته ، أو مايجرى مجرى ذلك كقول الرضى :
يُوالع الطل برديننا وقد نسمت رويحة الفجر بين الضّال والسلم^(٤)
فحسن تصغر الريح هنا ، لإرادة النسيم المريض الضعيف .
وقول أبى العلاء صاعد الكاتب :

إذا لاح من برق العقيق وميضته تدقّ على لمح العيون الشوائم^(٥)
صغرها لأنه أراد : أنها خفية تدق على من ينظرها .

(١) شرك المنعل : ككتب : جمع شرك كسحبات : سير النعل .

(٢) المبهوت : الذى يرسل قبل أن يدرج من الطير .

(٣) الشعر والشعراء - ٢٢

(٤) التوليم : التبييض . والضال : السدر البرى • والسلم كسبب : شجر العشاء .

(٥) الشوائم : التواظر .

وقول الرضى :

زال وأبقى عند وراثته جُذَيْمَ مال عَرَقتَه الحَقوق^(١)
فصغر لما أراد القلة .

وقول ابن أبي ربيعة (٢) :

وغاب قير كنت أرجو غيوبه وَرَوَّحَ رُعيانُهُ ، ونوِّمَ سُمَّيرَ (٣)
فإنه جعله هلالا غير كامل ، بدليل : أنه غاب في أول الليل وقت
نوم السُمَّير .

والقمر — إذا كان هلالا — غاب في ذلك الوقت .

فهذا تصغير مختار في موضعه ، فأما الأسماء التي لم ينطق بها إلا مصغرة
كالجبن والثريا وأغيلة وأصينية ، وما أشبهها ، فليس للتصغير فيها حسن
يذكر ؛ لأنه غير مقصود به ما قدمناه^(٤) .

ومثلها أسماء الأناسى التي وردت مصغرة ، وأغرب مثال لها : عمر بن
هُبَيْرَة ، بن مَعَيَّة ، بن سُكَيْن ، بن حُدَيْج الفزارى (٥) فقد وردت هذه
الأسماء الأربعة بالتصغير على التتابع ، وليس لها نظير .

ومما يذكر هنا : أن سعيد بن المسيب أنشد قول عمر السابق :

فقال : ماله قاتله الله ! لقد صغر ما عظم الله ؛ يقول الله — عز وجل — :
«والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعُرْجونِ القديمِ» (٦) .

وهذه نظرة فقيهه ناسك إلى الشعر ، لانظرة نقادة ذواقه .

٢ — الخيف بفتح الخاء والياء ، أو الخيفاء .

وهو أن يأتى الكاتب في نثره ، أو الشاعر في شعره ، بكلمة معجمة

(١) عرقتَه : أصل العرق بالإسكان : أكل اللحم من العظم ، والمراد : أسكات طيباته
والجذيم : تصغير جزم بالكسر وهو الأصل .

(٢) من قصيدته المشهورة : أمن آل نعم أنت غاد فبكر .

(٣) لى ديوانه : كنت أهوى غيوبه . ونوم . نام ، والتضعيف للمبالغة .

(٤) سر الفصاحة — ٨٢ — ٨٣ وانظر المصباح مادة حدب .

(٥) رغبة الأمل — ٥ — ١٦٨

(٦) الأغاني — ١ — ٨٦

الحروف ، وأخرى مهماتها ؛ أخذاً من الخيف في الفرس وغيره ، وهو :
زرقة لإحدى العينين ، وسواد الأخرى .

وقد قال فيه العلوى : وهو فن من فنون البلاغة ، حسن التأليف
والانتظام ، هـ شتمل على ما يجوز فيه من الكلم الإهمال والإيجام (١) .
مثاله من النثر قول الحريري (٢) : الكرم - ثبتت الله جيش سعادك -
يزين ، واللوم - غض الدهر جفن حسودك - يشين ، والأروع يُشيب (٣)
والمعور يُخيب (٤) ، والحلّاحل يُضيف (٥) ، والماحل يخيف (٦) .
ومن الشعر قوله أيضاً (٧) .

اسمح قبتّ السماح زين ولا تُخبّ آملاً تضيّف (٨)
ولا تُجز ردّ ذى سؤال فتن أم في السؤال خفف
٣ - الرقطاء :

وهي : أن يرد في النثر أو الشعر كلمات يكون أحد حروفها معجماً ،
والآخر مهملاً ، أخذاً من الرقطة كنزها ، وهي : سواد يشوبه نقط
بيضاء وبالعكس .

وقدمدح هذا النوع العلوى بقوله : وليس وراء هذا شيء مخرلاً ما ذكرناه -
من الإحكام في البلاغة ، وعلو مراتب الفصاحة ، وسلاطة اللسان ،
وجودة التريجة ، وصفاء الذهن ، إلى غير ذلك من المواد التي يجعلها الله
في بعض الأشخاص دون بعض (٩) .

(١) الطراز - ٣ - ١٧٧

(٢) المقامة المراضية - ٢٢٥

(٣) الأروع : الذي يعجبك .

(٤) المعور : الفارس بدأ فيه موضع خلل للضرب .

(٥) الحلّاحل بالضم : السبد الفجاج ، أو الضخم الكثير المروءة .

(٦) الماحل : المجذب ، والمتغير البدن ، والساعي بالسر .

(٧) المقامة الحلبية - ٢٥٨

(٨) تضيّف : نزل عليك ضيفاً .

(٩) الطراز - ٣ - ١٧٨

مثاله من النثر قول الحريري (١) :

أخلاقُ سيدنا تُحسبُ ، وبِحقوقه يُلبَّ (٢) وقرُّ به تُتحفُ ، ونأيه تلفُ ،
وُخيلته نسب (٣) ، وقطيعته نصب . . .

وكقول الوطواط : سيدنا ذوُ خلقٍ وخلقٍ ، وظرفٍ ونطق .

ومن الشعر قول الحريري :

سيد ، مُقلب ، سبوق ، مُسيرٌ فطن ، مُغرب ، عزوف ، عيوف (٤)
مُخاف ، مُتلف ، أغرٌ ، فريدٌ نابهُ ، فاضل ، زكيٌ ، أنوف (٥)
مفلقٍ ابن أبان ، طبٌ إذانا ب هياج ، وحلٌ خطب مخوف

٤ — الموصل :

وهو : أن يقول الشاعر بيتا من الشعر ، لا تقبل كلماته التقطيع في الكتابة
والرسم كقول الحريري (٦) :

فتنتني ، فجنتني تجني
شغفتني بجفن ظبي غضيض
بتسجن يفتن غب تجني (٧)
غنج يج يقنضي تفه ييض جفني (٨)

(١) المقامة السادسة والعشرون — ٢٧٤

(٢) العقوة كنفحة : الخلة ، وما حول الدار . ويلب : يقام .

(٣) الخلة بالضم : الصداقة .

(٤) القلب : البصير يتقلب الأمور والمبر : الزائد في فضله . والمغرب . الذي يأتي .
بالبدائع . والعزوف : الزاهد في الشيء والمنصرف عنه .

(٥) الخلف : الذي يعوض عن المفقود . والمتلف : الذي يتلف ماله في السكرم . والأنوف :
الذي لا يقبل الضيم .

(٦) المقامة السادسة والأربعون الموسومة بالحليية .

(٧) تجني : اسم امرأة . والتجني : ادعاء ذنب لم يفعل .

(٨) الغنج بكسر النون : ذو الدلال والنزل .

٥ - المقطع .

وهو: أن يورد الشاعر بيتاً من الشعر لا تتصل حروف كلماته في الكتابة كقول الوطواط (١) :

ولأى يعظُّمى كلُّ حر ويلبسنى من أياديه بُرداً
وأدرك إن زرت دار ودود كراً، وُدراً، ووردأ، ووردأ (٢)
وقول بعضهم :

زار داود دار أروى، وأروى ذات دلٌّ إذا رأَت داوداً
٦ - الحذف .

وهو في اللغة : الرمي بالشئ؛ يقال: حذف رأسه بالسيف من باب ضرب: ضربه، فقطع منه قطعة .

وفي الحديث: «أتى إليه بببيضة من ذهب، فحذفها، فلو أصابته لعقرته». وحذف الأرنب بالعصا: رماها بها .

وفي حديث عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : إياي وأن يحذف أحدكم الأرنب .

نهى المحرم عن ذلك .

ويقال : الحذف بالعصا، والحذف بالحصى .

ومن المجاز : حذفه بجائزة : وصله بها .

وفي مصطلح البلاغة : أن يطرح الشاعر أو الناثر حرفاً أو أكثر من حروف المعجم من ثره أو نظمه .

وذلك كحذف جميع الحروف المعجمة، مثل قول الحريري من خطبة (٣)،

أولها : الحمد لله الممدوح الأسماء، المحمود الآلاء، الواسع العطاء . . .

(١) حقائق السحر - ١٨٥

(٢) الدر الأول بفتح الراء : اللين .

(٣) المقامة السمرقندية .

ومن خطبة أخرى ، أولها : الحمد لله الملك محمود ، المالك الودود ،
مصدر كل مولود ، ومآل كل مطرود . . .

ومن المنظوم قول الحظيري الوراق :

صدودُ سعادٍ أحدر الدمع مرسلًا وأسارَ حرًّا لم أحاوله أولاً^(١)
محللة صدًا أراه محرّمًا محرمة وصلًا أراه محللاً
وقول الحريري :

أعدّد لحسادك حد السلاح وأورد الأمال ورد السماح
وصارم اللهب ووصل المها وأعمل الكؤوم ، وسمر الرماح^(٢)
واسع لإدراك محل سما عماده ، لا لادّراع المِراج
وقول بعضهم :

دار لمهدّد دارس أعلامها طمس المعالم مورها ورها^(٣)مها
وكذّف جميع الحروف المهملة في قول الحريري المتقدم :
فتنتسني فجتنتني تجنى . . .

وكذّف الراء والسكاف من قصيدة للحسن بن طباطبا العلوي ، تبلغ
عدتها تسعة وثلاثين بيتاً — مدح بها ابن أبي البغل — وكان ابن أبي البغل
يلشع بالراء والسكاف ، فيضع مكان الراء غيناً ، ومكان السكاف همزة ؛ ولهذا
أسقطهما من القصيدة ، وأولها :

ياسيداً دانت له السادات وتتابعت في فعله الحسنات
ومنها في وصف القصيدة :

(١) أسأر : أبقى .

(٢) الكؤوم بضم الكاف : النياق العظيمة السنام .

(٣) مهدد بوزن منهل : اسم أسراه . والمور بالضم : التراب تثيره الرياح ؛ والرهام كجبال ؛
الأمطار الضعيفة الداعة ، جمع رهمة بالكسر .

خذها الغداة أبا الحسين قصيدةً ضيقت بها الرأى والكافات
فأسعد أبا عبد الإله بها إذا شقيت بلثغة منشد أبيات
نقصت فتمتت في السماع والغيت منها التي هي بينها آفات
إلى أن يقول :

ميزانها عند الخليل مُعدل متفاعلن . متفاعلن . فعلات
لو واصلُ بن عطاء الباني لها مُنليتُ مُوَّهم أنها آيات
وكان ابن طباطبا يقول : والله لأنا أقدر على أبي الكلام من واصل
ابن عطاء . (١)

وكحذف الرأى من كلام واصل بن عطاء ، وذلك : أنه كان يلثغ بالرأى
لثغة فاحشة ، فلم يزل يروض نفسه على تركها ، ويكابد ذلك ويغالبه ، حتى
استوى له ، وصار فيه طبعاً وملسكاً ، وهذا من الأعايب .

وفيه يقول الجاحظ (٢) . ولولا استفاضة هذا الخبر ، وظهور هذه الحال ،
حتى صار لغرابته مثلاً ، ولظرافته معلماً ، لما استجزنا الإقرار به ، والتأكيد
له ، ولست أعنى خطبه المحفوظة ، ورسائله المخلدة ، لأن ذلك يحتمل الصنعة ،
ولئما عنيت بحاجة الخصوم ، ومناقلة الأكفاء ، ومفاوضة الإخوان .

و « لو اصل » خطبة مشهورة ضافية الذبول ، منزوعة الرأى ، ارتجلها
في مجلس وإلى العراق : عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، بعد أن سبقه بالخطابة
شبيب بن شيبعة ، وخالد بن صفوان ، والفضل بن عيسى .

أولها : الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقي بلا نهاية ، الذي علا في دنوه
ودنا في علوه . . .

وختمها بقوله : نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم ، والوحي المبين

(١) معجم الأدباء - ١٧ - ١٤٥ - ١٤٦ .

(٢) البيان والتبيين - ١ - ١٥ .

وأعاذنا وإياكم من العذاب الأليم ، وأدخلنا وإياكم جنات النعيم (١) .
وقال قطرب: أنشدني ضرار بن عمرو قول الشاعر في واصل بن عطاء :
ويجعل البُرَّ قمحاً في تصرفه وجانب الرأ حتى احتال للشعر (٢)
ولم يُطلق مطراً والقول يُعجله - فعاذ بالغيث إشفاقاً من المطر
وقد ذم واصل بشار بن برد، فقال : أما لهذا الملهد المششَف (٣) المسكنيُّ
بأبي مُعاذ من يقتله ؟

أما والله لولا أن السخيلة (٤) سبجياً الغالية ، لبعثت إليه من يبيع
بطنه على مضجعه ، ويقتله في جوف منزله ، وفي يوم حفله ، ثم كان
لا يتولى ذلك منه إلا عُقْسَيْلِي أو سَدُوسِي .

وقد علق على ذلك أبو حفص الشَّمْسَرِيَّ قائلاً : ألا تريان كيف تجنب
الرأ في كلامه هذا ، وأتما للذي تريان من سلامته ، وقلة ظهور التكاف فيه
لا تظانان به التكاف ، مع امتناعه من حرف كثير الدوران في الكلام (٥) .

ألا تريان أنه حين لم يستطع أن يقول : بشار، وابن برد ، والمرعث ،
جعل المشنف بدلا من المرعث ، والملهد بدلا من الكافر ، وقال : لولا أن
الغيلة سبجياً من سبجيا الغالية، ولم يذكر المنصورية ولا المغيرية ، لمكان الرأ،

-
- (١) جهرة خطب العرب - ٢ - ٤٨٢ نقل عن مفتاح الأفكار - ٢٧٠
(٢) احتال للشعر . أى نطق بما هو خال من الرأ كالسبد بالتحريك ، والدة والحصلة
وغيرها : انظر الخصاص لابن سيده . ورواية الكامل للمبرد - ٧ - ١١٦ : وخالف الرأ .
(٣) المشنف : لابس الشنف - بفتح الشين - وهو القرط في أعلى الأذن ، والمرعث الذي
يلبس الرعثة بضم فسكون ، وتحرك ، وهى القرط .
(٤) الغيلة : الاغتياك والحديسة .
(٥) الرأ والياء واللام والألف : أكثر الحروف دورانا في الكلام وفي الزهر - ١ - ١١٨ .
أكثر الحروف استعمالا عند العرب الواو والياء والهمزة .
(٦) المنصورية والمغيرية : فرقان من فرق الضلالة ، تنسب الأولى إلى أبي منصور
العجلي ، والأخرى إلى المغيرة العجلي ، انظر الملل والنحل ، والفرق بين الفرق ، ومفاتيح العلوم .

وقال : لبعثت إليه من يبعج بطنه ، ولم يقل : لأرسلت إليه ، وقال : على مضجعه ، ولم يقل : على فراشه .

وقد أراد جماعة أن يكرهوه على النطق بالراء ، فسألوه : كيف يمكنه أن يقول : اطرَح رمحك ، واركب فرسك ا .

فأجاب في الحال : ألقى قناتك ، واعل جوادك .
فعجبوا من ذلك (١) .

وفي رواية : قيل له : رجل ركب فرسه ، وجر رمح .

فأجاب : غلام اعتلى جواده ، وسحب ذابله .

وقد سارت لثغة واصل مسير الأمثال ، وضمنها الشعراء فنون شعرهم .

فمن ذلك قول أبي محمد الخازن في مدح صاحب بن عباد :

نعم تجنب « لا » يوم العطاء ، كما تجنب ابن عطاء لثغة الراء (٢)
وقال آخر في محبوب يلثغ بالراء :

أعد لثغة لو أن واصل حاضرٌ ليسمعها ما أسقط الراء « واصل »
وقال آخر :

أجعلت وصلی الراء لم تنطق به وقطعتني حتى كأنني « واصل »
وأنشد الزمخشري في هذا المعنى :

ولا تجعلني مثل همزة واصل فيسقطني حذف ، ولا راء واصل

وقد خطب أحمد بن الحسن الزيات الأندلسي خطبة طويلة ، أسقط

الألف من حروفها (٣) :

أولها : حمدت ربِّي ، جلَّ من كريم محمود ، وشكرته ، عزَّ من عظيم
معبود ، ونزَّهته عن جهل كل ملحد كفور ، وقدَّسته عن قول كل
مفسد غرور (٤) .

(١) حقائق السحر - ١٦٦ :

(٢) سلافة العصر - ٤٩٥

(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة - ١ - ١٥٤ .

(٤) الغرور بالفتح : ما غرك ، والشيطان .

وقد عمل الصاحب قصيدة معرارة من الألف، التي هي أكثر الحروف دخولا في المنظوم والمثثور، مدح بها آل البيت، عدتها سبعون بيتاً^(١) أولها:
قد ظل يجرح صدرى من ليس يعسده أمرى
فتعجب الناس منها، وتداواتها الرواة، فاستمر على تلك المطية، وعمل قصائد، كل واحدة منها خالية من حرف من حروف الهجاء .

وبقيت عليه واحدة تكون معرارة من الواو، فانبرى أبو الحسين الحسنى الحمداني، فعمل قصيدة فريدة ليس فيها واو، مدح الصاحب في أثنائها، أولها:

برق ذكرت به الحساب لما بدا فالدمع ساكب

ويروى: أنه حكى بمجلس علي - كرم الله وجهه - كثرة دوران الألف في الكلام، وأنه لا يخلو كلام منها، فأنشأ في ذلك خطبة سماها: المونقة، ليس فيها ألف^(٢).

وإنما عد الحذف من البديع - كما يقول العلوي - لأن ما هذا حاله، إنما يصار إليه عند الاقتدار على البلاغة، والإغراق في الفصاحة، بحيث يمكنه الخوض في كل أسلوب من أساليبها، والجرى في ميدان أعاجيبها .
٧ - المجاز .

وهو أن يتم البيت ولا تتم الكلمة التي منها القافية، حتى يكون تمامها في البيب الثاني .

وقد ذكره المبرد في كتابه الموضوع في القوافي، وعده من عيوب القافية، مثلما كتب به المعري إلى تليذه ابن سنان الخفاجي:

(١) البيهية - ٣ - ٣٧٤ .

(٢) الطرزا - ٣ - ١٧٥ .

شبيهه بابن يعقوب ولكن لم يكن يو
سف يشرب الخمر ، ولا يزنى ولا يو
سع بالأمواه القهوة (١) مزجا ، لم يكن دو
ن في صبح وإساء ، وهذا منكر يو
شك الرحمن أن يصلية في نار خزي هو
لها أهل ، فلا يكشف عنه ربنا السو
ء ، فإن الأخضر الإبطين ذا الفحشاء لا يو (٢)
قد النار لأضياف ، ولو قيل له ذو
دنانير وأموال ، فيا رحمن لا تو
سع الرزق على هذا الذي منظره لو
لؤ والفعل سثنوق ، فوزن الريش لا يو (٣)

وقطع الكلام على يو (٤) .

وقال بعض أصحاب الشاعر مظفر الأعمى : رأيت في بعض تأليف أبي
العلاء المعري : ماصورته : أصلحك الله وأبقاك ا لقد كان من الواجب
أن تأتينا اليوم إلى منزلنا الخالي ، لكي نحدث عهداً بك يازين الأَخلاء ا
فما مثلك من غير عهداً أو غفل ا ا

فسأله : من أى الأبحر هذا ؟ وهل هو يبت واحد أو أكثر ؟

فإن كان أكثر فهل أبياته على روى واحد ، أم هي مختلفة الروى ؟
قال : فأفكر فيه ، ثم أجابه بجواب حسن .

(١) القهوة : الخمر ، قيل : سميت بذلك ، لأنها تقيى بضم التاء : أى تذهب بشهوة الطعام .
(٢) أخضر الإبطين : يحتمل أن تكون ذما أى أسود الإبطين ، كناية عن قذارته وكثافة
شعر إبطينة ، ويحتمل أن يكون وصفه بالخصب والنعمة ؛ كقولهم : خضر المناكب : أى مخصبون
وهو مع ذلك تحييل بدليل بقية الكلام .

(٣) الستوق كعصفور وينبوع ، مع تشديد التاء : الزيف والبهرج ، اللبس بالفضة .

(٤) سرى الفصاحة — ١٧٧

فلما قال لى ذلك ؛ قلت له : اصبر علىّ حتى أنظر فيه ، ولا تقل ما قاله .
ثم أفكرت فيه ، فوجدته يخرج من بحر الرجز ، وهو المجزوء منه .
وتشمل هذه الكلمات على أربعة أبيات على روى اللام .

وهى على صورة ، يسوغ استعمالها عند العروضيين .
ومن لا يكون له بهذا الفن معرفة ، فإنه ينكرها لأجل قطع الموصول منها .
ولا بد من الإتيان بها لتظهر صورة ذلك ، وهى :

أصلحك الله وأبقاك ، لقد كان من ال واجب أن تأتينا ال يوم
إلى منزلنا ال نحالى لى نحدث عهداً بك يازين الأخل لاء فما مثلك من
غير عهداً أو غفل .

وهذا إنما يذكره أهل هذا الشأن للمعاياة ، لأنه ليس من الأشعار المستعملة
فلما استخرجته عرضته على ذلك الشخص ، فقال : هكذا قال مظفر
الأعمى (١) .

٨ — التضمين .

وهو : ألا تستعمل الكلمة التى هى القافية بالمعنى ، حتى تكون موصولة
بما فى أول البيت الثانى ، مثل قول النابغة الذبياني :

وهم وردوا الجفار على تميم وهم أصحاب يوم عكاظ لى (٢)
شهدت لهم مواقف صادقات أتيلهمُ بنصح الود منى
والتضمين : عيب شديد فى الشعر ، وحير الشعر : ما قام بنفسه ، وخير
الآبيات عندهم : ما كفى بعضه دون بعض ، كقول النابغة نفسه :
ولست بمنسبق أخوا لا تلمسه على شعث . أى الرجال المهذب (٣)

(١) وفيات الأعيان - ٢ - ١٢٩ - ثمرات الأوراق - ١٠٠ على هامش المستطرف .

(٢) الجفار ككتاب : ماء لبنى تميم .

(٣) اللام : الإصلاح والجمع . والشعث : الفرق ؛ نقول : لم الله شعته ؛ أى أصلحه
وهم ما تفرق من أموره ، وبابه رد .

فيكفي أن تتمثل منه بقوله : أى الرجال المهذب ، أو يباقي البيت .
وعيب النابغة في شعره الأول ، عيب مفرد ، وهو التضمين ، ولكنه
لم يتكلفه كما تكلفه أبو العتاهيه في شعره الآتي ، فجمع إلى التضمين
تكلفه له (١) .

ياذا الذى فى الحب يلحى أما والله لو كاتفت منه كما (٢)
كاتفت من حب رخييم ، لما لمت على الحب ، فذرني وما (٣)
ألقى ، فإنى لست أدري بما بُليت ، إلا أننى بينما
أنايباب القصر فى بعض ما أطوف فى قصره هو إذ رى
قلبي غزال بسهام ، فما أخطأ بها قلبي ، ولكنما
سهماه عينان له ، كما أراد قتلى بهما سلسيا

ولكن من الإنصاف للعتاهي أن نقول : إنه مع قصده لهذا الصنيع
لم تفارقه دماثة طبعه ، ورقة أسلوبه ، وسلاسة حاشيته ، ولم يتخل عنه هذا
التدقق والانسجام والعدوبة التي هي كبرى مزاياه ، وأظهر خصائصه .
ويمكن أن نغفر له ذلك ، إذا جعلنا هذه المقطوعة من باب الأراجيز ،
فإنها شبيهة بها .

ويجري هذا المجري : أن يكون آخر كل بيت من القصيدة أول الذي
يليه .

وقد تكلفه قوم فجأوا بالغث السخيف ، ولكنه جاء حسناً بارعاً في
تضاعيف مقطوعة لليل الأخيلىة - تمدح بها الحجاج - :
إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دأماً فشفاهها

(١) الموشج - ٢٦١ .

(٢) لحاه يلحاه : لأمه .

(٣) الرخييم : الرقيق .

شفاها من الداء العضال الذي بها غلام إذا هزّ القناة سقاها (١)
سقاها دماء المارقين (٢) وعلّسها إذا جمحت يوماً وخيف أذاها
وفي بعض الروايات (٣) .

سقاها فرواًها بشُربِ سجّاله دماء رجال حيث مال حشاها (٤)

فهذا التكرار زاد في بهجة الكلام ، لأنه جاء فيض الخاطر ، في أسلوب
قوى متدفق ، وديباجة موقنة مطبوعة ، ولأنه يمكن أن يعتبر كل بيت
مستقلاً بمعناه ، غير محتاج لما يليه إلا من حيث بسط الكلام ، وتوضيح
معناه .

٩ — عدوا من اللزوم : الإتيان في الكلام بألفاظ لا تنطبق الشفتان
في حروفها ، كقول الحظيري من أبيات (٥) :

هأنذا عارى الجسد أسهرنى الذى رقد
آه لعين نظرت إلى غزال ذى غيّد (٦)
أرىتنى يا ناظرى صيد الغزال للأسد
إن الضنى لهجره يا عاذلى هدّ الجسد

أو الإتيان بكلمات في كل منها همزة ، كقوله أيضاً :

بأبي أعيد أذاب فوادى إذ تنامى ، وأظهر الإعراضا
رشأ يألّف الجفاء فإن أقبل أبدى لأمليه انقباضاً (٧)
أولإتيان بكلمات في كل منها سين أو شين .

(١) القناة : الرمح .

(٢) المارقين : يريد الخوارج .

(٣) الأمالى - ١ - ٨٧ - زهر الآداب - ٣ - ٢٦٥ .

(٤) السجّال ككتاب : جمع سجل كشمس : الدلو العظيمة . ومال حشاها : كناية عن

الطغيان والبطر . وفي بعض الروايات :

سقاها دماء المارقين وعلّسها إذا جمحت يوماً وخيف أذاها

(٥) معاهد التنصيص - ٢ - ١٠٧ .

(٦) العيد محرّكة : النعمة . والعادة والغيذاء : الناعمة . والأغيد : الوسنان المائل العنق .

(٧) الرشأ في الأصل : القلي إذ قوى ومشى مع أمه ، وجمه : أرشاه كرجاء .

والحريري رسالتان مشهورتان في ذلك .
الأولى السينية^(١) ، وقد التزم في كل كلية منها السنين نثراً ونظماً .
وقد كتبها على لسان بعض أصدقائه يعاتب صديقاً له أدخل به في دعوة
دعا غيره إليها ، أولها : باسم القدوس استفتح ، ويساعده استنجح .
ومن شعرها :
و « سيف السلاطين ، مستأثر بأئس السماع وحس الكئوس
وختمها بقوله :
وحسبنا السلام ، رسول السلام
والأخرى : السينية^(٢) .

وقد كتب بها إلى أبي طلحة بن النعمان الشاعر — لما قصده بالبصرة —
يمدحه ويشكره ، ويتأسف على فراقه .
أولها : يارشاد المرشد المنشيء أنشيء . شغني بالشيخ : شمس الشعراء ،
ريش معاشه^(٣) ، وفشا ريشه^(٤) ، وأشرق شهابه ، واعشوشبت^(٥) شعابه .
ومن شعرها :

فأشعاره مشهورة ومشاعره وعشرته مشكورة وعشائره^(٦)
وقد ألف المعري « كتاب سيف الخطبة » : جزءان مقداره أربعون

(١) معجم الأدباء - ١٦ - ٢٧٦ .

(٢) اسم المكتوب له : سيف السلطان .

(٣) المصدر نفسه - ١٦ - ٢٧٨ .

(٤) ريش معاشه : يريد كثرت نعمته .

(٥) الرياش : جمع ريش : وهو : اللباس الفاخر ، والحصب والماش .

(٦) المعشوشب : المكان كثير الشب فيه . والشباب : جميع شعبة بالضم : غصن الشجر
والناحية .

(٧) المشاعر : الحواس : جمع مشعر كمنهل ، والعشائر : أهل الرجل وجماعته ، جمع

عشيرة .

كراسة، يشتمل على خطب السنة، فيه خطب للجمع، والعديد، والخسوف
والكسوف، والاستسقاء، وعقد النكاح.

وهي مؤلفة على حرف من حروف المعجم، وفيها خطب، عمادها
الهمزة، وخطب بنيت على الباء، وخطب على الدال، والراء، واللام، والميم،
والنون، وتركت الجيم والحاء وما يجرى مجراهما، لأن الكلام المقول في
الجماعات ينبغي أن يكون سجسجا^(١) سهلا^(٢).

وقد أشاد البديع بمقدرته الخارقة في هذه الشعبذات^(٣) البيانية — حين
ناظر الخوارزمي — فذكر من ذلك ألواناً عدة، فكتاب يقرأ منه جوابه،
وكتاب يقرأ من أسفله، وكتاب إذ قرىء من أوله إلى آخره كان كتاباً،
فإن عكست سطره مخالفة كان جواباً، وكتاب لا يوجد فيه حرف منفصل
من راء تتقدم الكلمة، أو دال تنفصل عن الكلمة، وكتاب خال من الألف
واللام، وكتاب خال من الحروف العواطل، وكتاب أوائل سطره كلها
ميم، وآخرها جيم، وكتاب إذا قرىء معرّجاً وسرد معوّجاً، كان شعراً،
وكتاب إذا فسر على وجه كان مدحاً، وإذا فسر على وجه كان قدحاً !
وقد رد عليه الخوارزمي : بأن هذه الأبواب شعبذة !

فأجابه البديع : وهذا القول : طرّمدة^(٤) ! فما الذي تحسن أنت
من الكتابة وفنونها، حتى أباحثك على مكنونها، وأكاثرك بمخزونها،
وأشبر^(٥) فيها قلبك، وأسبر فيها لسانك وفمك .

فقال الخوارزمي : الكتابة التي يتعاطاها أهل الزمان، المتعارفة

بين الناس .

(١) السجسج : أي وسط، تقول يوم سجسج، وهواء سجسج : لاجر ولاقر .

(٢) معجم الأدباء — ٣ — ١٥٠ .

(٣) الشعبذة والشعوذة : ما يفعلها أهل السحر والمخرقة .

(٤) الطرّمدة : فخر الرجل بالباطل، والتمدح بما ليس فيه، وعدم تحقّقه في الأمور

(٥) أشبر : أقيسه بالشبر .

فقال البديع : ألا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة ، وهذا النوع المتداول بكل قلم ، المتناول بكل يد وفم ؟ ! .

وتعبير البديع للخوارزمي : بأنه لا يعرف غير ما سماه الطريقة الساذجة في الكتابة ، يدلنا على مدى التحول الذي طرأ على أساليب البيان ، ومباغ ما أصاب الأذواق من السقم والانحراف !!

وإن صح ما قاله البديع ، فقد شهد للخوارزمي — من حيث لا يشعر — : بأنه أسلم منه طبعاً ، وأصح ذوقاً ، وأصدق أداءً ، وأفصح بياناً . ولعله من الطرائف : أن ابن حجة الحموي ، رغب إليه أحد طلبية العلم بحلب : أن يكتب له تقريراً على رسالة مشتملة على حكم ومواعظ ، فكتب تقريراً مهمل الحروف ، ليس به حرف منقوطة سوى التاء المربوطة !!

منها : والله ما سمعها عالم إلا وهام ، ولا ردع سحرها الحلال مسلماً إلا كره الحرام ، وعاد عاملاً وأعد للصلاح حواصله ، وصار له مع الله معاملة . ما أحلى ما كرر عاظها المحلى ، وأهلا لسهولة مسلكها وسهلا ... وما يتصل بالزوم : نوع يقال له : « المتزلزل » .

وهو أن يقع في الكلام لفظ ، إذا غيرت حركة من حركات حروفه ، انتقل معناه إلى معنى آخر .

سمى بذلك لتحويله من صورة إلى أخرى .

ومنهم قولهم : فلان متزلزل : إذا كان لا يستقر على حال واحدة . وهو نادر الوقوع ، وقل أن يقع اتفاقاً .

وقد مثل له الوطواط بمثاليين من صياغته يتصلان بالله — عز وجل — ورسوله — عليه الصلاة والسلام — بحيث لو غير إعرابهما لكانا من الكفر الصراح !! فرأيت من الأدب أن أضرب عنهما صفحا .

(١) رسائل البديع — ٨٥ على هامش خزانة الأدب للحموي .

(٢) خزانة الأدب — ٤٤٠ .

(٣) حدائق السحر — ١٨٣ .

(٤ م — البلاغة الفنية)

وقد كان للوطواط - مندوحة عن مثل هذا الكلام الموبق، البالغ منتهى
الجرأة والتهجم - بما حباه الله من القدرة على التصرف والافتنان .
وليك مثالا له ، تكلفته من نظمي للإيضاح :

أرى ، أسماء ، حجبها أبوها فسحقا ثم سحقا للديجّاب
فإذا كسرت الجيم كان الدعاء على أبيها - وهو المراد - .
وإذا فتحتها كان الدعاء عليها .

وجعل منه العلوى قوله - تعالى - : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .
برفع اسم الجلالة ونصب العلماء .
وعد ذلك من الخطأ ، لأن الله لا يخشى أحدا ، لقدرة على كل الممكنات .
والخطأ : ما قاله العلوى ، فرفع اسم الجلالة قراءة معروفة ، كقوله - تعالى - :
« فتلقى آدم من ربه كلمات » .

بنصب آدم ورفع كلمات : على أنها استقبلته : بأن بلغنه واتصلت به (١) ،
وقد قالوا : إنها أبلغ في المعنى .

والمراد في الآية الأولى بخشية الله لعباده : لازم الخشية ، وهو التكريم
وما شاكله .

وقد ورد ذلك كثيرا ، ومنه الأثر : « إن الله ليستحي أن يخرب
البيوت العامرة » ، و« إن الله ليعجب من شاب لاصبوة له (٢) » .

ولا شك أن أكثر هذه الأنواع الملحقة باللزوم - ونعد البديع
والحريري بطليها المجليين - أثر من آثار الفراغ والبطالة ، وعمل يشبه أعمال
الحواة والسحرة ، ولا ننكر أنه نتاج مقدر فائقة على التصرف
في الصياغة ، والتلعب بالألفاظ ، وأن فيه إيقاظاً للأذهان ، والقرائح ،

(١) الطراز ٣ - ١٦٠

(٢) الكشاف ١ - ٥٢ .

(٣) تزيين الأسواق - ٦ .

كتأليف الألفاظ والأحاجي والمعميات ، ولكنه - كما يقول ابن الأثير - لا يتضمن فصاحة ولا بلاغة ، وإنما يأتي ومعانيه غثة باردة ؛ وسبب ذلك أنها تستكره استكراها ، وتوضع في غير مواضعها ، وكذلك ألفاظه ، فإنها تجيء مكرهة أيضاً غير ملائمة لأخراتها ، وعلم البيان إنما هو الفصاحة والبلاغة في الألفاظ والمعاني ، فإذا خرج عنه شيء من هذه الأوضاع المشار إليها ، لا يكون معدوداً منه ، ولا داخلاً في بابها ، ولو كان ذلك مما يوصف بحسن في ألفاظه ومعانيه ، لورد في كتاب الله - عز وجل - الذي هو معدن الفصاحة والبلاغة ، أو ورد في كلام العرب الفصحاء ، ولم نره في شيء من أشعارهم ولا خطبهم (١) .

الزوم في شعر العصريين :

يمتاز البارودي من بين شعراء العصر بالإكثار من الزوم كثرة تسترعى النظر ، وإن كنا لانستغرب ذلك منه ، فقد كان حفيها بأشعار الفحول من السابقين ، يصب على قوالهم ، ويترسم خطاهم ، ويتأثرهم في الدقيق والجليل . ثم هو - إلى ذلك - كان ولوعاً بالتفصيح والتشادق ، والتفاخر بأنه رب قلم ، كما أنه رب سيف ، وقد حداه هذا أن ينتظم بالروى كل حروف المعجم تقريباً ، فجاءت له قصائد على قافية الهمزة والألف المقصورة ، كما جاءت له أخرى على قواف بغیضة ثقيلة ، وصفها النقاد : بأنها قواف غير شعرية ؛ ينظم منها الشاعر حينما يريد الخذلقة ، ويجنح إلى التنطع ؛ كقافية الشاء والذال ، والزاي ، والشين ، والطاء والظاء ، فزاد في ذلك على أبي تمام والمتنبي وابن هاني^٢ الذين سبقوه إلى شيء من هذا الإغراب ، ولكنه أبي إلا أن يبذم جميعاً في هذا المضمار السكريه فكان له ما أراد !

والمتقدمون قلما ينتظمون بالروى كل حروف المعجم ، لأن ماروى من شعر امرئ^٣ القيس ، لا نعلم فيه شيئاً على الطاء ولا الظاء ، ولا الشين ولا الخاء ونحو ذلك من حروف المعجم .

(١) اللؤلؤ السائر - ٣٠٨ .

وكذلك ديوان النابغة ، ليس فيه روى بنى على الصاد ولا الضاد ولا الطاء ، ولا كثير من نظائرهن .

وأبو عبادة^(١) له شعر جم ، ولا أعلم - فيما روى له - شيئاً على الخاء ولا الغين ولا الثاء ، إلا أن يكون شاذاً لم يثبت في أكثر النسخ^(٢) .

فالبارودي حينما يعتمد اللزوم ، إنما يرفده في ذلك كثرة محفوظه من اللغة ، وإدلاله بالقدرة على النظم ، وشغفه بتقليد الأقدمين ، وهى بعينها نوازع قد ساقته إلى ركوب هذه القوافى الصعبة ، التى يعد اللزوم نفسه دونها هجئة وسماجة !

وفى الجزء الأول وحده ، نظم تسع قصائد من اللزوم ، أقلها : خمسة أبيات^(٣) : وهى قصيدة غزلية ، أولها :

زمنى الكأس وهاتى واسقنيها يا مهاتى

وأكثرها : ستة وعشرون بيتاً ، وهى قصيدة زهدية^(٤) ، أولها :

إلام يهفو بجليك الطرب أبعد خمسين فى الصبا أرب

وبعض هذه القصائد تجمع بين اللزوم والجناس التام ، كالقصيدة التى عنوانها . الروح بعد مفارقة الجسم^(٥) ، فتجد جانس فيها بين مصراعى المطلع ، فقال :

بلغت مداك من أرب فسيحى فأنت اليوم فى جو فسيح

ثم أتى بعد ذلك بستة أبيات تلتها خمسة منها « بالمسيح » ويتخللها بيت ينتهى « بالكسيح » .

(١) أبو عبادة : كنية البحتري .

(٢) قائمة لزوم مالا يلزم للمرى - ٢٤ .

(٣) س ٥٠ .

(٤) س ٤٦ .

(٥) س ٦٥ .

ومثلها قصيدة وعطية جاءت على روى الدال ، عددها ستة أبيات ، تنتهى بكلمة ، عادا (١) ، وأولها :

وشاخ في ذرا شماء باذخة لا يعرف الصدق إن والى وإن عادا
وبالرغم مما عرف عن البارودي من إحكام الصياغة ، وشدة الأسر ،
ومتانة النسيج ، وسلامة الديباجة ، فإن هذا اللزوم ساقه مرغماً إلى الوقوع
في بعض التكلف والغرابة والضعف والتهافت ، وهو مما يبرأ منه سائر شعره
المرصوف الحصيف ، كقوله من قصيدة همزية ، يصف فيها منزلاً بجزيرة
كريت (٢) ، أولها :

وخيلة بكرت سماوة أيكها

تحمى الهجير عن النفوس وتدرأ (٣)

وفيهما يقول :

تستن فيها الريح بين منابت	خضراء يغشاها الجبان فيجرأ (٤)
تستوقف الأبصار في غدرانها	صور تزول مع النسيم وتطراً
فالورق تهتف والربارب ترتعى	والعين تبغضهم والبلابل تصرأ (٥)
شجراً تسلسكها السموم فتغتدى	رهوا ويسكنها الهجير فيمرأ (٦)
فتح الربيع بها مدارس نزهة	للعين فيها بهجة لا تضرأ (٧)

(١) ص ١١٨ .

(٢) ص ١٦ .

(٣) السماوة : أعلى الشيء والأيك : الشجر الملتف والهجير : شدة الحر .

(٤) تستن : تجرى .

(٥) الورق بضم الواو : الحمام والربارب : قطعان الطباء ، جمع ربرب كجفر . والعين بالكسر :
واسعات العيون ، يريد بها بقر الوحش . والبنام بضم الباء : صوت الطباء ، وقد استعمله

ليبد في بقر الوحش . انظر المخصص لابن سيده . وتصرأ : تصيح .

(٦) شجراً : كثيرة الشجر . والرهو : الساكن .

(٧) تضرأ : تخفي .

وهذه القوافي قلقة غير متمكنة، زيادة على غرابتها وخشونتها في الأسماع !! وقد ضيق هذا اللزوم من خطو البارودي، وقصر من عنائه، وكف من طمّاحه، فوقف في أكبر قصيدة لزومية له عند البيت السادس والعشرين، وهو المجلي السباق، الموسوم بطول النفس؛ وامتداد الشوط، وبعد الغاية. وهناك شاعر معاصر هو الأستاذ أحمد نخيمر؛ قد اصطنع اللزوم في بعض شعره، وضمّنه ديواناً يشغل النظم منه ثلاث عشرة ومائة صفحة من القطع المتوسط جعل عنوانه «لزوميات نخيمر»، وهو الجزء الأول منها.

والأستاذ نخيمر شاعر من أبناء دار العلوم المجيدين، وله عدا اللزوميات شعر حر مطبوع.

ولا أعرف في الشعراء المعاصرين من قصد إلى اللزوم عامداً متعمداً، واعتزم أن يكون له ديوان من هذا اللون، ينسب إليه في نثر وزهو غير نخيمر، فهو بحق يعد تلميذاً بارأ مخلصاً للمعري.

وقد حمله حبه لأستاذه، أن يدافع عن آرائه وأفكاره وخلقه، وعن منهجه اللزومي في الشعر، فيقول: إنه أراد — أي المعري — أن يضاعف التأثير الموسيقي لشعره، ومن المعلوم: أن القافية في الشعر العربي عنصر من عناصر موسيقاه، فالتزم حرف آخر بجانب الروي، يجعل للشعر رنيناً خاصاً تستعد به النفس، ويشيع فيها طرباً روحياً، يؤكد الإحساس، ويوضح الصورة، ويعمق التأثير.

ويقول... ولكن الحقيقة التي لا تنكر: أن هذا الشعر الخالد؛ ما كان بممكن أن يكون له هذا التأثير، وذلك النفوذ الروحي، لو أنه جلي لنا في أسلوب غير هذا الأسلوب.

وهو يصرح باقتفائه أثر المعري، فيقول: وعلى الرغم من أنني لا أملك قدرة المعري اللغوية، ولا تؤثر في نفسي ظروف كظروفه، فتمد رأيت أن

أعارضه فيما ذهب إليه بهذا الضرب من الكلام، الذي اختاره هو لنفسه،
وقيدها به، وساقها إليه .

وقد دفعني إلى ذلك : أتى أردت أن أسلك في التعبير سبيله التي سلكها ،
وأن أجعل لشعري نفس التأثير الموسيقي الذي أراد أن يجعله لشعره، وأنى
كنت أشعر شعوراً قويا بأن من العجز أن تلقى لزوميات المعرى هكذا،
تنتقل من جبل إلى جبل لا يتلفت إليها أحد بالمعارضة أو التأييد ، كان
القرايح عقمين بعد أبي العلاء^(١).

فخيبر - كما نرى - لا يصوغ الشعر اللزومي عفواً ولا اعتباطاً،
لكن ينظمه بنية سابقة، وإصرار مهيت ، وإخلاص غامر ، يحدوه إلى ذلك
اعتقاده بأن اللزوم يرفع من درجة الشعر لفظاً ومعنى ، ويسبغ عليه بشاشة
خاصة: يجعله ساحر الأداء ، عميق التأثير .

ثم هو لا يعارض المعرى حباً في ترسم خطاه فحسب ، ولكن ليجدد
هذه السمة الشعرية المجيدة التي أشاح عنها الشعراء ، وأغفلوها وهي حقيقة
بأن تحيا وتخلد في رأيه .

ولزوميات مخيبر قسمان :

القسم الأول « الحياة والوجود » وهو أنفس القسمين ، وقد أهداه إلى
روح أبي العلاء ، مصدرأً بأبيات من الشعر .

والقسم الآخر « السياسة والاجتماع » وقد أهداه إلى شهداء الاستعمار
في العالم العربي مصدرأً بالشعر أيضاً .

ومعظم هذه اللزوميات قصير منها: البيتان والثلاثة والأربعة إلخ .

وأطولها قصيدة بعنوان « في القمر » عدة أبياتها ثلاثة وثلاثون (٢) .
وهي في جملتها خفيفة الظل ، عذبة الروح، خالية من الأفكار المزدحمة
المعقدة ، والشحطات الهوجاء، والأخيلة الجاحمة، ويقل فيها التكلف والغرابة.

وهي نتاج تأملات فلسفية واجتماعية، وصدى أحداث مختلفة، وانعكاسات أحلام وآلام وآمال، ويأخذنا لو أنها خلت من بعض قطع قليلة تتعلق بالشخصيات مدحاً وهجاء .

وبما راقين منها - وهو كثير - قطعة عنوانها : لون زهرة :

لون ورِّيقَاتك يا زهرتي ترنيمَة من قلبك الناظر
يدعو بها النحل إلى لمسه ليشر الآني من الحاضر

وقطعة عنوانها : قذيفة الأطياف :

لا يلبث الدهر أن تترى عجائبه حتى تمد إلى المريح أسيافا
قذيفة الذر مرت . سوف تتبعها قذيفة تجعل المحسوس أطيافا
إذا صعدنا إلى المريح بعد غد وهزنا الشوق زرنا الأرض أضيافا

وقطعة عنوانها : الخالد :

إذا صح أني است في الكون خالداً فإلى صبياً بالحياة وبالخالد
وإن امرأ يحيا ، ويعلم أنه سيفنى لذو قلب على علمه جلد
دعوني أستمتع بعيشي خالداً فما أنا - يا للناس - بالحجر الصلد
ولعل مخيمر في أجزاءه التالية يكون أسد رأياً ، وأعمق نظراً، وأرحب أفقاً، وأكثر افتناناً ، كما لعله يقصر لزومياته على الأغراض السامية والأفكار الخالدة وحدها ، فإنها هي التي تليق بهذه القوافي المترفة الدسمة من الشعر .
وإذا استثنينا البارودي ومخيمراً من شعراء العصر اللذين قصدا إلى اللزوم قصداً ، ساغ لنا أن نقول : إن اللزوم يقع في شعر المعاصرين فلتات ومن غير إرادة ، لذلك لا نكاد نشعر به ، وهم غالباً لا يفتنون له ، وذلك أمر طبيعي ما داموا لم يتعمدوه .

ولولا أن النقاد يعدون لزوماً : ما يقع من تماثل في الحركة أو الحرف

أو هماماً قبل الروى في البيتين المتواليين ، فضلاً عما يزيد على ذلك ، لكان لنا أن نقول : إن الشعراء العصريين لا يابهون للزوم ولا يعنون به ، وحتى الذين يحرصون على هذا التماثل تحصيلاً للإيقاع والتنغيم ، والانسجام والتلاؤم لا يريدون به هذا الالتزام الاصطلاحي ، وإنما يريدون أن يوفروا للشعر عنصراً موسيقياً يزيد في تأثيره وجماله ، يقودهم في ذلك إحساسهم الفنى وحده ، دون الخضوع لنظرية بلاغية مدروسة ، وهو مع ذلك لا يتكرر ولا يتوالى ، ولا يخرج عن نطاق القلة التي لا تلفت النظر ، ومن ثم لا يجىء إلا حسناً راعياً ، لأنه من عمل الطبع لا الصنعة .

وتفريعاً عما تقدم ، يمكن أن نسلم بوقوع اللزوم في الشعر العصرى ، مادامنا نسلم مع الأقدمين بمجيئه في البيتين ، كما يمكن أن نقول : إن الشعر المعاصر في أكثره بنجوة منه ، إذا اعتبرنا أنه يقع فيه لمعاً غير مقصودة ، بل قد لا ينتبه إليها ناظم الشعر نفسه .

الفصل الثاني

التطريز

الطراز بكسر الطاء في اللغة : علم الثوب ، وهو فارسي معرب .
وجمعها : طرز بضم طين ؛ مثل كتاب وكتب .

والطراز أيضاً : الموضع الذي تنسج فيه الثياب الجيدة ؛ تقول :
عمل هذا الثوب في طراز فلان .

والتطريز : تفعيل من طرز الثوب ؛ فنطرز : أى أعلمه ؛ بأن
جعل له طرازاً .

وطرز كفرح : حسن خلقه بعد إساءة (١) .

وطرز كفرح أيضاً في الملابس : تأنق فلم يلبس إلا فاخراً .

ومن المجاز : قوهم : للوجه المليح ؛ هو مما عمل في طراز الله ١ .
وهذا الكلام الحسن من طراز فلان (٢) .

ومن ابتكار الصاحب بن عباد ، تسميته العذار : طراز الله (٣) كما
قيل للشيب : صبغة الله ١ ؛ قال :

ولما تبدى لي امتداد عذاره رأيت طراز الله في ثوب حسنه

وما أحسن طرز فلان « بفتح الطاء » ١

وطرزه : طرز حسن ، وهو طريقته في عمله ، ونيقته (٤) .

وهو يتطرز في اللباس ، ويتطرس في المطعم : أى يتنوق ، فلا يلبس
إلا فاخراً ، ولا يأكل إلا طيباً .

(١) القاموس ، والمصباح . (٢) الأساس . (٣) انظر ثمار القلوب للثعالبي
(٤) النيقة بكسر النون : اسم من تنيق وتنوق : تجود في اللبس والمطعم وبالغ .

وهو من الطراز الأول : أى من النمط الأول ، قال حسان فى أولاد
جفنة الغساسنة :

بيض الوجوه ، كريمة أحسابهم شمس الأنوف من الطراز الأول
فالتطريز ومشتقاته - كما نرى - يدل على الزينة ، والحسن ، والجودة ،
والأناقة المفرطة .

والناظر إلى أمثلته فيها - يأتى - يتبين منه ذلك ، بل يتبين : أنه صنعة
ناعمة مترفة مسرفة فى الترف ، تحتاج إلى عناية وتفكير ، وجد وكد ، ولعل
هذا ما دعا العسكرى أن يقول فيه : وهذا النوع قليل فى الشعر (١)

وهو فى اصطلاح البلغاء : أن يبدأ الناثر أو الشاعر كلامه بذكر جملة
من الذوات غير مفصلة ، ثم يخبر عنها بصفة واحدة من الصفات مكررة
بحسب تعداد جملة تلك الذوات ، تعداد تكرار واتحاد لاتعداد تغاير (٢) .

وعرفه العلوى بأنه : مقول على ما يكون فى صدر الكلام والشعر ،
مشملا على ثلاثة أسماء مختلفة المعانى ، ثم يوتى بالعجز فتكرر فيه الثلاثة
بلفظ واحد (٣) .

وهو أشبه ما يكون بشرح للتعريف السابق .

ومن أمثلته قول أبى نواس - على لسان لابس ثوب أبيض - :
فثوبى مثل شعرى مثل نحرى بياض فى بياض فى بياض
وقول ابن شعيب الأصهبانى (٤) :

وساقى بت أشرب من يديه مشعشعة بلون كالنجيع (٥)
فحمرتها ، وحمرة وجنتيه ونور الكأس فى نور الشموع
ضياء حارت الأبصار فيه بديع فى بديع فى بديع

(١) الصناعتين - ٤١٢

(٢) حسن التوسل - ٧٤ - خزائن الأدب الج. ٢ ، - ٤٥٨ - نهاية الأرب - ٧ - ١٤٨

(٣) الطراز - ٣ - ٩١

(٤) معجم الأدباء - ١١ - ٢١٣ (٥) مشعشعة: ممزوجة . والنجيع : دم الجوف .

وقال الجوهري صاحب الصحاح (١) :

وهأنا يونس في بطن حوت بنيسابور في ظل الغمام (٢)
فبیتی ، والفؤاد ، ويوم دجن ظلام في ظلام في ظلام (٣)

وقول اللطام الحراني في بعض الحكماء (٤) :

قلنسوة على رأس صليب مساحته جريب في جريب (٥)
وإن يدي ، وهامته ، ونعلي قريب من قريب من قريب

ومما نسب إلى عضد الدولة البويهی (٦) :

طربت إلى الصبوح مع الصباح وشرب الراح ، والغرر الملاح
وكان الثلج كالكافور نثراً ونارى بين نارنجي وراحي
فشمومي ، ومشروبي ، ونارى وثلجي ، والصبوح مع الصباح
طيب في طيب في صباح في صباح في صباح

وقول ابن المعتز - على لسان المعشوق - :

فتوبى ، والمدام ، ولون خدى شقيق في شقيق في شقيق (٧)
ويقول ابن لنكك :

شموعك والكتوس مع الندامى نجوم في نجوم في نجوم
وقول بعضهم :

فتوبك مثل شعرك مثل بختي سواد في سواد في سواد

(١) معجم الأديباء - ٦ - ١٥٩ - ١٦٠

(٢) نيسابور بفتح النون : من بلاد وراء النهر .

(٣) الدجن كراى : لباس القيم الأرض .

(٤) البيهية - ٤ - ١٠٤

(٥) الجريب بوزن طيب : مقدار معلوم من الأرض والطعام .

(٦) المستطرف - ٢ - ١٨٩ وقد تشكك الثعالبي في نسبتها إليه - البيهية - ٢ -

١٩٦ - ١٩٧

(٧) الشقيق : شقائق النعمان ؟ وهو زهر شديد الحرارة .

وقول عز الدولة:

وخالك في عذارك في الليالي سواد في سواد في سواد
وقول آخر:

أيا قمرأ تبسم عن أقاح ويا غصناً يميل مع الرياح
جيينك ، والمقبّل ، والثنايا صباح في صباح في صباح^(١)
وقول على باشا رفاعة الطمطاوى لأسود يحمل القهوة ليلاً :

كأنك ، والذي يبيديك ليلاً سواد في سواد في سواد
ومن يتقصى التطريز ، يظهر له أنه أكثر ما يقع في الوصف والغزل
والشكوى على جهة المبالغة والمفاكحة .

ثم هو لا تكاد تجده في شعر الجاهليين والإسلاميين ، ولا يقع في شعر
الفحول من المحدثين إلا فلتات ، عد ابن الرومي ، فإنه أكثر منه ، وكان
مجيداً فيه ، شأنه في كل ما تعاطاه من فنون الشعر .

فن بدائع قوله يتغزل :

ويستقيني ويشرب من رحيق خليق أن يشبه بالخلوق^(٢)
كأن الكأس في يده وفيه عتيق في عتيق في عتيق
وقوله - يهجو بني خاقان - :

أمورك - بني خاقان - عندي عجب في عجب في عجب
قرون في رموس في وجوه صلاب في صلاب في صلاب^(٣)

فأنت تحس ماء الطبع يترقرق في هذا الشعر ، ولا تعثر على كلمة غليظة
أو نابية فيه ، فهو سمح سهل مطرد كالماء الدافق ، هذا إلى دقة الوصف
ولطفه ، وتلاحم نسجه ، وجودة التلائم والمشاكلية بين طرفي التشبيه ،
فحمرة الخرة الصافية ، وحمرة اليد المخضبة ، وحمرة الشفاه النابضة بالشباب
الحار ، أفضل ما يصوره لنا هذا العتيق المثلث !

(١) المقبل كعظم: الشعر .

(٢) الخلق بالفتح والخلق كسحاب : الطيب .

(٣) القرون: كناية عن الديانة ، ويقال للديوث قرنان بالفتح ، وقد أكثر ابن الرومي في

هجائه بذلك .

وكذلك يروقك هذا التناسب البديع ، الذى وفق لإليه الشاعر فى صلابة القرون، وصلابة الروس ، وصلابة الوجوه، فكل منها يوصف بالصلابة. والصلابة قد تحمد فى أشياء كثيرة ، ولكنها تبلغ نهاية الدم فى هذه الثلاث ! لهذا لم يكن عجباً أن تثير فىنا العجب العاجب ثلاث مرات : عجاب فى عجاب فى عجاب ١.

ولا تتحقق مثل هذه البراعة إلا بالفكرة الثاقبة ، والنظرة العميقة الواسعة ، والملاحظة الدقيقة المستوعبة ، والاستقراء الشامل لخصائص الأشياء ويميزاتها ، وإدراك الفروق بينها ، وهى من سمات ابن الرومى . وقد كان هذا اللون الطريف نافق السوق فى عهود التصنيع البديعى ، فابن إميلسيّ بن أبى طاهر الجليلي يحدثنا (١) : أنه أنشد لعضد الدولة فى أبى الفتح بن العميد ومودته ، قوله (٢) :

ودأذك لازم مكنون صدرى وحبك جننى ، والعشق زادى
فإن واصلتني أزداد حبا وإن صارمتني يزدد سهادى
وخالك ، فى عذارك ، فى الليالى سواد فى سواد فى سواد (٣)

فأجابه أبو الفتح :

دعاني فى انبلاج الليل وصبح ، فنأدى : قم فحى على الفلاح
فقلت له : ترفق يامنأدى أليس الليل مسودّ النواحي
فثغرى ، والمدام ؛ وحسن وجهى صباح فى صباح فى صباح (٤)
ويقول ابن سكرة الهاشمي (٥) خرجت إلى الأهواز قاصداً الوزير أبى محمد المهلبى ، مادحاً له :

فلما وصلت إليه أشدته :

فنى حيث أتهيت من الصدود ولا تتعمدى قتل العميد (٦)

(١) معجم الأدباء - ١٤ - ٢٣٩ - ٢٤٠

(٢) عزى الثعالبي البيت الأول والثالث لبيختيار بن معز الدولة. اليتيمة - ٢ - ١٩٨ .

(٣) الخال: الشامة فى البدن . والعذار بال كسسر : الحد.

(٤) يلاحظ أن هذا البيت منقطع الصلة بما قبله .

(٥) معجم الأدباء - ٩ - ١٥١ - ١٥٢

(٦) العميد والمعمود : من ساء العشق أو المرض .

فقد - وهواك - وهو أجل حلاً في

حيث نظيرتيك من الهجود^(١)

هجرت مقيمة ، وطلعت غضبي فخرت الحديد على الحديد^(٢)
فراق طعينة ، وفراق رأى يكُرهُما على فراق جود
ثلاث ما اجتمعن على ابن حب صدود في صدود في صدود
قال : وانصرفت . فلما كان من الغد استدعاني ، وقال : اسمع ،
وأشددني لنفسه :

أتاني في قيص اللاذ يمشي عدو لي يلقب بالحبيب^(٣)
فقلت له : فديتك ا كيف هذا بلاواش - أتيت - ولا رقيب
فقال : الشمس أهدت لي قيصاً رقيق الجسم من شفق الغروب
فثوبى ، والمدام ، ولون خدى قريب من قريب من قريب
ويلاحظ : أن التطريز في شعر ابن سكرة ، وفي شعر أبي الفتح ، مأخوذ
من قول ابن المعتز المتقدم :

فثوبى ، والمدام ، ولون خدى شقيق في شقيق في شقيق
ويقول الأمير تميم ابن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي :

تمتع بالمسرة والشباب فقد برز الربيع من الحجاب
فحبسك والزمان وأنت فيه شباب في شباب في شباب
فحى على المدام بكف ساق يُدير الخمر من برد عذاب^(٤)

(١) الحلف كنف ورفق وكثف : القسم ونظيرتيك : عيناه والهجوم : النوم

(٢) حربة : ضراه وأثاره .

(٣) اللاذ : جم لاذة . وهو ثوب حريري أحمر صيني .

(٤) برد عذاب : يقصد الأسنان العذبة الريني .

يدير بريقه ويديه نحرأ
يداه ثم وجنته وقلبي
كأن يديه حاكت وجنتيه
إذا ما أكثر العذال فيه
عسواتهم وعذلهم جميعاً
لعمرك إنما الدنيا عروس
بنفسجها ونرجسها وورد
فأهرق من دم الإبريق راحا
وإبريق وكأسي والغوادي
أتم الشرب إن الصحو عن
فرايك ثم شربك والقوافي

شراب في شراب في شراب
شهاب في شهاب في شهاب
بنار - يصطلي منها - لهاب (١)
وزاد على ترديد العتاب
سراب في سراب في سراب
جلاها الغيث من تحت النعاب
خضاب في خضاب في خضاب
فإن الغيث ممنوع انسكاب
سحاب في سحاب في سحاب
وللنيروز حظ في الشراب
صواب في صواب في صواب

ويلاحظ أن هذه القطعة أطول ما جاء في التطريز ، ومن هنا شابهها
كثير من التكلف والتعمل والاجتلاب ، وبمعدت عن نوازع الفطرة والطبع ،
لأن هذه الحلى إنما هي لمحات قليلة وفتات تأتي عفواً .

وقد ذهب العسكري في التطريز مذهباً آخر (٢) ، خالف فيه ما اصطاح
تليه جمهور البلغاء ، فعرفه : بأن يقع في أبيات متواليمة من القصيدة ، كلمات
متساوية في الوزن ؛ فيكون فيها كالطراز في الثوب .

وذلك كقول زياد الأعجم :

ومتى يؤامر نفسه مستخلياً في أن يجود لذى الرجاء يقلُ جد (٣)

(١) لهاب بضم اللام: اشتعال النار.

(٢) الصناعيين - ٤١٢

(٣) مستخياً: خالياً بنفسه .

أو أن يعود له بنفحة نائل بعد الكرامة والحياة يقل عد
أو في الزيادة بعد جزل عطية للمستزيد من العفاة يقل زد
فالتطيرين هنا في قوله : جد ، وعد ، وزد .

وقول أبي تمام :

أعوام وصل كاد يُنسى طولها ذكرى النوى ، فكانها أيام
ثم انبرت أيام هجر أردفت نجوى أسي ، فكانها أعوام (١)
ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكانهم وكانها أحلام
فالتطيرين في قوله : فكانها أيام ، فكانها أعوام ، وكانها أحلام .
وقول العسكري في مرثية :

أصبحت أوجه القبور وضاء وغدت ظلمة القبور ضياء
يوم أضحي طريدة للمنايا ففقدنا به : الغنى والعناء (٢)
يوم ظل الثرى يضم الثريا فعدنا منه : السنا والسناء (٣)
يوم فانت به بوادر شوم فرزنا به : الثرى والثراء (٤)
يوم ألقى الردى عليه جراننا فحرنا منه : الجدا والجدا (٥)
يوم أوت به هناة الليالي فلبسنا به : البلى والبلاء (٦)
ومثل ما تقدم قول المعتمد بن عباد الأندلسي للطبيب أبي محمد المصري (٧):
أيها الصاحب الذي فارقت عيني ونفسي منه السنا والسناء

(١) أردفت: حملت واستثبتت . (٢) الغناء بالفتح: النفع والاكتفاء.

(٣) السنا: الضوء. والسناء: لرفعة . (٤) الثرى : الخير .

(٥) الجران بالكسر: مقدم عنق البعير من مذهبه إلى منحره ؛ فإذا برك البعير ومد عنقه على الأرض ، قيل ألقى جرانه ، والجدا بالفتح : العطاء . والجدا بالفتح أيضاً : النعم تقول قل جدا عنك؛ أي غناء الأساس مادة ج د ي .

(٦) ألوى به: ذهب. والهناة بفتح الهاء والتاء المربوطة: الداهية وقد أوردها القاموس بالتاء المتحركة خطأ .

(٧) قلائلا القيان - ٦

نحن في المجلس الذي يهب الراحة ، والسمع والغنى والغناء
تتعاطى التي تسمى من اللذة والرقّة الهوى والهواء (١)
فأته يُنلف راحة ومحياً قد أعدا لك : الحيا والحيا (٢)

والحق : أن ما جاء في شعر العسكري وشعرا بن عباد : أولى به أن
يسمى جناساً ، كما هو مذكور في محله (٣) .

وبما أورده العسكري مثالا للتطريز : قول أحمد بن أبي طاهر :
إذا أبو قاسم جادت لنا يده لم يحمد الأجودان : البحر والمطر
وإن أضاءت لنا أنوار غرته تضاهل الأنوران : الشمس والقمر
وإن مضى رأيه أو حدث عزومه تأخر الماضيان : السيف والقدر
من لم يكن حذراً من حد صولته

لم يدر ما المزعجان : الخوف والحذر
فالتطريز في قوله : الأجودان ، والأنوران ، والماضيان والمزعجان .
وقد عد هذه القطعة في الصناعتين (٤) أحسن ما جاء في التطريز .

وقال عنها في ديوان المعاني (٥) : لو استعمل الإنصاف ، لكان هذا
أحسن مدح قاله متقدم ومتأخر .
وسياتى ذكر هذه القطعة في أمثلة التوشيح .

(١) يرید بها : الخمر .

(٢) الراحة هنا : بطن الكف . والحيا : القيث يرید به العطاء . أى تلقى راحة مطاء ،
ووجها حياً .

(٣) انظر فن الجناس للمؤلف .

(٤) ص - ٤١٢

(٥) ح - ١ - ص - ٤٨

ومن الغريب أن العسكرى في الفصل الذى عقده « للتطريز » لم يسق مثالا واحدا ينطبق عليه في رأى الجمهور .

ولكنه في فصل آخر عقده « للمجاورة »^(١) أتى بأمثال ذكرت في التطريز ، كقول الشاعر :

فلونى ، والمدام ، ولون ثوبى قريب من قريب من قريب
وقوله :

كأن الكأس في يده ، وفيه عقيق فى عقيق فى عقيق
وقوله أيضا :

دعونا ضرة البدر المنير فوافتنا على خضر نضير^(٢)
مطرزة الشوارب بالغوالى مضمخة السوالف بالعبير^(٣)
ترى ما شئت من قد رشيق وما أحببت من ردف وثير
الأمسا - وقد لبست حريراً - - فأحسبها حريراً فى حرير
فأس ، ثم هو ، ثم وصل سرور فى سرور فى سرور

وعرف المجاورة بأنها : تردد لفظتين فى البيت ، ووقوع كل واحدة منهما بجانب الأخرى أو قريباً منها ، من غير أن تكون إحداهما لغواً لا يحتاج إليها .
وهذا يتجلى لنا الفرق بين نظره ونظر الجمهور إلى التطريز ، فهو لم يشترط فيه غير تساوى الوزن فى كلمات ، تقع فى أبيات متوالية من القصيدة كما تقدم فى الأمثلة .

(١) الصناعتين - ٤٠١ .

(٢) خضر : شىء يوصف بالخضرة كالعشب والبساط .

(٣) الشارب : الشعر الذى يسيل على الفم ؛ قال أبو حاتم : ولا يكاد يثنى . وقال الكلابيون : شاربان باعتبار الطرفين ، والجمع شوارب ؛ والمراد بالشوارب هنا : الزغب الناتج على فم المرأة وقد كان بعض الناس يستملحه ، أو المراد : مكان الشوارب من إطلاق الحمال وإرادة الحمل .
والغوالى : أخلاط من الطيب .

الفصل الثالث

التفوييف

الفوف بالضم فى اللغة : البياض فى أظفار الأحداث ، واحده : فوفة بوزن غرفة .

وهو أيضاً : قطع القطن ، وضرب من برود الين .

وفى قول ابن أحر : الزهر ، شبه بالفوف من الثياب .
وحلة أفواف ، وبرد أفواف : رقيق .

وشعر كأنه أفواف الوشى (١) .

وثوب مفوف كمعظم : رقيق ، أو فيه خطوط بيض .

ومن هذا الأخير اشتق التفوييف البديعى المراد هنا .

والقصد : تلويينه ونقشه (١) .

وفى اصطلاح البديعيين : إتيان المتكلم بمعان شتى من المدح والوصف

والغزل ، وغير ذلك من الأغراض التى ينتجها المتكلمون ، كل فن فى جملة

منفصلة من أختها بالسجع غالباً ، مع تساوى الجمل فى الزنة (٣)

وقد عرفه الخطيب (٤) بأخصر من ذلك ، فقال هو : أن يؤتى فى الكلام

بمعان متلائمة ، فى جمل مستوية المقادير أو متقاربتها .

وأرجع بعض أمثاله إلى مراعاة النظير ، وبعضها إلى المطابقة .

(١) القاموس والأساس : مادة فوف .

(٢) خزائن الأدب للحموى — ١٤٠

(٣) بديع القرآن — ٧٦ — نهاية الأرب — ٧ — ١٤١

(٤) الإيضاح — ٢٥٠ — حسن التوسل ٧٠

ومثّل له بقول أبي القاسم الزاهي أو ابن رشيق في وصف السحاب: (١)
تسرّبل وشيا من خروز تطرّزت مطار يفها طرّز آمن البرق كالنبر (٢)
فوشى بلا رقم ، ونقش بلا يد ودمع بلا عين ، وضحك بلا ثغر
والشاهد في البيت الثاني .

وقول عنتره :

إن يلحقوا أكروز ، وإن يستلمحوا أشدّد ، وإن نزلوا بضنك أنزل (٣)
وقول ابن زيدون :

ته : أحتمل ، واحتكم : أصبر ، وعزّ : أهـن

ودلّ : أخضع ، وقلّ : أسمع ، ومرّ : أطلع (٤)

وقول ديك الجن الحمصي :

الحلّ . وامرر . وضرب . وانفع . ولن . وانخشـن

ورش . وأبر ، وانتدب للعالي (٥)

ومثّل له الحلبي بقول صفي الدين الحلبي — وهو أشبهه بقول ديك الجن

المتقدم في الصورة — :

اقصر . أطل . اعذل . اعذر . نسل . نخل . أعن

نخن . تهن . عن . ترقق . كنف . لج . ألم (٦)

(١) بنية الإيضاح — ٤ — ١٨

(٢) الخروز بالضم : جمع خز ، وهو الحرير ، والمطاريف جمع مطرف بكسر الميم وضمها ،
وفتح الراء : زداء من خز مربع ذو أعلام ، والطرز ككتب في الأصل : جمع طراز .

وهو علم الثوب وفي رواية وشيا من حرير .

(٣) يستلمحوا : يطلبون أن ألحق بهم .

(٤) دلّ بكسر الدال : فعل أمر من الدلال .

(٥) رش : أمر من راشة : سقاه وكساه وأصاح حاله ونعمه ، وأبر من البرى : خسر واقطع .

وانتدب : أوجب واضمن وتكفل .

(٦) عن : أمر من العناء . ولج : أمر من اللجاج .

ومما جاء في شعر الأعراب : قول أبي العميثيل (١) .
فاصدُق ، وعفَّ ، وُجد ، وأنصف ، واحتمل
واصْفح ، ودار ، وكاف ، واحلم ، واشجُع (٢)
والطف ، ولن ، وتأن ، وارْفُق ، واتند
واحزُم ، وجدَّ ، وحام ، واحمل ، وادفع (٣)
وقد عجبت أن يكون الأعراب الجارون على السليقة والفترة ينطقون
بمثل هذا الشعر الذي لا يأتي إلا بعسر وكلفة شديدة ، وأحسبه محمولا على
أبي العميثيل فيما حمل على الأعراب من الشعر المنحول .
ولعلنا نجد الدليل في قول ابن بسام : وهذا الباب صنعه المولدون ،
وعدوه تقسيما وتقطيعا (٤) .
ولأبي الفرج الأصفهاني في مدح الوزير المهلبى - وكان منقطعاً إليه (٥) :-
يا فرجة الهم بعد اليأس والوجل
يا فرجة الأمن بعد الروع والوهل (٦)
أسلم ، ودم ، وابق ، واملك ، وانم ، واسم ، وزد
وأعط ، وامنع ، وضر ، وانفع ، وُصل ، ويصل (٧)
وقد قسم العلوى التفويف إلى قسمين (٨) :
١ - قسم يكون التفويف فيه راجعاً إلى المعنى ، وذلك كأن تصف

(١) العمدة - ٢ - ٢٤
(٢) كلف : من المكافاة .
(٣) احزم : أمر من الحزم .
(٤) الذخيرة - ١ - ٣٢٠
(٥) اليتيمة - ٣ - ٩٩
(٦) الفرجة مثلثة الفاء : الخروج من الهم . والوهل بفتح الهاء : الفزع .
(٧) ضر بكسر الصاد : أمر من ضار به يضره ويضوره ضر . وصل بضم الصاد : أمر من الصولة . وصل بكسر الصاد : من الوصل والصلة : ضد هجر (٧) .
(٨) العراز - ٣ - ٨٥ - ٧٦ .

الممدوح بما يدل على مدحه من صفات المسكارم ، وسمايت المحامد ، ثم تورد صفات دالة على ذمه ، ولكن اقترن بها ما يرشد إلى كونها مدحاً ، مثل قول جرير :

هم الأخيار من سنسكة وهذيا وفي الهيجا كأنهم صقور (١)
بهم حدب الكرام على المعالي وفيهم عن مساويهم فتور (٢)
خلائق بعضهم فيها كبعض يؤم كبيرهم فيها الصغير
عن السكراء كلهم غيُّ وبال معروف كلهم بصير
فتشديدهم بالصقور على إطلاقه : ذم ، لأن من شأن الصقور الخطف
والبغي ، وتوصف بالبخر ، ولكن اقترانه « بالهيجا » جعله مدحاً ، لأن
الإنسان إذا كان في الحرب صقراً ، كان باسلاً غلاباً .

ووصفهم بالفتور - وهو ضعف وعجز - : ذم ، ولكن اقترانه بعطفهم
على المعالي ، وولوعهم بها صيره مدحاً سامياً .

واتهام الكبير بالصغير نهاية الخول والفسولة ، ولكن اقترانه بأنهم
يتساوون في الأخلاق الكريمة ، والصفات العالية ، رفعه إلى الغاية من
الثناء والمديح : « ذرية بعضها من بعض » .
والغباوة في ظاهرها صفة ذم ، ولكن لما اقترنت بأنهم بصراء بالمعروف ،
استحال إلى مدح عظيم .

٢ - قسم يرجع إلى الألفاظ كالشعر المتقدم .

تسر بل وشيا من حرير تطرزت « البيتين »
ويتصل بالتفويف : شيتان .

الأول : التعديد ، ويسمى أيضاً : سياقة الأعداد .

(١) المنسكة : مصدر ميمي ؛ وهو التزهّد والتعبد . والهيجا : بالقصر والمد : الحرب .

(٢) الحدب : بفتح الدال : العطف .

وهو : إيقاع أسماء مفردة على سياق واحد ؛ بحيث يكون كل واحد من هذه الأسماء له معنى قائم بذاته ، ويكون اسماً كذلك لشيء آخر . فإن روعى في ذلك ازدواج أو جناس أو طباق أو نحو ذلك ، كان في غاية الحسن .

وذلك كقولهم من النثر : دفعنا إليه ، ووضعنا بين يديه زمام الخل والعقد ، والقبول والرد ، والأمر والنهي ، والإثبات والنفي ، والبسط والقبض ، والإبرام والنقض ، والهدم والبناء ، والمنع والإعطاء .

ومن الشعر قول المتنبي :

بم التعلل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن (٢)
والقسم الآخر : تنسيق الصفات .

وهو أن يذكر الشيء بجملة أسماء ، أو جملة صفات متواليمة .

مثال ذلك من القرآن الكريم : « هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون » .

« يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » .

ولا تطع كل حلافٍ مهينٍ همّازٍ مشاءٍ بنميم ، منّاعٍ للخيرٍ معتدٍ أثيم ،
عُتيلٍ بعد ذلك زَئيم » .

ومن الحديث الشريف . « ألا أخبركم بأحبكم إليّ ، وأقربكم مني مجالسَ يوم القيامة : أحاسنكم أخلاقاً المؤمنون (٤) أكتافاً الذين يألفون ويؤلفون .

(١) نهاية الأرب - ٧ - ١٣١ .

(٢) السكن محرّكة : من تسكن إليه : أى تستريح .

(٣) العتل : الأكل المنيع الجاف الغليظ . والزئيم : المستلحق في قوم ليس منهم ، والدعى ،
والثيم المعروف بلؤمه أو شره .

(٤) المؤمنون : الذين المهد المهيأ . والكنف محرّكة : الحرز ، والستر ، والجانب ، والظل والناحية .

الأخبركم بأبغضكم إلى ، وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة : أسوؤكم أخلاقاً ،
الثرثارون المتفيهقون (١) .

ومنه قولهم : فلان حسن السيرة ، نقي السريرة ، طيب الأعراف ،
كريم الأخلاق ، ظاهر النسب ، زاهر الحسب ، حميد الشامل ، كثير
الفضائل .

ومن الشعر : قول البحترى :

جمعت أمور الدين بعد تزيُّل القائم المستخلف والمتوكل (٢)

بموفق للصالحات ، ميسر ومحجَّب في الصالحين مؤمل

وهو كثير في شعر البحترى : لديباجته الموشية المنقوشة الرائعة .
ولا فتنانه في الصور البيانية الخلافة المونقة .

ويأتى التفويف على ثلاثة أقسام :

١ - أن يكون بجمل طويلة ، كقوله - تعالى - حكاية عن الخليل -
عليه السلام - : «الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقئنى ، وإذا
مرضت فهو يشفينى ، والذى يميئتنى ثم يحمينى ، والذى أطمع أن يغفر لى
خطيئتى يوم الدين ، رب هب لى حُكماً وألحقنى بالصالحين ، » .

وقد حصل فى الآية أغرب أقسام التفويف ، وهو الذى تكون جملة
متماثلة المقاطع : لأن وقوع ذلك فيه نادر ، والغالب وقوعه بخلافه ،
إذ لا يجب تماثل مقاطعه إلا فى الزنة دون التقفية .

ومثاله من الشعر قول النابغة الذبياني :

فله عيناً من رأى أهل قبة أضرب لمن عادى وأكثر نافعاً

وأعظم أحلاماً ، وأكبر سيدياً وأفضل مشفوع إليه وشافعاً

(١) الثرثار : المكثار من الكلام . والمتفيهق : المنطع المتوسع فى كلامه ، كأنه ملأ به فمه .

(٢) التزييل : التفرقة .

وقول المتنبي - يمدح محمد بن مساور الرومي - :
مرجوٌ منفعة ، مخوف أذية مغبوق كأس محامد ، مصبوح^(١)
ألباننا بجماله مهورة وسحابنا بنواله مفضوح
٢ - أن يكون بجمال متوسط ، كقوله - تعالى - : « يُولج الليل في
النهار ويُولج النهار في الليل ، ويُخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت
من الحي » .

ومن الشعر قول المتنبي :
دار الملم لها طيفٌ تَهْدِي دُنَى لَيْلٍ فَمَا صَدَقَتْ عَيْنِي وَلَا كَذَبًا^(٢)
أَنَايَتِهِ فَدَنَا ، أَدْنِيَتِهِ فَنَأَى جَمَشْتَهُ فَنَبَا ، قَبْلَتَهُ فَأَبَى^(٣)
وقواه في سيف الدولة - حين رضى عنه - :

معطى الكواعب ، وألجرد السلاهب ، والببيض
القواضب ، والعَسَّالَةَ الذُّبُلُ^(٤)
وقول بعض الشعراء :

بالجود مغتبق ، بالحمد مصطبح في السبق منقطع ، بالحلم متصل
وقول ابن زيدون :

تِهْ : أَحْتَمِلُ ، واستطل : أصبر ، وعِزٌّ : أهن
وول : أقبل ، وقل : أسمع ، ومز : أطمع
وفي هذا البيت يقول ابن بسام^(٥) : وأحسن - لعمري - ابن زيدون
في هذا التقسيم ؛ ودفع بالحديث في صدر القديم ١١ ولو قرع سمع أبي منصور^(٦)

(١) المغبوق: الذي يسقى مساء ، والمصبوح: الذي يسقى صباحا ، والمراد أنه يحمدي في
المساء والصبح .

(٢) دار: خير عن ضمير محذوف . والملم: الزائر ولم تصدق عينه لأنه رأى خيالا ؛ ولم
يكذب الطيف لأنه هجره بعد ذلك .

(٣) التجميس : المداعبة .

(٤) ألجرد: القصيرة الشعر وهو مدح في الحبل . والسلاهب: الطويلة على وجه الأرض والعسالة:
الرماح المضطربة لانيها ؛ والذبل : جمع ذابل على غير قياس لضمورها وهو مستعجب فيها ،
والضمير في المعطى: لسيف الدولة .

(٥) الذخيرة - ١ - ٣٢٠

(٦) أبو منصور : عبد الملك الثعالبي ؛ صاحب يتيمة الدهر .

بما في تضاعيف هذا التصنيف من الشذور ، لما كان عنده « ابن وشمكير » (١) ،
بمذكور ، ولا أغرب بغرائب « الصاحب » ، ولا يديع « البديع » .
(٣) أن يكون بالجل القصيرة ، كقول المتنبي في سيف الدولة من
القصيدة المتقدمة .

أقل . أنل . أقطع . احمل . عل . سل . أعد
زد . هـش . بش . تفضّل . أدن . سر . صل
ونحب أن نقف قليلا عند هذا البيت بخاصة ، لما يتعلق به من قصة ،
فقد كان المظنون : أن سيف الدولة - وهو شاعر وناقد أريب - ألا يطرب
لمثله ، ولكن يظهر أنه اهتز للديح ، ولم يلق باله إلى القالب الذي أفرغ فيه .
فقد روى الثعالبي (٢) : أن سيف الدولة لما تناول من المتنبي نسخة
القصيدة ، وانتهى إلى هذا البيت ؛ وقع تحت « أقل » : قد أقلناك ، وتحت
« أنل » : يحمل إليه من الدراهم كذا ، وتحت « أقطع » : قد أقطعناك الضيعة
الفلانية « ضيعة باب حلب » وتحت « حمل » : يقاد إليه الفرس الفلاني ، وتحت
« عل » « من التعلية » : قد فعلنا ، وتحت « أدن » : قد أدنيناك ، وتحت « سر »
بالضم : قد سررناك ، وتحت « صل » « من الصلة » : قد فعلنا .
وقد فهم سيف الدولة من قوله : « سر » : أنه من السرور ، فقال :
قد سررناك .

ولكن المتنبي - كما يروى ابن جنى - كان يريد : « سر » بفتح السين وكسر
الراء المشددة من الشرية .
فأمر له سيف الدولة بجارية .

ويذكر ابن جنى أيضاً : أنه كان في حضرة سيف الدولة شيخ ظريف

(١) ابن وشمكير : هو الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير من أدباء طبرستان .

(٣) البتيمة - ١ - ٩١

يدعى « المعقلی » فحسد المتنبي على ما ناله ، فقال لسيف الدولة : يا مولاي ؟
قد فعلت به كل شيء سألك إياه ، فهلا وقعت تحت هش بش : هي هي هي ،
« يحكي صوت الضحك » ١١

فضحك سيف الدولة ، وقال له : ولك أيضاً ماتحب ١١
وأمر له بصلة .

وسواء أكان المعقلی حاسداً أم بريئاً من الحسد ، فما لاشك فيه أن نبيل
المتنبي ما نال من تكريم مادي وأدبي بهذا البيت الفسل ، من شأنه أن يثير
الحسد من الأعماق ١١

ولكن يخيل إلى : أن هذا الشيخ الظريف ، أراد من هذه الهاهأة معنى
لم يدركه ابن جنى ، ولا سيف الدولة نفسه .

أغلب الظن : أنه أراد أن يضحك من الأمير ، لارتياحه إلى هذا البيت
السخيف ، ومن شاعر الأمير الذي لا يستحي أن ينطق بهذا الشعر المشاكل
لرُقى الحيات ١

على أن لنا أن نعتقد : أن سيف الدولة - ونحن نقدر مكانته الأدبية -
قد أجاز المتنبي على القصيدة لا على هذا البيت وحده ، وأن هذا البيت
لم يكن إلا مظهر أ من مظاهر اهتزاز هذا الشعر ، فسجل ارتياحه له بهذه
الصلات السنوية المترادفة ، تحقيقاً لأمل الشاعر فيه ، ففي الحق : أن سائر
القصيدة من سوا امر الشعر ومذمباته ، وأن هذه الأعطيات - مع نفاستها -
فانية في جنب هذه المهادح الخالدة ١١

ويذهب القاضى الجرجاني في الوساطة (١) ، إلى أن المتنبي في هذا البيت
نسج على منوال ديك الجن في قوله المتقدم .

(١) رقى الميات : يضرب مثلا لشئين متضادين : الكلام الطويل الذي لا يفهم ، والكلام
اللين اللطيف ، والمراد : الأول .

أحلُّ ، وامررٌ ، وضرٌّ ، وانفَعٌ ، ولِنٌ ، واخشُن
ورِشٌ ، وابِرٌ ، وانتدِبٌ للعالي
وأنا أخالفه في هذا الرأي ، فهذا النوع أقل من أن يتنافس فيه
المتنافسون ، وأحقر من أن يوصف : بأن شاعراً نسج فيه على منوال شاعر
آخر ١١٠٠٠

فليس هو ضرباً من الأخذ الخفي أو الظاهر ، وليس هو مما يصح أن
يصب فيه الشاعر على قالب الشاعر ، ويقع بينهما التفاضل من أجله .
والشاعر لا يتكلف فيه أكثر من الإتيان بسلسلة من الأفعال أو
الاسماء معطوفة أو غير معطوفة ، وهو أيسر شيء وأهونه عليه .
والشعراء في عهد « القرزمة » ، (١) يفرعون إليه كثيراً ؛ لسهولة نظمه
وقلة المثونة فيه .

على أن هذا النوع يعد لازمة من لوازم المتنبي الكثيرة — ولكل
شاعر لوازم — فقارى ديوانه يرى أنه أكثر منه ، وبخاصة في زمن الصبا
فهو حرى أن يقال فيه : إنه يقلد في ذلك « بالفتح » ، لا أنه يقلد .
فن ذلك قوله في صباه — يمدح محمد بن عبيد الله العلوى — :

أطعنُها بالقناة ، أضربُها بالسيف ، جججأحها ، مسودُها
أفرسُها فارساً ، وأطولُها باعاً ، ومغوارها ، وستيدها
شمسٌ ضحاها ، هلالٌ ليلتها ، دُرْتقا صيرها ، زَبَر جدُّها (٣)
وقوله أيضاً في صباه — يمدح عبيد الله بن خلصان — :

(١) القرزمة بفتح القاف : الإتيان بالشعر الرديء والقرزام بالكسر : الشاعر الدون
وكذلك القرزوم كمصفور .

(٢) الجججأح بالفتح : السيد الشريف . والمسود : الذى جملة قومه سيديا .

(٣) التقاصير : الفلائد اللاصقة بالعتق ؛ جمع تقصير . وتقصاره بكسر التاء . والزرجد :

حجر كريم .

دانٍ . بعيد . محب . مبعض . بهج
أغرّ . حلو . مُمرّ . لئى . شرس^(١)
ندٍ . أبى . غرٍ . وافٍ . أخى . ثقة
جعد . سرى . نهٍ . ندب . رضى . ندس^(٢)

وقوله من غزل قصيدة — يمدح بها على بن منصور الحاجب — :
الناعماتُ . القاتلات . المُحميات . المبديات من الدلال غرائباً

ثم قال من مدح القصيدة :

إن تلتقه لا تلق إلا جحفاً أو قسطلاً . أوطاعنا . أوضاربا^(٣)
أو هارباً . أو طالباً . أوراغباً أو راهباً ، أو هالكا ، أو نادبا
وقوله فى آل بويه :

قدروا . عفواً . وعدوا . وفواً . سُئلوا

أغفواً . عكفواً . أعلواً . ولوا . عدلوا^(٤)

وقوله من قصيدة — يمدح بها شجاع بن محمد الطائى — :

عدوية . بدوية . من دونها سلب النفوس . ونار حرب تو قد^(٥)
وهو اجل . وصواهل ، ومناصل وذوايل ، وتوعد ، وتهدد^(٦)

(١) البهج : الفرح . والممر : المر على أعدائه . والمرس : الصعب الخلق على خصومه .
(٢) الندى : الجواد . والغرى : الحسن وأصله بتشديد الياء . والجعد : الكرم والنهى : العاقل .
والندب : السريع . والرضى : المرصى الخلق . والندس : الذكى .
(٣) الجحفل : الجيش الكثير . والقسطل : غبار الحرب .
(٤) أى قدروا فعفوا وهكذا بترتيب كل ثان من الأفعال على ما تقدمه .
(٥) عدوية : نسبة لى بنى عدى . وبدوية : نسبة لى البادية أو البدو على غير قياس .
(٦) الهواجل : الفلوات لا أعلم لها جمع هو جل ككوثر . والصواهل : الخيول . والمناصل :
السيوف . والذوايل : الرماح .

وقد ذكر ابن رشيق وابن بسام^(١) : أن المتنبى زاد في هذا وتباغض حتى صنع ما سماه ابن وكيع : رقية العقرب في قوله :

عِش . ابقي . اسم . سُد . قُد . جد
مر . انه . ره . فه . أسر . نل

غظ . ارم . صب . احم . اغز . اسب

رع . زع . د . ل . اثن . بل

وقد تطوع ابن رشيق بشرحها ؛ لأنه لا بد من شرحها — كما قال —

والشرح كما يلي :

عش . ابقي : « دعاء له بالعيش والبقاء » . اسم : من السمو . سد : من السيادة : « أى دم هكذا » . قد : من قود الخيل . جد : من الجود والسماح ، أو من الجود بوزن قول ، وهو : المطر الغزير . مر : من الأمر . انه : من النهى . ره : من الورى بوزن : وعد ، وهو : داء فى الجوف : أى اصنع ذلك بأعدائك وحسادك . فه : من الوفاء . أسر : من سرى الليل : « يصفه بالعزم والغارات . نل : من النيل والإدراك : أى نل ما تحب . أو من الإعطاء ، يقال : نلته : إذا أعطيته . غظ : من غيظ الحسود . ويروى « بالعين » من الوعظ . ارم : من رمى العدو بالمكاييد وغيرها . صب : من صاب المطر والسهم . احم : من حميت المكان . اغز : من الغزو . اسب : من السبي . رع : من الروع . زع من وزعته : أى كففته . د : من الديه . ل : من الولاية للأمور . وقد يكون من الولي بوزن غنى ، وهو كل مطرة تجيء على أثر مطرة . اثن : من ثنى أضداده : إذا ردهم . بل : من الوابل ، وبلت السماء تبل : من باب وعد : أمطرت .

وهذه — كما يقول ابن رشيق — وقد صدق — غاية المقت والبغاضة !! ولاخلاف أن هذا الشعر أقبح ما روى على الإطلاق فى هذا الباب !!

وأحسب أن المتنبي - إن صح ذلك عنه - كان يقوله على جهة
المفاكهة والتندر ، لا أن يروى عنه ويحفظ ويؤثر ، ولعله بما يؤيد ذلك
ما جاء في ديوانه (١) . من أنه سئل بيتا يضم أكثر ما يمكن من الحروف
فقال

عش . ابق . اسم . سد . جد . قد . انه . اسر . فه . تسل
غظ . ارم . صب . حم . اغز ، اسب . روع زرع دل اثن بل (٣)
وقيل لما أنشده قوله : أقل . أنل . أقطع . احم . عل . سل . أعد
« البيت »

رأى قوما يعدون ألفاظه ، فزاد فيه مكان « أقطع » « أن . صن »
وأن يضم الهمزة معناه : ارقق . ومكان « تفضل » : « هب . اغفر » فرآهم
يستكثرون الحرف ، فقال هذا البيت .

وهذا دليل على أنه كان يقول أمثال ذلك للتفاصح والتفاخر ، ومكيدة

الخصوم

ثم قال بعده :

وهذا دعاء لو سكت كُفَيْتَهُ لَأَنِّي سَأَلْتُ اللَّهَ فَيَكُ وَقَدْ فَعَلَ (٢)
وفي البيت اتفاق مع رواية ابن رشيق في أكثر الألفاظ ، إلا أن الشراح
خالفوه في بعض ما ذهب إليه من ضبط بعض الألفاظ ، لحدث اختلاف
في معناها تبعاً لذلك .

فمثلاً : اسر ، رواها ابن رشيق بكسر الهمزة والراء : أمر من سرى الليل
وأجاز غيره ذلك ، كما أجاز : أن تكون من السروبوزن بدو ، وهو
المروءة في سخاء ، فيكون الفعل : اسر بالضم مثل . أدع .

(١) العرف الطيب ٣٥

(٢) أي لو سكت عن هذا الدعاء لكانت في غنى عنه لأني قد سألت الله لك هذه الأمور فحقها
فأغناك عن دعائي .

ودفه، جعلها ابن رشيق من الوفاء، فرواها بكسر الفاء، وجعلها الشراح من الكلام: أى فه بالعطايا بضم الفاء نسألك حاجتنا .

وصب بكسر الصاد عند الشراح: من صاب السهم يصيب من باب باع لغة فى أصاب .

وعند ابن رشيق: من صاب السهم يصيب كما تقدم، ومن صاب المطر يصوب بضم الصاد، من باب قال يقول .

ومها يكن، فهذا اللون — كما ترى — قد أعزم به المتنبي، وولع به جهده .

وهو عندى من خمس شعره الردىء، الذى قال فيه ابن الأثير: إنه فى الغاية المتقبهرة التى لا يعبأ بها، وعدمها خير من وجودها، ولو لم يقلها أبو الطيب لوفاه الله شرها ! فإنها هى التى ألبسته لباس الملام، وجعلت عرضه شارة لسهام الأقال (١) ١١

فليس هو إذن مما قلد فيه غيره، وإن صح أنه تأثر فى ذلك شاعراً، فلن يكون غير أبى تمام، فقد ركب قبله هذا المركب الخشن، وهو فيه أقبح من المتنبي، لأنه يزيد عليه الغرابة والحوشية .

وقد جاءت له فى قصيدة واحدة فى مدح خالد بن يزيد الشيبانى، مطلعها: ما كئيب الحمى إلى عَقْدَه ما بال جرعائه إلى جَرْدَه (٢) أنواع من هذا التعسف المقيت، لا مزيد عليه فى الهجئة ! . فقال منها — يصف سنام الجمل — :

(١) المثل السائر — ٢١٤

(٢) العقْد بفتح القاف وكسرهما: التراكم من الرمل. والجرعاء من معانيها: الرملة الطيبة. المنبت لاوعونة فيها. والجرد حركة: فضاء لانبات فيه.

تامكة . نهده . مُدَاخِلُهُ . ملبومه مُحْرَثُهُ . أُجْدُهُ (١)
ويصف الريح فيقول :

ماريه . ائدنه . مثقفه . عرّاصه في الأكف . مطّردّه (٢)
ثم يقول في الممدوح — مشبها له بالسحاب — :

هُسْفُهُ . ثرّه . مسحسحجه . واب له . مستهله . برده (٣)

وقد كفانا ابن الأثير. نقد هذه الآيات ، فقال في الأول : إنه من المعاطلة
التي : يعد قلع الأسنان دون إيرادها .

وقال في الثاني : وهذا كالأول في قبجه وثقله ، فقاتله الله !! ما أمّن
شعره ، وما أسخفه في بعض الأحوال !! .

وقال عقب إيراد الثالث : لو لم يكن لأبي تمام من القبيح الشنيع إلا هذه
الآيات ، لحطت من قدره (٤) .

وقد صدق ابن الأثير ، فإن شيطان أبي تمام لم يكن له ناصحاً في هذه
الآيات .

وأكثر هذا الالتواء والتعقيد والتنافر ، يسقط له حين يفارق طبعه
الأصيل ، إلى تمويهه ديباجته بهذا التصنيع .

هذا ، وليس معنى قولنا -- فيما مضى -- : إن التفويف من لوازم
المتنبي : أن جميع ما أتى به قبيح ، فمن الإنصاف أن نقول : إن كثيراً مما وقع
له يتسم بالجودة ، وقد مر بعضه في التمثيل للنوع الجيد .

(١) النامك: الطويل المرتفع المكتنز. والنهد: المرتفع. والمحرثل بوزن مقشع: المرتفع في السير. والأجد بضمه تن: وصف حاص بالنفوس؛ وهي القوية الموثقة الملمن ، المتصلة فقرات الظهر

(٢) المارن: المصاب للدين. والعراس كشداد: اللس .

(٣) المسف: الداني. والثر بفتح الثاء وتشديد الراء: الفزير . والمسحسح بصيغة اسم

الفاعل: الشديد .

(٤) المثل السائر -- ١٢٠ .

ومن ذلك الحسن المطبوع : قوله في سيف الدولة :
الشمس من 'حساده ، والنصر من قرنائه ، والسيف من أسمائه
أين الثلاثة من ثلاثٍ خلاله من حسنه ، وإبائه، ومضائه
فانظر إلى هذا التقسيم الجميل ، الذي قرن فيه كل ألف يالقه ، ثم أتى
إلى هذه المفاضلة التي ترجع كل مزية إلى نوعها المختص بها ، والتي هي أظهر
شيء فيه .

وقوله :

فتاة تساوى عقدها وكلامها ومبسمها الدرى في الحسن والنظم (١)
ونكبتها ، والمندى ، وقرقف معتقة صبياء في الرجح والطنعم (٢)

وقوله في علي بن إبراهيم التنوخى :

فليس بواهب إلا كثيراً وليس بقاتل إلا قريباً (٣)
وعلى ، ليس يمنع من مجيء مبارزه ، ويمنعه الرجوعا
وعلى ، قاتل البطل المقتدى ومبدله من الزرد النجيعا (٤)

وقوله في أبى عضد الدولة البويهى :

ولم أر قبله شبلى هزبر كسبليه ، ولا مهرى رهان
أشد تنازعا لكريم أصل وأشبه منظرا بأب هيجان (٥)

(١) المبسم بكسر السين : القم .

(٢) النكبة : رائحة العم . والمندى بفتح الميم والذال : عطري ينسب إلى المندى من بلاد الهند .
والقرقف بفتح القافين ، وكصفور : الخمر يرد منها شاربها . والصبياء : الخمر إلى البيضاء .

(٣) القرع : السيد الشريف .

(٤) النجيع : دم الجوف .

(٥) التنازع : التجاذب . والهجان بالكسر : الحاصل الصريح .

وأكثرَ في مجالسه استماعاً فلان دقّ رحا في فلان
وقوله في المغنيث العجلى :

جاءت بأشجع من يُسْمَى ، وأسمح من
أعطى ، وأبلغ من أملى ومن كتبنا (١)
لو حلّ خاطره في نمة بعد لمشى
أو جاهل لصحا ، أو أخرس خطبا

والبحتري في هذا النوع سابق لا يجارى ، وله فيه آيات سواثر ، تعكس
ما تميز به من تدفق الطبع ، ورقة التعبير ، ودماثة الأسلوب ، وأناقة الديباجة
وصفاؤها ، وتأخى الكلمات وتوازنها ، في أجراس مطردة عذبة مطربة
كوسواس الحلى ، وبغام الضباء ، وهديل الحمام ، وشدو العنادل ١١ .

فمن ذلك قوله في الغزل :

لى حبيب قد جّجّ فى الحجر جدا
يتأبّى منعا ، وينعم لإسعا
أترانى مستبدلابك ما عشت -
حاش لله ا أنت أفتن ألفا
وأعاد الصدود منه وأبدى
فا ، ويدنو وصلا ، ويبعد صدا
بديلا ، أو واجدا منك بدأ
ظا ، وأحلى شكلا ، وأحسن قدّا
وقوله - يمدح المعتز - :

أصبحت رتبة الخلافة للمعتز
مهلك ما بدا لعينك إلا
يا جمال الدنيا سناء ومجدا
كلما حصلت مساعى قريش
بالله منزلا ومجلا
قلت : بجرّ طسما ، وبدرّ تجلى
وئمال الدنيا عطاء وبذلا (٢)
طبت فرعا فى منتهاها وأصلا (٣)

(١) الضمير فى « جاءت » للمحبوبة التى جاءت برجل هذه سفاته .

(٢) الثمال بالكسر : النيات الذى يقوم بأمر قومه .

(٣) المساعى : المكارم والمعالى فى المجد . والمنتمى : النسب .

بين عم النبي والحبر والسجّاد والكامل الذي بان فضلاً (١)
لهم زمزم ، وأفنية الكعبة والحجر، والصفاء، والمُصلى (٢)
قد طلبنا فلم نجد لك في الشؤ دُد والمجد والمكارم مثلاً
أنت أُندي كفاءاً، وأشرف أخلاً قا، وأزكى قولاً، وأكرم فعلاً

ولشعراء الأندلس ولوع بالتفوييف، ويظهر ذلك بخاصة في شعر ابن
زيدون وابن دراج القسطلي .

فمن قول ابن زيدون :

والحلم يرسخ هضبه والعلم يز
سخر بحره ، ولتطى الذكا يتضرم
بردت ظلال ، ذارك وأحلو لي جنى
نعماك لي ، وصفت جمام تذاك
تتم به النعمى . وتتسقى المنى
وتستدفع البلوى ، ويستقبل الصبر
فما آثر الأولى ولا قلند الحجا
ولا شكر النعمى ، ولا حفظ اليدا
صمصام بادرة ، وطود سكينه
وجواد غايات ، وجذل حكاك
إلى الله أوّاب ، والله خائف
وبالله مُعتدّ ، وفي الله مُشتدّ

(١) يقصد العباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله وحفيده علي بن عبد الله.

(٢) الحجر بالكسر: ما حواه المطيم المعار بالكعبة من جانب الشمال.

سجّيته الحُسنى ، وشيمته الرضا
وسيرته المُثلى ، ومذهبه القصد
غمام يُظللّ وشمس تُنير
وبحر يفيض ، وسيف يُسلّ
قسيم المحيّا ، ضحوك السّماح
لطيف الحوار ، أديب الجدال
قررتَ به عينا فكم سادِ عِثْرَةٌ
وكم ساسَ سلطانا ، وكم زان مشهداً
محض التقي ، عَفّ الهوى
غمر الندى ، صدق الجاد
فابقيا في دولة قادرة
بعضُ حُرّاسِ نواحيها القَدْرُ
مُسْتَدْبِرٌ لِي مَنْ طغنا مُسْتَأْصِلُ
شأفةَ الباغى ، مُقْبِلُ من عَفْر
علمى من ضلّ ، مُزْنِي من شكا
نُحْلَةٌ الإحمال ، بَدْرِي من نظر
طريقتكم مُثلى ، وهديكم رضا
ومذهبكم قصد ، ونائلكم غمر
بالقَدْرُ يَبْئُدُ ، والتّواضع يدبى
والبشر يُشْمِسُ ، والندى يتغيّم
لقد جدّ لإخبات ، وحقّ تبتلّ
وبالغَ إخلاص ، وصحّ متاب

وإلى هنا يمكن أن نقول إن هذا التفويف من النوع الجيد ، وفيه خصائص ابن زيدون من حلاوة اللفظ ، وطلاوة الأسلوب ، وبهاء الديباجة ، ونصاعة المعنى ، وبعده من الغموض واللبس ؛ لأنه استمد من طبيعه ، واستقاه من قريحته ، ولم يقلد فيه المشاركة .

ولكن له نوع آخر نظر فيه إلى صنعة المتنبي فجاء غثا جها ثقيلًا !!
اسمع قوله :

أجر ، أعد ، آمن ، أحسن ، ابدأ ، عد ، اكف ، حط
تجف ، بسط ، استألف ، صن ، احم ، اصنع ، أعل
وقوله :

ته ، احتمل ، واستطل ، أصبر ، وعز ، أهن
وول ، أقبل ، وقيل : أسمع ، ومر ؛ أطم
ويقول ابن دراج القسطلی :

عطاء بلا من ، وحكم بلا هوى
وملك بلا كبر ، وعز بلا حجب
وبالخير فتاح ، وبالخير عائد
وبالخيل ، ظعان ، وللخيل طعان
حرم الهدى سم العدا ، أمنية
لمسلم ، ومنية لمحارب
فهاؤه في نصله ، وذكاه
في رجه ، ومضاؤه في سهمه
حياء ، وحلم ، وفضل ، وعدل
وعطف ، وعفو ، وبأس وجود

غَيْثٌ سَحَابٌ ، وَغَيْثٌ جَسَدٌ
وَطَيْبٌ عَرْفٌ ، وَطَيْبٌ ذَكَرٌ
فَعَفَوْهُمْ جَهْدِي ، وَحَلَوْهُمْ مَرِّي
وَصَفَّوهُمْ طَرَقِي ، وَيُشْرَهُمْ عُسْرِي
فَأَوْدَقَ بِالْحُسْنِي ، وَأَغْدَقَ بِالْمَنِي
وَأَمَّرَ بِالنَّعْمِي ، وَأَجْرَلَ بِالصَّنْعِ
وَتَوَجَّحَ مِنْ تَاجٍ ، وَالْبَسَ مِنْ حِكْلِي
وَقَلَّدَ مِنْ سَيْفٍ ، وَدَرَّعَ مِنْ دَرَعِ
بِمَارِئَتٍ مِنْ سَهْمِي وَأَيْدِيَتْ مِنْ يَدِي
وَجَلَّيْتُ مِنْ ضَرْبِي ، وَأَدْنَيْتُ مِنْ نَفْعِي
وَلَمَنْ مُنَاهُ أَنْ تَعِيشَ مُؤَيَّدًا
وَمُؤَيَّدًا ، وَمُؤَمَّنًا ، وَمُؤَمَّنًا
وَمُعْظَمًا ، وَمَكْرَمًا ، وَمَحْكَمًا
وَمُسَلِّمًا ، وَمُفْتَنًا ، وَمَمْكَنًا
وَفِي كُلِّ ذَكَرٍ ، وَفِي وَفَرٍ ، وَنَشْرٍ
وَشُكْرٍ ، وَشَعْرٍ ، وَشَهْدٍ ، وَشَادٍ
فَكَانَ الْحَسَامُ ، وَكَانَتِ السَّنَانُ
وَكَانَ الشَّعَارُ ، وَكَانَتِ الدُّمَارُ
فَصَنَّتِ الْعَمَلَا ، وَأَبْجَتِ النَّدَى
وَحَطَّتِ الْهُدَى ، وَحَمَيْتِ الذَّمَارَا

فتركت حزبَ الشُّرك بين مصرِّع
ومعقِّر ، ومجدل ، ومزمل
وثبت حزب الدين بين مملك
ومظفر ، ومغتم ، ومنقل
بكرائم لم تمتهن ، وعقال
لم تمتل ، ومصونة لم تُبذل
فيافتحا لفتح وبُشرى
لمنتظر ، ويامرأى لراء
وسنيها ، وعليها وزكيها
وحليمها ، وكريمها ، وجوادها
المسرعون إلى الندى ، والطائرو
ن إلى الوغى ، والراجحون حلوما
فحش ، ودم ، وأبق ، وأملك ، وأقبل نعماً
وأحلل منيعاً من المكروه مُنتزحاً

ومن تفويف ابن حديس :

فانصر . وافخر . وأدز . وأشبر
وأبر . وأجر . وأغر . وسد

رأى الحموى فى التفويف :

للحموى فى التفويف رأى يحسن أن نوره ، ليقف عليه الدارس ،
ولأنه بما تلى مناقشته .

يقول : تأملته — يعنى التفويف — فوجدته نوعاً لم يفد غير إرشاد

ناظمه إلى طرق العقادة - يريد التعقيد - والشاعر إذا كان معنوياً - يقصد أنه يعنى بالمعنى - وتجشم مشاقه ، تقصر يده عن التطاول إلى اختراع معنى من المعانى الغريبة ، وتجفوه حسان الألفاظ ، ولم يعطف عليه برقها ، وتأنف كل قرينة صالحة أن تسكن له بيتاً .

ثم هو يرى أن مجيئه بالجميل القصار أحسن وأبلغ وأصعب مسلكاً (١) .
وأول ما نأخذه على رأبه : أنه يتصرف بالتعميم ، فليس التفويف دائماً يسوق إلى العيوب التي ذكرها .

وليس كل ما جاء منه لحقته هذه العيوب ، فهو نوع من الكلام يأتي حيناً حسناً ، وحيناً قبيحاً ، وتارة طبعاً ، وأخرى عصياً ، بحسب صياغته وتأليفه ، وموقعه من الكلام ، وبحسب قوة الشاعر وضعفه ، وتحليقه وإسفافه ، والحكم عليه فرع عن تلك الأحوال .

وقد تأملته - كما تأمله الخوى - فوجدته يحسن بأشياء :

١ - ألا يطول حتى لا يثني الأذن عن تتبعه ، ويصد الفكر عن ملاحقته ، إلا أن يستدعى المعنى ذلك كقول البحترى :

قف مشوقاً ، أو مسعداً ، أو حزيناً أو معيناً ، أو عاذراً ، أو عدولاً
فلا شك أن التفويف هنا طويل ، ولكن الذي حسنه ، بل قصره : أن هذه الألفاظ كلها مما يحتاج إليها في هذا الموقف ، موقف الصب المغرم المقيم ، يلم بدار أحبابه بعد أن فارقها زمناً طويلاً ، فيقف ويستوقف صاحبه معه ، حتى يحدث بها عهداً ، ويطنف غليل الشوق إليها وإلى سكانها !!

فلا معدى للبحترى إذن عن استخدام هذه السلسلة الذهبية من الألفاظ حين أراد أن يتقصى موقف رقيقه ، ومسعده على بلوآه

ولا معدى لهذا الرفيق المسعد عن لباس حال من تلك الحالات السقي
صورها الشاعر ، وترك له الحرية التامة في اختيار إحداها كما يطيب له .

فليس في هذا البيت — على طوله — لفظة يحسن اطراحها ، لأنها لغو
أو فضول أو حشو أو تطويل .

وربما قيل : إن «مسعداً» و «معيناً» لفظان مترادفان .

ويسهل الجواب : بأن الإسعاد أخص ، لأنه أكثر ما يستعمل في النوح
والبكاء ، وأما الإعانة فتنعم كل مساعدة .

وكذلك قول المتنبي :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرحم والقرطاس والقلم
فكل لفظة من هذه الألفاظ تعرف الشاعر ولا تنكره ، وتمت إليه
يسبب وثيق ، فلم يكذب المتنبي في إيراد واحدة منها .

فهو شاعر يمتطى الخيل ، وشجاع يركب الليل ، ومغامر يعتسف
الفلوات ، ومحارب يضرب بالسيف ، ويطعن بالرحم ، وشاعر يصطنع
القرطاس والقلم .

وفي هذا البيت يقول ابن جني : قد سبق الناس إلى ذكر ما جمعه في هذا
البيت ، ولكن لم يجتمع مثله في بيت ما علمت .

وقال البحرى :

اطلبها ثالثاً سوى فإني رابع العيس والدجى والبيد

وهذا اللفظ عذب ، ولكن ليس فيه جميع ما في بيت المتنبي^(١)

٢ — أن تكون الكلمات متلائمة في ألفاظها أو معانيها ، أو موضوعها

وإلا كانت سرداً بلا ضابط ولا حساب .

فنحن نشعر بالصلة القوية بين أجزاء هذا البيت من قصيدة لأبي طالب في ابن أخيه الرسول الكريم^(١) :

وأبيضَ يُستسقى الغمامُ بوجهه ثمال اليتامى ، عصمة للأرامل^(٢)
فمعانيه كلها تدور حول النفس الموسومة بالخير، النبيلة النزعة ، الميمونة الطالع ، المرجوة النفع ، يسكشف ببركتها السكر العام والخاص .

وفي قول حسان - يمدح آل جفنه الغساسنة - وقد ذكروا - :
أنه أمدح بيت قالته العرب^(٣) - :

بيض الوجوة كريمة أحسابهم^١ شُم الأنوف من الطِّراز الأول^(٤)
فإن نباهة الذكر ، وشرف الأعراق ، وعزة الأنفس ، ورفعة المراتب كلها من بابة واحدة ، ولكنك حينما تقرأ قول المتنبي :

منعمة . مُمنّعة . رداح يكلف لفظها الطيرَ الوقوعا^(٥)
يبدو لك أن لفظة « رداح » نائية عن مقرها ، قلقة في موضعها : لأننا نعرف من سياق القصيدة : أنه لا ينسب بامرأه معينة هذه صفتها ، حتى يقال : إنه يذكر الحقيقة ، وأن هذه بعض سمات جسدها ، ولكنها لفظة عابرة جاءها لوزن البيت ، وليست أولى بهذه المرأة من « عروب » و « شموع »

(١) المواهب الفتحية - ١ - ١٤٤

(٢) أبيض مطوف على « سيد » المنسوب بالمصدر في البيت قبله ؛ « وماترك قوم لأبالك سيداً » هكذا أعربه الزركشى في نكته على البخارى ، وقال لايجوز غيره وتبعه ابن حجر في فتح البارى والدمامى ، وجملة ابن هشام في المفى مجروراً برب مقدره ، وأنها للتقليل والمعنى ليس عليه . والثمال بالكسر : العماد والملاجأ والمطعم والسكاف .

(٣) ديوان المعاني - ١ - ٣٧

(٤) بيض الوجوه : مشهورون نبهاء ، وليس المراد البياض المسرف .

(٥) الرداح بفتح الراء : الثقبلة الأوراك .

وه قطوف،^(١) مما يأتي على وزنها، إذ ليس حتماً أن تكون كل معشوقة رداها.

وهذا بخلاف قول البحترى :

بنت كثرم يُديرها مُرَهْفُ القَدِّمِ غرير الصَّبَا خضيب البنان^(٢)

لأن غرارة الصببا تستتبع ما قبلها من رهافة القد، وما بعدها من خضاب البنان.

فهذه المحاسن متلازمة، يأخذ بعضها بأعناق بعض، وجميعها من صفات النواشيء الصغيرات الكواعب.

ثم استمع إلى قول المتنبي في ابن العميد :

عربيٌّ لسانه . فلسفيٌّ رأيه . فارسيّة أعياده

تجد هذه الصفات، قد لام بينها اجتماعها في الممدوح، فالبيت تصوير دقيق موجز لابن العميد في فصاحة لسانه، وحصافة رأيه، وعظم نعمته ورفاهيته، فلا يبعد من يقول: إن هذا البيت هو ابن العميد حساً ومعنى. (٣) ألا يتكرر في أبيات على الولاء، وبخاصة في النوع الطويل منه الذي يتألف من الكلمات القصيرة، حتى لا يجلب السامة والملل، ويوحى بالتكلف، بل الأعم الأغلب في مثل هذا لا يجيء إلا متكلفاً، لأن الخاطر يتعاضله أن يقذف بعدد من الكلمات المفردة على شرط التلاؤم والتعادل دفعة واحدة، فلا سبيل للشاعر إلا أن يتصيد الألفاظ، ويرصها رصاً آلياً استكمالاً للوزن الشعري، وهذا هو التمسك بعينه، كقول المتنبي — يمدح عبد الواحد بن العباس الكاتب — :

(١) المروب كمرس : المتحبة إلى زوجها . والشموع كمرس أيضا : المزاحة للعوب.

والقطوف بفتح القاف : الضيقة المشى .

(٢) غرير الصبا : ناشيء غافل ناعم .

الحازم . اليسقط . الأغر . العالم . الفطن
الألد . الأريحي . الأروعا^(١)

فلم يكتب بهذا البيت حتى قضى عليه بقوله :

الكاتب . اللبق . الخطيب . الواهب . الندس

الليبي . الهبرزي . المصقعا^(٢)

فهذان بيتان جاءا على التوالي فبلغا غاية السماجة ، وأحسب أن « صبي
المكتب ، — إذا كان ملئاً بأوزان العروض — لا يعز عليه أن يأتي
بمثلها أو أحسن منها بل أستطيع أن أزعم أن نسبة « مجموع المتون ،
إلى الشعر أصح من نسبتها .

ولا شك أن القارئ يحس أول وهلة : أن المنبى لم يحشد هذه الكلمات
استقراء لصفات الممدوح ، ولكن توصلاً للوزن .

وهب هذه الصفات اجتمعت في الممدوح — واجتماعها عسير — فقد
كان حسن الذوق ، ومراعاة البراعة ، تقضى بإتيانها لئلا في تضاعيف
القصيدة حتى يخف وقعها على الأذن .

وقد استتبع هذا الركام من الألفاظ أشياء أخرى محظورة ، ما كان أغنى
الشاعر عنها !

فقد اضطر أن يردد المعنى بألفاظ مترادفة أو قريبة من الترادف دون
حاجة إلى ذلك ، كالندس والليبي ، والواهب والأريحي .

وأن يجلب ألفاظاً غريبة حوشية ، كالندس والهبرزي .

(١) نصب الحازم وما بعده بتقدير عامل محذوف : أمدح أو أعى . والأغر : المشهور ،
ويروى الأغر . والألد : الشديد الحسوة والأريحي : الواسع الصدر الذي يراح للمعروف والكرم .
والأروع : من يعجبك بجماله أو شجاعته .

(٢) الندس بفتح فضم : الفطن : والهبرزي بكسر الهاء والراء : الجميل الوسيم ؛ وقيل :
السيد الكرم . والمصقم كقبر : الخطيب البليغ .

وأن يباعد المناسبة بين الألفاظ حتى أصبحت كالضرائر ، فالألد - علي الأقل - فقدت شكلها وإلفها في البيت الأول .

والخطيب والواهب لا يجمعها قران .

والواهب تنكر مكانها بين الخطيب والندس .

والمصنع موقعها المختار بعد الخطيب ، فجاءت قسراً بعد الهبرزى .

هذا إلى الطول الفاحش في البيتين ، فقد احتضنا ست عشرة لفظة ،

لكل بيت ثمان منها .

ولعل براعة المتنبي هنا ظهرت في هذا التوزيع العادل بين البيتين .

ولكن تأمل كيف برىء البحترى من هذه العيوب في مدحه الفتح

ابن خاقان :

إفضال «فتح» عليّ «جَمِّمٌ» ونيل «فتح» لدى «غمر» (١)

المنعم المفضل المرجسي والأبلج الأزهر الأغر (٢)

فقد تألف هذا البيت الأخير من كلمات منظومة في نسقها المتعين لها ، وكان كل لفظة فيه تمهيد لتاليها ، وفرش لها ، وإيدان بها ، ومناداة عليها

بقى الشق الثاني من رأى الحموى : وهو : أن أحسن هذا النوع : ما يأتي

باللفظ القصير .

ومقطع الحق في هذا : أن حسنه لا يتعلق بالطول ولا بالقصر - كما

رأينا - بل باستيفاء الشروط الموجبة للحسن .

وإن كان لابد من المفاضلة ، فرأينا أن ما جاء بالكلم الطوال أحسن ،

(١) النيل : العطاء . والقدر : الكثير .

(٢) الأبلج : المضيء الواضح . والأزهر : المشرق الوجه . والأغر : الشريف الكريم الأفعال الواضحة .

لأن فيها معافاة من التكلف والتكرار ، وفقد الانسجام وبعداً عما سماه ابن الأثير «المعاظلة اللفظية» (١) وسماه غيره «التنافر» .

وهو - كما نعرف - يذهب بفصاحة الكلام ، ويخليه من الروتق والماء .

وكثير من أمثلة التنافر منتزع من هذا النوع القصير السكيات .

ومن النوع الذي حالف المتنبي فيه التوفيق ، وقد سماه الشعالي : حسن سياقة الأعداد (٢) — وقد سبق ذكره - قوله :

على ذامضى الناس : اجتماعٌ وفرقةٌ وميت ، ومولود ، وقال ، ووامق
وقولة :

ألا أيها السيف الذي ليس مُغصمٌ بداً ولا فيه مراتب ، ولا منه عاصم

هنيئاً لضرب الهام ، والمجد ، والعلام ، وراجيك ، والإسلام ، أنك سالم (٣)

وقوله — من قصيدة يمدح بها سيف الدولة — :

وَرَبْ جَوَابٍ عَنِ كِتَابٍ بَعَثْتَهُ وَعُنْوَانُهُ لِلنَّاضِرِينَ قِتَامٌ (٥)

حروف هجاء الناس فيه ثلاثة جواد ، وروح ذابل ، وحسام (٦)

لما سمي الجيش جواباً ؛ جعل حروفه جواداً وروحاً وحساماً ، اقتداراً

واتساعاً في الصنعة (٧) .

وقوله :

أنت الجواد بلا من ولا كدر ولا مطال ، ولا وعد ولا مذل (٨)

(١) المثل السائر — ١١٩

(٢) البيهية — ١ — ١٦٨

(٣) القالي : البغص . والرواق : المحب .

(٤) أنك سالم : فاعل هنيئاً أى هنيئاً لهذه المذكورات سلامتك . وهنيئاً : حال عذوبة

العامل ؛ والأصل ثبت هنيئاً .

(٥) القتام : الغبار : أى يبيت الجيش بدلا عن الجواب فتكون عنوانه الغبار الثائر .

(٦) أى هذا الجيش مؤلف من هذه الحروف الثلاثة كما يتألف الكتاب من حروف الهجاء .

(٧) البيهية — ١ — ١٦٨

(٨) المذل محرقة : الضجر والقلق .

وقوله :

بى حَرٌّ شوق إلى ترشُّفها ينفصل الصبر حين يتصل (١)
الشعر، والنحر، والمخمل، والمحصم دأى ، والفاحم الرجل (٢)
وقوله :

ولكنَّ بالفسطاط بحرا أزرته حياى، ونصحى، والهوى، والقوافيا
وقوله - يهجو كافورا من قصيدة له - :
أمنينا ، وإخلافاً ، وغدرا ، وخسة

وجبنا أشخصا - أحتلى - أم مخازيا (٣)

ومن مشهور التفويف: قول ابن دراج القسطنطائى :

عطاء بلا منٍ وحكم بلا هووى ومالك بلا كبر ، وعز بلا عجب
وقول ابن شرف القيروانى :

لختلنى الحاجات جمعٌ يبابه فهذا له فنٌ ، وهذا له فنٌ
فللخامل العليبا ، وللعدم الغنى وللمذنب العتبي، وللخائف الأمان (٤)
وقول ابن الفارض :

شربنا على ذكر الحبيب مُدامةً سكيرنا بها من قبل أن يخلتق الكرمُ
يقولون لى : صفها ، فأنت بوصفها خبير ، أجل عندى بأوصافها علم
صفاء ولا ماء، ولطف ولا هووى ونور ولا نار ، وروح ولا جسم

(٣) يريد ترشفت فى المحبوبة. والضمير فى « يتصل » يعود على الشوق . والمخلخل بهيمة

اسم المفعول : مكان المخلخل .

(٤) الرجل يكسر الجيم : الشعر بين السبط والجعد .

(٥) المين : الكذب .

(٦) العتبى بالضم : الرضا ؛ تقول استعتبني فاعتبتني أى أرضيته .

وقول الثعالبي في وصف الربيع :

ولما وهى من صيب المزن عقده وأقبل يروى غلالة النبت بل يشنفسى
رأيت به في الروض أعجب منظر يدل على صنع المهيمن ذى اللطف
فيضحك بلا ثغر ، ونسج بلا يد وحلى بلا صوغ ، ودمع بلا طرف
ولا يعيب قول ابن شرف وابن الفارض إلا قصر الممدود فيها لضرورة
الشعر في « العلياء » و « الهوام » .

فإن هذه الضرورة — وإن جازت عروضاً — لا تجوز بلاغة ، وهى
في هذا النوع من الكلام المترف الأنيق أقبح وأسمج ، والشاعر المتكبر المعتز
بفنه ينأى عنها .

وقول الرُّستمي :

ففى حازرق المجد من كل جانب إليه ، وخائى كاهل الشكر ذا ثقلى
بعضو بلا كد ، وصفو بلا قذى ونقد بلا وعد ، ووعد بلا مطل (١)
ويرى ابن رشيق (٢) : أن امرأ القيس هو فاتح هذا الباب للشعراء ، وأن
أصل هذا كله قوله :

أفاد ، فجاد ، وشاد ، فزاد وقاد ، فزاد ، وعاد ، فأفضل
ولبعض العصرين — من قصيدة — (٣) :

تولى زمان اللهو ياهند فاعذرى وأقصر عما كان من غيبه وعمره (٤)
ألم تبصرى فودى تنفس صبحه وكان حبيبا للدعى ليلته العكير
جناه على رأسى زمانه مُدَمَّم يشوب لنا صفو اللذائذ بالكدر
ربيع ولا خصب ، وظل ولا ندى وماء ولا رى ، وروض ولا نمر

(١) النقد كضرب : إعطاء النقد .

(٢) العمدة — ٢ — ٢٥ .

(٣) ألحان الأصيل — ٢٩٧ .

(٤) أقصر عن الشيء : تركه قادرا عليه . وعمر : ابن أبي ربيعة على التشبيه .

ومن بدائع التفويف ما أوردناه سابقاً في وصف السحاب :

تسربل وشيا من مُخزوز تطرّزت مطارفها طُطرزا من البرق كالتهير
فوشى بلا رقم ، ونقش بلا يد ودمع بلا عين ، وضحك بلا ثغر
وقد عرض الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود لهذين البيتين بالنقد، فقال (١):
تدرك من فورك : أن هذا الشاعر كاذب في شعوره ، يبحث عن اللفظ
أولاً ، ثم يترك المعنى تابعاً ، والأصل أن يضطرب المعنى في ذهنه ، فيخرجه
في ألفاظ ، فلم يتسربل السحاب وشياً من حرير مطرز ، وليس البرق تطريزاً
ولا الرعد ضحكاً ، وكيف يكون ، وهو الذي ماسمعته يدوى مرة إلا رأيت
قلوب الناس تنخلع لدويه المخيف !

ولو قاله الشاعر يصف أصيلاً جميلاً هادئاً ، لجاز له أن يرى السحاب
الخفيف المنتثر على صفحة السماء وشياً من الحرير المطرز ، ولكنه يصف
السماء وقد زعزعتها العاصفة القاصفة برعدها وبرقها ، فمن كذب الشعر أن
توحى إليه تلك الطبيعة الخشنّة الغليظة بنعومة الحرير ، وركشة التطريز ،
أو أن يوحى له الرعد بالضحك ، مع أنه أدنى إلى الزمجرة الغاضبة .

ويقول في موضع آخر ، فلا شك أن هذه كلها صور جميلة ، فالسحاب
الذي لبس رداء من حرير ، والرداء الذي طرزه البرق ، والدمع الذي
ينسكب من غير المحاجر ، ثم الضحك الذي تنحدر قهقهته من غير الأفواه
كل هذه صور جميلة ، ولكنها تفسد المعنى ، لأنها لا تترك في القارى أثر
السماء العاصفة يبرقها ورعدها (٢) .

ونلاحظ أن هذا النقد لا يخلو من التناقض ، فالناقد في كلامه الأخير
يقرر جمال هذه الصور - وإن أفسدت المعنى في نظره - فيقول : « فلا شك

(١) فنون الأدب - ١٢ .

(٢) فنون الأدب - ٧٨ .

أن هذه كلها صور جميلة، فالسحاب الذى يلبس رداء من حرير لؤلؤ، على حين يجرد هذه الصور نفسها من الجمال فى أول كلامه حيث يقول: فلم يتسربل السحاب وشياً من حرير مطرز، وليس البرق تطريزاً لؤلؤ.

ومادامت هذه الأشياء لا تتسجم مع هذه الصفات والحلى التى أثبتتها لها الشاعر - ولو ادعاء - فقد فسد أساس الاستعارة، وانتفى الجمال عنها جملة وتفصيلاً.

ويكون خلاصة ما رآه: أننا أمام منظر جميل وغير جميل فى وقت واحد!! ونلاحظ أيضاً غلواً فى قوله: - كل هذه صور جميلة، ولكنها تفسد المعنى - ذلك لأن جمال الصورة لا يتفق مع المعنى الفاسد؛ إلا إذا صح أن يجعل ثوب الخبز على حمار مثلاً!! والشاعر يقول:

ولو لبس الحمار ثياب خبز لقال الناس يالك من حمار
فالمعنى هو الذى ينضح على الصورة بهذا الجمال؛ أو يمدها على الأقل
بكثير من عناصره.

وكون هذه الصور الجميلة «لا تترك فى نفوسنا أثر السماء العاصفة برقها ورعدها» - كما يقول - لا يعد إفساداً للمعنى، ولكن يصح أن توصف بأنها لاتنقل إلينا الحقيقة، أو أنها غير صادقة الأداء.

فساد المعنى يرجع إلى شيء آخر؛ كالمغالطة فى الحقائق، أو التناقض، أو الإحالة، أو فساد المقابلات، وما إلى ذلك بما أخذه النقاد على الشعراء، ودونوه فى أبحاثهم؛ كقول أبى نواس فى وصف الأسد:

كأنما عينه إذا نظرت - بارزة الجفن - عينٌ مخنوق
فوصف عين الأسد بالجحوظ، وهى توصف بالغمور (١).

وقول عبد الرحمن القس:

أرى هجرها والقتل مثلين فاقصصرا ملامكا . فالقتل أعنى وأيسر^(١)
فأوجب هذا الشاعر للهجر والقتل؛ أنهما مثلان ثم سلبهما ذلك بقوله:
فالقتل أعنى وأيسر .

فكأنه قال: إن القتل مثل الهجر وليس مثله^(٢).

وكان الأولى أن يقول الأستاذ نجيب: إن الشاعر قد أغفل الجزء المهم
من المعنى مثلا، لأنه أفسده، لأن الفساد لم يحدث .

على أنه ليس واجبا على الشاعر أن يستقصى في وصف ما يرى،
وبستوعب الأجزاء كلها، لأن الشعر ليس تأليفا وجمعا وضما، وإنما هو لمحات
خاطفة متبلورة مركزة، ووقوف عند جزئيات بارزة متضحة، تسترعى نظر
الشاعر، وتستوقف فكره، فيخصها بعنايته، ويتذوق ما فيها من جمال،
ويستشف ما وراءها من أسرار .

وفي ذلك يقول البحترى - أكثر الشعراء التزاما لعمود الشعر - :
كلفتمونا حدود منطقكم في الشعر يغنى عن صدقه كذبه^٤
ولم يكن ذوالقروح يلبح بالمنطق مانوعه ، وما سببه^(٣)
والشعر لسمح تكفى إشارته وليس بالهذر طوالت خطبه

ولباب التصوير وسره ، وفتنة الخيال وسحره : مردها إلى البراعة
في التجسيم والتشخيص، وبث الحياة في التعبير، وإلهاب العواطف، واستفزاز
المشاعر، لا إلى التدقيق في سرد الصفات، واستقراء أجزاء الصورة .

فإذا كان الشاعر أرابا وشي السحاب ، وطران البرق ، وضحك الرعد
في هذا الإطار الأنيق المزخرف المفوف ، ولم يرنا أثر السماء العاصفة

(١) قصر عن الأمر قصورا ، وأقصر بالمشديد ، وتقاصر : انتهى .

(٢) الموشح — ٢٢٦ .

(٣) ذو القروح : لقب امرئ القيس .

برقها ورعدها ، فلأن هذا المعنى لم يستثر شعوره ، ولم يحرك خاطره إلى إبرازه ، وليس هو مكلفاً بغير الصدق في الأداء النفسى الذى يحسه هو أولاً . كما أنه ليس معلوم فى ذلك : فالشأن - كما قال المبرد - : واعلم أن للتشبيه حدّاً ؛ فالأشياء تتشابه من وجوه ، وتباين من وجوه ، فإنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع ، فإذا شبه الوجه بالشمس ، فإنما يراد الضياء والرويق ، ولا يراد العظم والإحراق^(١) .

وكما قال « جاريت » : إنه لا يقلل من استماعنا بقراءة آثار « دانتى » أو « ملتون » ، افتراضها وجود ألوان لا يمكن أن تكون ، فإننا حين نشعر بجمال شيء لا ننفكر فى علاقته بغيره ، أو فى القوانين التى تتحكم فى وجوده ، كما نفعل فى دراسة العلم ، بل نشعر : أن الجمال عالم مستقل بذاته ، له قوانينه الخاصة^(٢) .

وإنكار الناقد « نجيب » على الشاعر : تسمية صوت الرعد ضحكا ، لأنه يخلع قلوب الناس - وليس من شأن الضحك ذلك - لا يتخذ حجة على الشاعر لعدة أسباب .

منها : أن ضحك الرعد لا يخلع القلوب - كما هو تعبيره - إلا فى بلاد كبلادنا ، أغناها الله بالنيل عن المطر ؛ كما يقول نجيب الحداد فى وصفها^(٣) :
بل أنت غانية عن المطر الذى يهيمى فإن النيل فىك غمام
فلا تكاد تراه إلا فى بعض فصول السنة ، فأهلها معذرون إن فزعوا
لقصف الرعد وجلجلتها !!

ولكن فى البلاد التى تغاث بالأمطار - ومنها بلد الشاعر^(٤) - يطر بون لصوت الرعد ، ويأسون به ، ويعدونه بشيراً بالخير والبركة والخصب والجماء ، فلا بدع أن يسميه الشاعر ضحكا .

(١) الكامل « شرح المبرضى » ٢ - ٧٢ .

(٢) فلسفة الجمال - ٣٩ .

(٣) المنتخب - ١ - ٢٤٧ .

(٤) هو الزاهى ؟ فيكون بلده : العراق ، أو ابن رشيق ؟ فيكون بلده : تونس .

بل قد سموا هذا الصوت : هزجا ١١
يقول الزمخشري : ومن المجاز : سحاب هزج بالرعد « بكسر الزاي » ،
وسمعت هزج الرعد والعود .

وهو مأخوذ من الأصل اللغوي : هزج المغنى فى غنائه كفرح ،
والقارى فى قراءته : إذا طرَّبا فى تدارك الصوت وتقاربه (١) .

فانظر كيف سموه : هزجا ، وقرنوه بخفق العود ١٩

وسموه : ترنماً ، قال العسكرى : (٢)

والرعد فى أرجائه مترنم

والبرق فى حافاته متلهب

كالبسائق ترمح ، والصوارم تلتضى

والجو يدبسم ، والأناهل تحسب (٣)

وسموه : زجلا ، قال ابن الرومى (٤) :

متلهل زجل تحن رواعد فى حجر تنيه ، وتستطير بروق (٥)
ومنها : أنه ليس بغريب أن تتخلع القلوب من الضحك أو بعض الضحك
على الأقل ، فإن الناس يختلفون فى ذلك اختلافا كبيرا ، فضحك الأطفال
غير ضحك الرجال ، وضحك الرجال غير تهافت النساء (٦)

وفينا كثير من ذوى الحناجر الغليظة ، والأشداق الواسعة ، والمنساخر

(١) الأساس — مادة هزج .

(٢) نهاية الأرب — ١ — ٨٨ .

(٣) البلق : الخيول فيها سواد وبياض ؛ جمع أبلق . وتلتضى : تسلى . وتحسب : تعد .

(٤) ديوانه — ٣٠٦ جمع الأستاذ كامل كيلانى .

(٥) حجر تيه : ناحيته مثنى حجرة بالفتح .

(٦) التهافت : ضحك فى فتور كضحك المستهزى ، وهو حاس بالنساء

الضخمة - إذا ضحكوا على حين غرة أو سعلوا أو عطسوا - ألقوا الرعب في النفوس !

ومع هذا نسمى بعض هذه الأصوات المنكرة ضحكا أو قهقهة ١١
ومنها : أن الشاعر لم يجاوز في هذا سنن من تقدموه في تسميتهم صوت
الرعد : قهقهة ؛ فقد أتت الآثار الكثيرة في ذلك ، كقول الشاعر (١) :

إذا وئت السحب الثقال يحثها من الرعد حاد ليس يبصر أكمه
أحاديثه مُستهللات ، وصوته - إذا انخفضت أصواتهن - مُقهقهه
على أن الشاعر لم يذكر الرعد في بيتيه ، فلعله غير مراد له - وإن كان
يلازم البرق دائما - .

وعلى هذا النحو يمكن أن انصرف الضحك للبرق .
وكثيراً ما يوصف البرق بالضحك والتبسيم ، كما يوصف الرعد بالقهقهة .
قال ابن مطير - وهو أجود ما قيل في السحاب - : (٢)

مستضحك بلوامع ، مستعبر بدوامع لم تنمرها الأقداء (٣)
فله - بلا حزن ولا بمسرة - ضحك يؤلف بينها وبكاه
وقال العتّابي - وهو أجود ما قاله محدث - (٤) :

أرقت للبرق يخفو ثم يأتلق يخفيه طوراً ، ويبيديه لنا الأفق (٥)
كأنه غرة شهباء لامحة في وجه دهماء ماني جلدها بلتق
أو ثغر زنجية تفتّر ضاحكة تبدو مشافرها طوراً وتنطبق
وقال ظاهر الدين الحريري - من شعراء الخريدة - (٦) :

(١) نهاية الأرب - ١ - ٨٨ (٢) ديوان المعاني - ٦٢

(٣) المستعبر: الذي جرى دمه. ومرأه: استخرجه. أي هذه الدموع لم تجر بسبب فداة في العين .

(٤) ديوان المعاني - ٢ - ٩ .

(٥) خفا البرق : لمع .

(٦) نهاية الأرب - ١ - ١٨٩ .

أست ترى الجو مستعبرا يضاحكه برقه الخلب
وقال محمد بن عاصم - من شعراء الخريدة أيضاً - (١):

أضياء بوادي الأثل والليل مظلمُ بريق كسجد السيف ضرجه الدمُ
فشمته إذ لاح في غسق الدجى - بأسنان زنجى بدت تبسم
وقال العسكري :

كثير سرورى فى قليل وفاته
وقال شاعر :

والبرق يضحك كالحبيب وعنده
وقال آخر :

ولما وقفنا للوداع عشيّة
بكيت فأضحكت الوشاة شماتة
وقال بعض الرجاز :

وطرفى وقلبي : دامع ، وخفوق
كأنى سحاب ، والوشاة بروق
ضحك البر بها ثم بكى .
وفيما قدمناه ما يعنى .

(١) نهاية الأرب - ٥ - ١٧٩ ،

الفصل الرابع

التغاير

التغاير : أن يغاير المتكلم الناس فيما عادتهم أن يمدحوه فيذمه ، أو يذموه فيمدحوه (١).

واختصره بعضهم فقال : هو تحسين القبيح ، وتقبيح الحسن .

وهو نوع من البديع معروف ، وقد سماه قوم : التغاير ، وسماه العسكري التلطف ، وللإسم من المسمى : نصيب ، فإن الأديب أو الشاعر يتلطف بالمعنى الحسن حتى يهجنه ، وبالمعنى الهجين حتى يحسنه !!

وهو القياس الشدري المذكور في المنطق ، وقد ورد كثيراً في كلام العرب .
فن الأول - وهو تحسين القبيح - قول الفرار السُّلَمَى في تحسين الفرار :
وكتيبة لبستها بكتيبة حتى إذا التبتت نفضت لها يدي (٢)
فتركتهم تقص الرماح ظهورهم من بين مُسْجِدٍ وآخر مُسْنَدٍ (٣)
هل ينفعني أن تقول نساؤهم - وُقُتلت دون رجالهم - لا تبعَد (٤)
وقول الحارث بن هشام المخزومي في معناه :

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى رموا مهري بأشقر مُزِيد (٥)
فصُرُفت عنهم - والأحبة فيهم - طمعاً لهم بعقاب يوم مُفسد

(١) نهاية الأرب - ٧ - ١٤٥ .

(٢) لبستها : خلطتها .

(٣) الوقص : الكسر . والمجنبدل : المصروع .

(٤) لا تبعد : من البعد بفتح العين وهو الهلاك ، أو من البعد ضد القرب .

(٥) الأشقر المزبد : المراد الدم .

وفيه يقول أبو عبيدة : ما اعتذر أحد من الفرارين بأحسن مما اعتذر به الخارث ا .

وهذا الذي سمعه صاحب رُتَيْبيل^(١)، فقال : يا معشر العرب ، حسبتتم كل شيء فحسُن ، حتى الفرار ا ا

ولما فر أمية بن عبدالله بن خالد يوم « مرداء هجر^(٢) » ، من أبي فديك الخارثي ، وفد عليه أهل البصرة ، ولم يدروا أهنتونه أم يعزونه ، حتى دخل عبدالله بن الأهم : فاستشرف الناس له ، وقالوا : ما عسى أن يقال للمنهزم ؟ فسلم عبدالله ، ثم قال : مرحباً بالصابر المخدول ، الذي خذله قومه ا الحمد لله الذي نظر لنا عليك ، ولم ينظر لك علينا ، فقد تعرّضت للشهادة جهداً ولكن علم الله حاجة أهل الإسلام إليك ، فأبقاك لهم بخذلان من معك لك . فقال أمية : ما وجدت أحداً أخبر بي من نفسي غيرك^(٣) .
وقول منصور الفقيه في مدح الموت :

قد قلت : إذ مدحو الحياة وأسرفوا في الموت ألفُ فضيلة لا تُعرَف
منها أمان لقاءه ببقائه وفراق كل معاشر لا يُنصف
وقول شاعر في إفشاء الأسرار :

وما أكنتم الأسرار لكن أمثها ولا أدع الأسرار تغلي على قلبي
فإن قليل العقل من بات ليلته تقلب به الأسرارُ جنباً على جنب
وقول أبي العتاهية في البخل :

جزيّ البخيلُ على صالحة عنى لحقته عل ظهري
أعلى وأكرم عن نداه يدي فعلت ، ونزه قدره قدرى

(١) رتَيْبيل : من بلاد التركستان .

(٢) مرداء هجر : موضع بهجر وهجرة قاعدة البحرين .

(٣) العقد القرئد - ١ - ٧٤ .

ورزقت من جدواه عافية ألا يضيق بشكره صدرى
وظفرت منه بخير مكبرمة من بخله من حيث لا يدرى
ما فاتنى خيرُ أمرى وضعت عنى يداه مشونة الشكر

ومن اللطيف فى معنى ما تقدم قول الآخر :

أعتقنى سوء ما صنعت من الرق فىا بردها على كبدى
فصرت عبدا للسوء فىك وما أحسن سوء قبلى إلى أحد
وقول نَهْشَل بن جَرى فى الجبن - وهو أحسن ما قيل فيه - :
فلو كان لى نفسان كنت مقاتلا بإحداهما حتى تموت وأسلسا
وقول شاعر فى مدح الخنول والذل :
لذ بالخنول وعند بالذل معتصما بالله تسلم كما أهل النهى سلوا
فالريح تحطم إن هبت عواصفها دون الثمار وينجو الشيع والرتيم^(١)
وقول ابن الرومى فى الحلف الكاذب :

وإنى لذو حلف كاذب إذا ما اضطرت وفى الأمراض
وما فى اليمين على محرج يدافع بالله مالا يطيق
وقوله فى مدح الإعراض :
ما ساءنى إعراضه عنى ولكن سرئى
سالفناه عواض من كل شىء حسن^(٢)
وقوله فى الحقد :

وما الحقد إلا توعم الشكر فى الفى
وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض
فحيث ترى حقدًا على ذى عداوة
فشمّ ترى شكرا على حسن القرض

(١) الرتم كسبب : نبات دقيق بذره كالعدس .

(٢) السالفه : صفة العنى .

إذا الأرض أدت ربيع ما أنت زارع

من البذر فيها فهى ناهيك من أرض (١)

وقد أخذه من قول عبد الملك بن صالح الهاشمي - وقد قال له يحيى
البرمكي - : أنت حقود ! فأجابه : إن كان الحقد عندك بقاء الخير والشر !!
فإنهما عندى لباقيان .

فقال يحيى : ما رأيت أحداً احتج للحقد حتى حسنه غيرك !!
وقد عاد ابن الرومي فذمه بقوله :

يا مادح الحقد محتملاً له شئها لقد سلكت إليه مسلكاً وعثاً (٢)
كمزخرف القول ذوزور ولبسسه على القلوب ولكن قلّ مالاً بها (٣)
الحقد داء دوى لا دواء له يرى الصدور إذا ما جره حرماً (٤)
فاستشف منه بصفح أو معاتبة فأبما يرى المصدر ما نفثاً

ويلاحظ : أن ابن الرومي يذم ما يمدح ، ويمدح ما يذم كثيراً توسعاً
واقتراراً .

وقد يكون ذلك لاعتلال مزاجه .

وفي مدح الشر ذكروا : أن المتوكل قال لأبي العيناء - حين دخل إليه :-
بلغنى أن فيك شراً !

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن يكن الشر ذكر المحسن بإحسانه ، والمسيء
بإساءته ، فقد زكى الله - عز وجل - وذم ، فقال في الزكية : « نعم العبد
إنه أوّاب » .

وقال في الذم : « همّازٍ مشّاءٍ بنميم . مستناع للخير معتدٍ أئيم . عتّيل
بعد ذلك زئيم » (٥) .

(١) الريح : الزيادة والنماء وفضل كل شيء على أصله . وناهيك به كلمة تعجب واستفهام
كما يقال حسبك ، وتأويلها : أنه غاية تنهاك عن طلب غيره .
(٢) الوعث كنغم : الطريق الشائك المسلك ، حرك للضرورة .
(٣) لبسه : خلطه .

(٤) يرى بكسر الراء يحرق ؟ من ورى . وحرث النار : حركها .

(٥) العتل : الأكل المنيع الجاف الغليظ . والزئيم : المستلحق بقوم ليس منهم ، والدمى
والثيم المروف بلؤمه أو شره .

وقد قال الشاعر :

إذا أنا بالمعروف لم أئن دائماً ولم أشتم الجبّس اللثيم المذمّماً (١)
ففيهم عرفت الخير والشر باسمه وشقّ لي الله المسامع والفما
ويقول مسعود بن عبدالله الأسدي في مدح الغدر :
قالوا غدرت فقلت إن وربما نال العلا وشفي الغليل الغادر
وبقول بعضهم في مدح الفقر :
من شرف الفقر ومن فضله على الغنى يا صاح لو تعتبر
أنك تعصى كي تنال الغنى ولست تعصى الله كي تفتقر
ومن الثامني : أي تقييح الحسن : أن الحسن رأى على رجل طيلسان (٢)
صوف ، فقال له : أيعجبك طيلسانك هذا ؟

قال : نعم .

قال : إنه كان على شاة قبلك .

فهـجـه من وجه قريب .

وقال شاعر في حاجب اسمه : سعد :

يا حاجب الوزراء إنك عندهم سعد ، ولكن أنت سعد الذابج (٣)
ويقول العسكري : سمعت والدي - رحمه الله - يقول : لعن الله الصبر
فإن مضرتة عاجلة ، ومنفعتة آجلة ، وذلك : أنك معجّل بالصبر أم القلب ،
لتنال المنفعة في العاقبة ، ولعلها تفوتك لعارض يعرض ، وكنت قد تعجلت
الضرر من غير أن تصل إلى نفع .

وما سمعت هذا المعنى من غيره ، فنظمته بعد ذلك ، وهو :

الصبر عما تجنّبه صـبر ونفع من لام في الهوى ضرر (٤)

(١) الجبّس بالكسر: الجبان.

(٢) الطيلسان: لباس أسود من أثواب العجم.

(٣) سعد الذابج: أحد كوكبين؛ والأخر يسمى سعد السعود.

(٤) الصبر بكسر الباء وبالسكون على ثلثة: عصاة وشجر ص.

من كان دون المرام مصطبرا فلست دون المرام أصطبرا
منفعة الصبر غير عاجلة وربما حال دونها الغيّر (١)
فقم بنا نلتمس مآربنا أقام أو لم يقيم بنا القدر
وابخ من العيش ماتسره به إن عذل الناس فيه أو عذروا

وقد يظن أن الشعراء يركبون التناقض البغيض، ويفزعون إلى الكذب
الشّراح، حين يستحسنون ما يستقبح، ويستقبحون ما يستحسن، ويمدحون
ما يذم، ويذمون ما يمدح .

والحقيقة: أنهم لا يتناقضون ولا يكذبون، وإنما هم يتناولون بعض
الجوانب دون بعض في ذلك، كما فعل عمرو بن الأهتم (٢) حين مدح الزبير بن
ابن بدر بين يدي الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأكرم صفات المدح
ثم ذمه بأدنها .

فلما رأى الكراهة في وجهه حين اختلف قوله ، قال : يا رسول الله ،
رضيت، فقلت: أحسن ما علمت ، وغضبت، فقلت: أقبح ما علمت، وما كذبت
في الأولى ، ولقد صدقت في الثانية .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن من البيان لسحراً » (٣)
وقد أشار إلى ذلك شوقي بقوله .

فامدح على الحق الرجال وذمهم أو خلّ عنك نصيحة الصحاح

(٢) الغير كمنب : الأحداث

(٣) زهر الآداب - ١ - ٣٨ .

(٤) إن أريد بالحديث المدح ، فالمراد أنه يستمال به القلوب ، ويرضى به الساخط ،
ويستسبل به الصعب؛ فالمراد به السحر، بمعنى مارق ولطاف مأخذه على ماني الصحاح، أو السحر
بمعناه الحقيقي المشهور، لكن بعد تجرّده عن ملاحظة الجديمة والتويه ، وإن أريد به الذم ،
فالمراد: أنه يكتسب به من الإثم ما يكتسب الساحر ، أو أنه قد يخدع بزخارفه وحسن
معارضته ومطالمة .

وقد احتج لهم «المرتضى» في ذلك بقوله (١): من شأن الشعراء أن يتصرفوا في المعاني بحسب أغراضهم وقصودهم ، إذا رأى أحدهم مدح شيء ، قصد إلى أحسن أوصافه ، فذكرها وأشار إليها حتى كأنه لا وصف له إلا ذلك الوصف الحسن ، فإذا أراد ذمه . قصد إلى أقبح أحواله ، فذكرها حتى كأنه لا شيء فيه غير ذلك ، وكلُّ مصيب بحسب قصده ، ولهذا ترى أحدهم يقصد إلى مدح الشيب ، فيذكر ما فيه من وقار وخشوع ، وأن العمر منه أطول وما أشبه ذلك ، ويقصد إلى ذمه ، فيصف ما فيه من الإذناء إلى الأجل ، وأنه ائحل الآلون وأبغضها إلى النساء ، وما أشبه ذلك .

وهذه سبيلهم في كل شيء وصفوه ، ومدحهم موضعه ، ولذمهم موضعه فن ذم الوداع لما فيه من الإندار بالفراق وبعد الدار ، قد ذهب مذهباً صحيحاً ، كما أن من مدحه لما فيه من القرب بالحبوب ، والسرور بالنظر إليه . وإن كان يسيراً . قد ذهب أيضاً مذهباً صحيحاً .

يقول البحتری في كراهة الوداع يعتذر لأبي جعفر بن سهل المروزي :

الله جارك في انطلاقك	تلقاء شامك أو عراقك
لا تعذني في مسيرك	يوم سرت ولم ألاقك
لاني خشيت مواقفنا	للبن تسفح غرب ماقلك (١)
وعليت أن لقاءنا	سبب اشتياقي واشتياقلك
وذكرت مايجد المودع م	عند ضمك واعتناقلك
فتركت ذلك تعمداً	وخرجت أهرب من فراقك

ويقول في مدحه :

إن للبين نعمة لا تؤدّي ويدا في تماضر بيضاء

(١) آمالي المرتضى - ٤ - ١٦٧ .

(٢) النرب كنهم : عرف في العين يسقى ولا ينقطع ، والدمع ، ومسيله ، أو انهلاله . واللاق :

مؤخر العين أو مقدمها .

حجبوها حتى بدت لفراق كان داء لعاشق ودواء
أضحك البين يوم ذاك وأبكى كل ذي صبوة وسر ، وساء
لجعلنا الوداع فيه سلاما وجعلنا الفراق فيه لقاء
وقال آخر :

جزى الله يوم البين خيرا فإنه أرانا - على علاته - أم ثابت
ومهما يكن ، فهذا مذهب له أنصار من قديم الزمان .

وقد قيل للأصمعي : من أشعر الناس ؟

قال : الذى يجعل المعنى الخسيس بلفظه ، كبيراً ، أو يأتى إلى المعنى الكبير
فيجعله : بلفظه ، خسيساً^(١) .

وقد قالوا : حسن البلاغة : أن يصور الحق فى صورة الباطل ، والباطل
فى صورة الحق^(٢) .

ومن صور البلاغة الرائعة : خطبة على - كرم - الله وجهه - فى مدح
الدنيا ، مغايراً لأمثاله فى ذمها . منها : إن الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار
صافية لمن فهم عنها ، ودار موعظة لمن اتعظ بها .

مسجد أحباب الله ، ومصلى ملائكته ، ومهبط وحى الله ، ومتجر
أوليائه ، اكتسبوا منها الرحمة ، وربحوا منها الجنة ...

وقوله : وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثى يعوده - فرأى سعة
داره - : ما كنت تصنع بسعة هذه الدار فى الدنيا !! أما أنت إليها فى الآخرة
كنت أحوج ؟ وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة : تقرى فيها الضيف ، وتصل
فيها الرحم ؟ ، وتطلع منها الحقوق مطالعها ، فإذا أنت بلغت بها الآخرة^(٣) .
وقد نظمها ابن أبى الأصمعي^(٤) ، فمن ذلك قوله :

(١) العمدة - ٢ - ٤٦ - ٥٠ .

(٢) المصدر السابق - ١ - ٦٥ .

(٣) نهج البلاغة - ١ - ٥٢٢ .

(٤) خزنة الأدب للعموى - ١٢٩ .

دار زاد لمن تزود منها وغرور لمن يميل إليها
وقد مدح الحريري الدينار وذمه (١) ، فمن الأول قوله :
أكرم به أصفر راقته صفرتة جواً أب آفاق ترامت سفرتة
وقال في ذمه :

تسأله من خادع ثماذق ١ أصفر ذى وجبين كالمناق (٢)
وقد غاير أبو تمام جميع الناس في تفضيل التكرم على الكرم ، فقال :
قد بلونا «أبا سعيد» حديثاً وبلونا أبا سعيد قديماً
فوردناه سائحاً وقلبياً ورعيته بارضاً وجمياً (٣)
فعلينا أن ليس إلا يشق النفس صار الكريم يدعى كريماً
وهو مغاير لقوله على الطريقة المألوفة :
لا يتعب النائل المبدول همته وكيف يتعب عين الناظر الناظر
وهو كقول بعض العصريين :

ومطبوع الندى يسخو بما يسخو ولا يدرى
ومن قول ابن الرومي في تفضيل القلم على السيف :

إن يخدم القلم السينبُ الذي خضعت
فالموت - والموت لاشيء يعادله -
كذا قضى الله للأقلام مذُبريت
وقال أيضاً :

لعمرك ما السيف سيف الكمي له شاهد إن تأملته
بأخوف من قلم الكاتب ظهرت على سره الغائب

(١) القامة الدينارية .

(٢) تباله : هلاكاً . والمناذق : الذي يشوب الود بالكدر .

(٣) البارض : أول ما يظهر من نبات الأرض . والجميم : النبات الكثير ، وهو ما نهض

وانتشر منه .

أداة المنية في جانبيه فمن مثله رهبةُ الراهب
ألم تر في صدره كاللسان وفي الردف كالمرهف القاضب
وقال محمد بن يحيى الصولى من قصيدة وجه بها إلى أبى على محمد بن على:
في كفه صارم لانت مضاربه يسوسنا رغبا إن شاء أو رهبا
السيف والرح خدام له أبدا لا يبلغان له جِداً ولا لعبا
تجرى دماء الأعداى بين أسطره ولا يُحس له صوت إذا ضربا
فما رأيت مداداً قبل ذلك دماً ولا رأيت حساماً قبل ذا قصبا
وقال أبو تمام :

إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت
عليه شعاب الفكر وهى حوافل^(١)
أطاعته أطراف القنا وتقوضت
لنجواه تقويض الخيام الجحافل

وقال آخر :

قوم إذا أخذوا الأقالام من غضب
نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا
وقال البحتري يمدح ابن ثوابة :
معظم لم يزل تواضعه
ما السيف عضبا يضىء رونقه
وقال آخر :

إذا افتخر الأبطال يوماً بسيفهم
كفى قلم الكتّاب شراً ورفعة
وعدوه مما يكسب المجد والكرم
مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم
وقال أبو تمام يفاير ذلك :

(١) الخمس: اللطاف كناية عن الأصابع. والشعاب بالكسرة: ما عظم من سواقى الأودية
واحدة: شعبة، وحوافل: مليئة.

السيف أصدق أبناء من الكتب في حدة الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب^(١)
وقال المتنبي :

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي المجدد لل سيف ليس المجدد للقلم
اكتب بها أبدأ قبل الكتاب بنا فإنما نحن للأسياف كالخدم
وقال ميمار يمدح أبا القاسم بن المسلمة وزير القائم العباسي :
بيض القراطيس كالبيض الرقاق له وفي اليراع غنى عن أسمر خطـل
وقال في مدح آخر :

يطاول بالأقلام ماتبلغ القنا ويفعل أفعال الطبيا بالمخاصر
وقال أيضاً :

إذا خاضت النسقس أقلامه كفين الذوابل خوض الدماء
وقال : في لفظه والنخط مندوحة من صارم الحدين ذلاق
وقال المركيز منتروز^(٢) :

إذا كان غيرى يخاف القدر وقلت فعال عليها قدر
فجداك من ذا اليراع الأغر وصيتك من ذا الحسام الأغر
فسوى يديهما .

وقد قال فيه ابن أبي الإصبع: وهو تغاير المذهبين :
١ — إما في المعنى الواحد ، بحيث يمدح لإنسان شيئاً أو يذمه ، أو يذم
مامدحه غيره وبالعكس .

٢ — وإما أن يفضل شيئاً على شيء ، ثم يعود فيجعل المفضل فاضلاً
والفاضل مفضولاً .

من ذلك قوله تعالى : « قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين
استسضعوا بعضوا لمن آمن منهم أتعلبون أن صالحاً مرسل من ربه ، قالوا : إنا بما
أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون . »

(١) الصفائح : السيوف العريضة ؟ واحتتمها ، صفيحة .

(٢) السعادة والسلام لاوردافرى — ٥٤ .

فغاير بعضهم بعضاً في باب الطاعة والعصيان ، بعد التغاير في مقالهم واعتقادهم في نياتهم ، وهذا هو ما يغاير الإنسان فيه غيره .

وأما ما يغاير فيه نفسه ، فمنه قول قریش عن القرآن : « ماسمعنا بهذا في آياتنا الأولين » إنكاراً منهم لخرابة أسلوبه ، وما بهرهم من فصاحته ، وملزوم هذا الكلام إقرارهم بالعجز عنه .

ثم غايروا أنفسهم في وقت آخر ، فقالوا : « قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا » .

ولو كان القولان في وقت واحد ، لسكان ذلك تناقضاً وهو معيب ، ولم يعد من المحاسن .

لكنه لوقوعه في زمنين مختلفين ، ووقتين متباينين لا يعد من العيوب ، واعتدوه من المحاسن ، ولذلك سمي تغايراً لا تناقضاً .

وذكر ابن أبي الأصعب نوعاً من التغاير ، وهو تغاير المعنى لمغايرة اللفظ ومثّل له بقوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، فإن ذلك غير قوله — سبحانه — في سورة الإسراء . « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » .

وسبب هذه المغايرة : أن الخطاب في الآية الأولى للفقراء بدليل قوله : « من إملاق » فاقترضت البلاغة تقديم وعده للآباء المملقين بما يعينهم من الرزق ، وتكميل المعنى بوعده الأبناء بعد وعده الآباء ، لتسكين الأنفس .

وفي الآية الثانية ؛ كان الخطاب للأبناء بنى إسرائيل بدليل قوله — عز وجل — : « خشية إملاق » فإنه لا يخشى الفقر إلا الغنى ، لأن الفقير فقره واقع ، فاقترضت البلاغة تقديم وعده الأبناء بالرزق ، ليشير هذا التقديم إلى أنه — سبحانه — هو الذي يرزق الأبناء بزول توهم الأغنياء : أنهم يأنفاقهم

على الأبناء يصيرون إلى الفقر بعد الغنى ، ثم كمل الظمأنينة بوعدهم بالرزق بعد وعد أبنائهم (١).

وباب التحسين والتقييح مدخل واسع ممد تهذيب الطباع ، وصقل العواطف ، وتصفية الأذواق ، وتربية النفوس على الفضيلة ، وقدعها عن الرذيلة ، وتحيبها في الخير ، وتبغيضها في الشر ، وحثها على كل عمل صالح نافع ، وملتها بالحماسة والإقدام، وحب التضحية والفداء ، والوقوف في وجه الظلم ، ومجاهدة الموت بلا خوف ولا وجل .

انظر وقع هذا البيت على ضمير المرائي، الذي يأمر بالخير ولا يعمل به:
وغير تقى يأمر الناس بالتقى طيب يداوى الناس وهو مريض
أو قول أحمد بن يوسف :

وعامل بالفجور يأمر بالبر كهاد يقود بالظلم
أو كطيب قد شفاه سقم وهو يداوى من ذلك السقم
يا واعظ الناس غير متعظ ثوبك طهر أو لا فلا تلم

وقدر أثر هذا الشعر في نفس غافل لاه ، لا يجزى ذكر هاذم اللذات (٢)
على لسانه ، ولا يخطر له على بال — وهو مما نسب إلى ابن عباس — :

الموت باب وكل الناس داخله ياليت شعري بعد الباب ما الدار؟
الدار جنة عدن إن عملت بما يرضى الإله وإن خالفت فالنار

وهل تكسر من شرة الجشع الحريص إلى جمع المال من الحلال والحرام
وتحسم مادة تكالبه على زهرة الدنيا بأحسن من هذا القول؟:

انظر إلى لاعب الشطرنج يجمعها مغالياً ثم بعد الجمع يرميها
كالمرء يكدح للدنيا ويجمعها حتى إذا مات خلاها وما فيها

(١) بديع القرآن « مع التصرف » — ٨٢ .

(٢) الهادم القاطع ، كناية عن الموت .

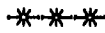
وهل تكفُّ شهوة النهم الرغيب^(١)، الحوتى الالتقام ، الفيلى الالتهام ،
بأفضل من هذا الشعر ؟ :

يا آكلا ما اشتهاه وشاتم الطب والطبيب
ممار ما قد غرست تجنى فانتظر السقم عن قريب
يجتمع الداء كل يوم أغذية السوء كالذنوب .

وهل كان الشاب المصرى يؤثر اللصوق بأرضه ، حتى ليكره التوظيف
فى غير مسقط رأسه ، ويعمد غيره من بلاد مصر ديار غربة ، فضلا
عن الهجرة إلى أكناف الأرض الواسعة ، كما يفعل الإنجليز أو اليونان
أو أشقاؤه السوريون واللبنانيون ، لو أنه غذى فى صغره بمثل قول
ابن منير الطرابلسى :

وإذا الكريم رأى الخنول نزيله فى منزل فالحزم أن يترحلا
كالبدر لما أن تضاءل جدّ فى طلب الكمال فخازه متنقلا
فارتق ترّق كالسيف سلّ فبان فى متنيه ما أخفى القراب وأنحلا

وهكذا يمكننا بتحسين الشيء أو تقبيحه ، أن نحمل النفوس على ما نريد
بتهيبج مشاعرها ، وإلهاب عواطفها ، وبعث وجداناتها ، فتنتقل إلى الشأو
المرسوم كالسهم المرسل لا يلوى على شيء .



(١) الرغيب : واسم البطن .

الفصل الخامس

التوشيع

التوشيع في اللغة^(١): إعلام الثوب: أى أن تجعل له علماً . وُبردموشع: ذو رقوم وطرائق .

وقيل : التوشيع : لفُّ القطن بعد ندفه ، أو أن يُدار باليد على الإبهام والخنصر ، فيدخل في القصبة .

وقال ابن دريد : التوشيع : رقم الثوب بعلم ونحوه ، ووشع القطن : لفه بعد الندف ، ووشع الغزل : لفه على القصب للنسيج ، ونسج الثوب بالتوشيع والوشاع : أى بهذا القصب الملفوف عليه .

وقيل الوشاع : كسب من ألوان الخيوط : كبة حمراء ، وأخرى صفراء ، الواحدة : وشيعة .

ويقول الفيومي : الوشيعة : الطريقة في البرد .

وذهب العلوي إلى أن اشتقاق التوشيع : من توشيع الشجرة ، وهو : تقريع أصلها .

وزاد على ذلك أنه يقال له : التوسيع بالسين المهملة ، فاشتقاقه : من قوطم : وسع في حفر البئر : إذا فسح فيه « بالتشديد » ومنه فسح في المجلس « بالتشديد » أيضاً : إذا وسع لمن يجاس فيه ، وعرفه على الاسم الأخير - بقوله : هو عبارة عن أن يأتي المتكلم بمثنى يفسره بمعطوف ومعطوف عليه . وذلك من أجل أن التثنية أصلها العطف ، فيوسع الاسم المثنى بما يدل على معناه ، ويرشد إليه على وجه العطف^(٢) .

وفي اصطلاح البلغاء : أن يأتي الشاعر أو الناثر في حشو العجز من كلامه باسم مثني ، ثم يأتي باسمين مفردين ، هما : عين ذلك المثني ، يكون الآخر منهما قافية بيته ، أو سجعته كلامه ، كأنهما تفسير لما أتينا به (١) .

وأخصر من ذلك وأسهل وأبين : ما ذكره المحبسي (٢) ، وهو : أن يؤتى بمثنى مفسر باسمين ، ثانيهما معطوف على الأول ، كقوله — صلى الله عليه وسلم — : « الخمر من هاتين الشجرتين : النخلة والعنب » .

وقد يفسر المثنى بمفرد مضاف إلى متعدد — كما ذكر العلوي — كقول البهتري :

ومنى تساهمنا الوصال ودوتنا يومان : يوم نوى ، ويوم صدود (٣)
وقد يؤتى بمثليين ومثنيين ثم بأربع مفردات : اثنين للأولين ، واثنين للآخرين كالحديث : « أحملت لنا ميتتان ودمان : السمك ، والجراد ، والكبد والطحال » .

وقد يأتي المثني مضافاً ، كقولهم : ابنا سمير : الليل والنهار ؛ لأنه يُستمر فيهما ، وقيل الغداة والعشى ، وابنا الفواطم : الحسن والحسين .
والفواطم : فاطمة الزهراء أمهما ، وفاطمة بنت أسد أم « علي » جدتهما ، وفاطمة بنت عبد الله بن عمران بن مخزوم جدة النبي لأبيه .

وأبنا قبيلة : الأوس والخزرج ، وقبيلة أمهم .
وابنا نزار : ربيعة ومضر . وابنا وائل : بكر وتغلب . وفعلا المدح : نعم وبئس ، وألحق بهما ساء وحبذا . وجناحا الدنيا : البصرة والكوفة . وملكا بابل : هاروت وماروت . وملكا الشعر : امرؤ القيس وأبو فراس الحمداني . وقترنا الحمار : الكذب والباطل ، لأن الحمار لا قرن له .

(١) حسن التوسل — ٧٤ — خزانة الأدب للحموي — ٢١١ — نهاية الأرب

— ٧ — ١٤٨ — بتصرف قليل .

(٢) جنى الجنيتين — ١٦ .

(٣) ساهمه الشيء : قاسمه لياه .

وقد يأتى المثنى مضافا إليه ، كقولهم : أبو العلمين : العلم الأسود والعلم الأبيض . ويعنون : القطب ابن الرفاعى ، فقد كان له علمان كذلك .
وحدّ الزمانين : الماضى والمستقبل . ويعنون بحدّهما : الزمن الحاضر ، لأنه يفصل بينهما . وذو الشرفين : شرف الأدب ، وشرف النسب . وذو القلمين : ديوان الخراج ، وديوان الجيش ، ويعنون به : على بن سعيد بن كَسَنَدَاجِيق ، لأنه كان يتولاها ، أو لأنه كان يكتب بالعربية والعجمية .
وذو الكفائيتين : كفاية أمور الدولة ، وكفاية أمور الجيوش ، ويعنون به : أبا الفتح بن أبى الفضل العميد ، لأنه كفى ركن الدولة البويهى أمرهما .
وذو النورين : السيدة رقية ، والسيدة أم كلثوم بنتا الرسول — عليه الصلاة والسلام — وقد لقب عثمان — رضى الله عنه — بذلك ، لأنه تزوج بهما على التعاقب .

وقد يأتى بعد الاسمين المفسرين للمثنى : اسمان آخران مفسران لهما ، كقول بعض العصريين :

عيدان : عيد هدى ، وعيد سعود فطر الصيا . ، وغرة المولود
وقد ذهب عبد الرحيم بن شيت القرشى فى التوشيع مذهبا آخر ، فقال :
هو أن يستعمل السكاتب فى كلامه كلمة ، يقتضى لفظها بمجرد فى لغة العرب معنيين فصاعدا .

ثم يبنى بعدها فصلا ، ويأتى بعده بالفصل الذى تقتضيه تلك الكلمة ، كقولك : إن فلانا يميل إلى الخير وإتيانه ، وعن الشر واستحسانه .
فلفظة « يميل » تحتل أن يكون إلى الشيء وعنه (١) .
وهو فى ذلك يخالف الجمهور مخالفة واسعة .

وإذا وقع المثنى فى أول الكلام ، أو آخره ، يحسن أن يسمى مطرف التوشيع ؛ مثال الأول : قول ابن هانىء الأندلسى :

المدنقان من البرية كلما جسمى ، وطرف بابلي أحور (٢)

(١) معالم الكتاب - ٦٨ - إلى ٨٥ (٢) بابلي : منسوب إلى بابل ، بلد السحر والخر .

- ومثال الثاني : قول ابن الرومي :
 أجننت لك الوجد أغصان وكشبان فيهن نوعان : تفاح ورمان (١)
 وقول المتنبي :
 إذا صرف النهار الضوء عنهم دجا ليلان : ليسل والغبار
 وقول عبد المطلب :
 من كل وضاح المحيا عمره يومان : يوم ندى ويوم طعان
 ومثال ما يأتي فيه المثني وسط الكلام قول شوقي :
 بأيديهم نوران : ذكر وسنسة فسا بالهم في حالك الظلمات
 وقول حافظ في ملبى الأزبكية :
 كم وارث غض الشباب رميته بغرام راقصة ، وحب هلوك (٢)
 ألبسته الثوبين في حالهما تيه الغنى ، ودلة المفلوك (٣)
 وقد جمع محمود غنيم بين التوشيع وسط البيت وآخره في قوله — يرثي
 المرحوم مصطفى عبد الرازق باشا :
 طوى موتك اثنين : المروءة والندی وأبكي فريقين : الأحبة والسعدا
 واشتقاق التوشيع عند الحلبي والحوي والنويري من الوشيعه ، وهي
 الطريقة الواحدة في البرد المطلق .
 فكان الشاعر أهمل البيت إلا آخره ، فإنه أتى فيه بطريقة تعد من
 المحاسن (٤) .
- وهذا تعليل للتسمية غير مقبول ، وهو يخالف المفهوم من معنى
 التوشيع ، لأن التوشيع لا يختص بأخر الثوب ، إذ هو غزل من اللحمة (٥)
 ملفوف ، يجره الناسج بين طاقات السدى (٦) عند التساجه .
 وقال ذو الرمة :
 به ملعب من مصنفات نسجه كنسج اليماني برده بالوشائع (٧)
 وقال آخر :
 كنسج الحميري برود عصب يرد على جوانبها الوشيعا (٨)

(١) يريد بالأغصان والكشبان : الفدود والأعجاز ، وبالتفاح والرمان : الحدود والتهود .
 (٢) الهلوك كصبور : الفاجرة المتساقطة على الرجال . (٣) المفلوك : الفقير البائس ، تسمية فارسية .
 (٤) حسن التوسل — ٧٤ — خزائن الأدب — ١١ . نهاية الأرب — ٧ — ١٤٨
 (٥) لحمة الثوب بالفتح والضمة : ما ينسج عرضاً (٦) السدى بفتح السين : مامدطولا في النسج .
 (٧) العصب : ضرب من البرود . (٨) المصنفات : الرياح الشديدة .

ولهذا خطئوا أبا تمام في قوله :

شهدت لقد أقوت مغانيكو بعدى وحثت كما حثت وشائع من بُرد^(١)
لأنه جعل الوشائع حواشي البرد ، أو شيئاً منها ، وليس الأمر كذلك^(٢) .
فالشاعر لم يهمل البيت إلا آخره - كما قالوا - وكذلك الموشع « بكسر
الشين المشددة » لم يهمل البرد إلا آخره .
وإنما سر التسمية : التشابه في أن كليهما وشى نسجه بالوشائع ، وهى
هذه الرقوم الخاصة .

ويعد التوشيع من بدائع الحلي إذا وقع موقعه ، ورفد فيه الطبع القوى
الصنعة المحكمة .

قال الثعالبي يمدح أبا الفضل الميكالى^(٣) :

بحران : بحر في البلاغة شابه شعر الوليد، وحسن لفظ الأصمعى^(٤)
وترسل الصابي يزين علوه خط ابن مقلة ذى المحل الأرفع
كالتور أو كالمسحر أو كالبدر أو كالوشى فى برد عليه موشع
وليست التثنية شرطاً فيه ، وإنما هو الغالب .

قال محمد بن وهيب^(٥) :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحا وأبو إسحاق والقمر
وقال ابن هانئ الأندلسى :
والمشركات النسيرات ثلاثة : الشمس والقمر المنير وجعفر

(١) أقوت : خلت . وحثت : بليت .

(٢) الموازنة بين الطائيين - ١٧١

(٣) مقدمة بقيمة الدهر - ١ - س .

(٤) الوليد : البحرى .

(٥) ديوان المعاني - ١ - ٢٨ . وأبو إسحاق : كنية المعتصم العباسى .

وقال غانم المالقي :

ثلاثة يجهل مقدارها الأمن والصحة والقوت
وقال شاعر :

ثلاثة تذهب عنك الحزن الماء والخضرة والوجه الحسن
وقال العسكري :

لم يزل للورى ثلاث شموس وجهك المستضىء والقمران
وفي المثل : أفسد الناس الأحامرة : الخمر واللحم والذهب والزعفران .
ومن أمثله النثرية البالغة ذروة البلاغة : الأحاديث الشريفة : « يشيب
ابن آدم وتشيب معه خصلتان : الحرص ، وطول الأمل . » « منهومان
لا يشبعان : طالب علم ، وطالب مال . »
« لا يزال الكبير شاباً في اثنتين : حب المال ، وطول الأمل . »
« خصلتان لا يجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق »

ومن الحكم المأثورة : دار عدوك لأحد أمرين : لصداقة تؤمنك ،
أو فرصة تمكنك .
الصبر : صبران : صبر عما تحب ، وصبر على ما تكره ، والرجل من
جمع بينهما .

أمران لا ينفكان عن الكذب : كثرة المواعيد ، وشدة الاعتذار .
ليس في ثلاث حيلة : فقر يخالطه كسل ، وخصومة يخامرها حسد ،
ومرض يمازجه هرم .

ثلاثة يجب مداراتهم : المسلّط والمريض والمرأة .
ثلاثة يعذرون على سوء الخلق : المريض والمسافر والصائم .
وكان أبو عبد الله المحاسبي الزاهد يقول : فقدنا ثلاثة أشياء : حسن
الوجه مع الصيانة ، وحسن القول مع الأمانة ، وحسن الإخاء مع الوفاء .
وبما جاء متتابعا في الشعر : — ما قال فيه ابن رشيق : ومن جيد ما سمعته
لمحدث ، وأظنه لابن الرومي في عبيد الله بن سليمان بن وهب ، ورأيت من

يرويه لأبي الحسين : أحمد بن محمد الكاتب^(١) :

إذا أبو قاسم جادت لنا يده لم يُحمد الأجودان : البحر والمطر
وإن أضاءت لنا أنوار غرته تضاءل الأنوران : الشمس والقمر^(٢)
وإن مضى رأيه أوحدت عزمته تأخر للماضيان : السيف والقدرة
من لم يكن حذراً من حدّ صولته لم يدر ما المزعجان : الخوف والحذر
ينال بالظن ما يعيا السعيان به والشاهدان عاياه : العين والآثر^(٣)
وقد سطا عز الدين الموصلى في بديعته على البيت الأول ، فقال :
ومن عطاياه روض وشمته يد تُغنى عن الأجودين : البحر والديم
وقول ابن سارة الشنتريني الأندلسي في الزهد^(٤) :

يامن يُصيح إلى داعى السقاة وقد نادى به الناعيان : الشيب والكبر
إن كنت لا تسمع الذكرى فقيم ثوى في رأسك الواعيان : السمع والبصر
ليس الأصم ولا الأعمى سوى رجل لم يهده الهاديان : العين والآثر
لا الدهر يبقى ولا الدنيا ولا الفلك الأعلى ولا النيران : الشمس والقمر
ليرحلن عن الدنيا . . . وإن كرها فراقها - الثاويان : البدو والحضر
وقول الشيخ حنيف الدين المرشدى^(٥) :

أُمسى وأصبح من تذكركم وصبا يرثى لى المشفقان : الأهل والولد
قد خدد الدمع خدى من تذكركم واعتادنى المضنيان : الوجد والسكد^(٦)
وغاب عن مقلتي نومي لبعدهم وخاننى المُسعدان : الصبر والجلد

(١) العمدة - ٢ - ١١٢ وفى الصناعتين - ٤١٢ نسبها العسكى إلى أحمد بن أبى طاهر .
وفى زهر الآداب - ٤ - ١١٢ نسبها المصرى لأبى الحسن أحمد بن محمد الكاتب . وفى
خزاة الأدب - ٢١١ نسبها الجوى إلى ابنه الرومى وجاء البيت هكذا .

أبو سليمان إن جادت لنا يده . . .

(٢) فى بعض الروايات : النيران .

(٣) العين : ذات الشىء ، والحاضر من كل شىء . والآثر : بقية الشىء .

(٤) ثلاثد المعيان لانتج بن خافان - ٢٧٨ - وفيات الأعيان لابن خلسكان - ١ - ٤٧٣ .

(٥) سلاقة العصر - ١٠٣ .

(٦) المسعد : المعين .

لا تَعْرُو للدمع أن تجرى عواربه وتحتنه المظلمان : القلب والكبد
كأنما مهجتي شملو بمسبعة ينتابها الضاريان: الذئب والأسد (١)
لم يبق غير خفي الروح في جسدي فدى لك الباقيان : الروح والجسد
وليس هذه القطعة من الشعر الجيد ، ولكن أئبنتها لنضعها تحت مجهر
النقد ، وقد وصف الحموى هذه الأبيات : بأنها عامرة بالمحسنين في هذا الباب .
ثم استدرك فقال : غير أن أهل النقد الصحيح ما سكتوا عن تقصير في البيت
الأول حيث قال فيه :

« رثى لى المشفقان : الأهل والولد ،

فإن شفقة الأهل والولد معروفة ، والمشفق إذا رثى لشكوى أهله ،
أو الولد إذا رثى لشكوى والده ، كان ذلك من تحصيل الحاصل .
والمراد هنا: أن يقول: رثى لى العدو، ورق لى الصخر، وأشبه ذلك (٢).
وهذا نقد حسن ، ولكن عيبه : أنه وقف عند هذا البيت وحده ، وكان
يجب أن ينسحب على أبيات آخر ، فلامعنى لوصف « القلب » و « الكبد »
بالظلام ، لأن هذا ضد المتعارف عندهم في هذا الموطن ، فقلب العاشق يصور
دائماً ، بأنه أبيض متوهج منير ، لا مثله بالحب والعطف والحنان على غيره
من القلوب ، لأنه جرب المحنة ، وخبر البلاء ا

وهذا العباس بن الأحنف يقول :

يرقُّ قلبي لأهل العشق أنهم إذا رأوني وما ألقى يرقونا

ويقول المتنبي - وهو من المكثرين في هذا المعنى - :

وعذلت أهل العشق حتى ذقتهم فعمجت كيف يموت من لا يعشق

وعذرتهم وعرفت ذنبي أنني غيرتهم فالحقيت منه ما لقوا

ويقول :

لا تعذُّل المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك في أحشائه

(١) الشلو بالكسر ، والشلا بالفتح : العضو ، والجسد من كل شيء . والمسبعة :
الأرض الكثيرة السباع .

(٢) خزنة الأدب للحموى - ٢١١ .

إن القتييل مضرٌ جا بدموعه مثل القتييل مضرٌ جا بدمائه
ويقول سعيد بن سلم — وقد قيل له : إن ابنك شرع في الرقيق من
الشعر — دعوه ينظف ويظرف ويلطف (١) .

يريد لعله يتصف بالعشق ، فيصير إلى هذه الصفات .
وقد يبلغ من رقة المحب المحلص : أن يتمنى محبوبه المعافاة من الحب
شفقة عليه ، ورحمة به مما يكابده هو ؛ فيقول البحتري :
أعيذك أن تُعَمَى بشكوى صباية وإن أكسبتنا منك عطفاً على الصب
ويقول شاعر عصرى (٢) :

وقى الله « ليلي » أن يعلم بها الهوى وإن ساحت تحت الهوى بوصول
إذ ارحت من ليلي سقيماً وعوفيتُ فليست أبالي الشقم ، لست أبالي
كفائى من حبي لها وصبايتي بها : أنها باتت عروس خيالى
ولهذا المعنى سمعنا الشاعر يقول :
ولقد ذكرتك والظلام كأنه يوم النوى ، وفؤاد من لم يعشق
فقلب التشبيه مبالغته .

وذلك ، لأنه لما كانت الاوقات التى تحدث فيها المكاره : توصف
بالسواد ، فيقال : اسودّ النهار فى عيني ، وأظلمت الدنيا على ، جعل يوم
النوى كأنه أعرف وأشهر بالسواد من الظلام ، فشبّه به ، ثم عطف عليه
« فؤاد من لم يعشق » نظراً وإتماماً للصفة .

وقد جرت العادة : أن الإنسان الغزل يدعى القسوة على من لم يعرف
العشق ، والقلب القاسى يوصف بشدة السواد ، فصار هذا القلب عنده
أصلاً فى الكدرة والسواد ، فقاس عليه ، وعلى هذا قول العامة : ليل
كقلب المنافق أو الكافر .

وكان فى الإمكان أن يبرأ من العيب لو قال : « الأبيضان : القلب

(١) تزيين الأسواق لداود الإنطاكى - ١١ - زهر الأداب - ٣ - ٨٩ .

(٢) أغاريد السحر - ٣٢٥ .

والكبد ، على هذا المعنى المتقدم ، وقد جاء في ذلك : قول ابن أبي مرة
المسكى - كما رواه ثعلب - :

إن وصفوني فناحل الجسد أو فتشوني فأبيض الكبد
أو لو قال : الأكرمان : فقد جاء وصفهما بذلك . أو « الذائبان ،
أو المدنفان ، أو حتى « الأشيبان ، على معنى شيهما من شدة الوجد ، وبرح
الصبابة ، وقد جاء هذا في قول أبي تمام :

شاب رأسي وما رأيت مشيب الرأس إلا من فضل شيب الفؤاد
وكذاك القلوب في كل بؤس ونعيم طلائع الأجساد
كما جاء في قول المتنبي (١) :

إن لم يشب فلقد شابت له كبد شيبا إذا خضبته سلوة نص لا (٢)
وفي قول ابن زيدون (٣) :

فشبت وما للشيب وخط بمفرقي ولكن لشيب الهم في كبدي وخط (٤)
ولا عبرة بما أخذ النقاد على هذه الاستعارات (٥) ، فقد أخطوا من حيث
أصاب الشعراء ؛ فالقلب يشيب ، والكبد تهرم ، وهما يوصفان بالرقة
والغلظ ؛ والنقاد كثيراً ما يدق عليهم تصور إحساس الشعراء ، وإدراك
ما يدركونه من المعاني العاطفية .

وقال : « ينتابها الضاريان : الذئب والأسد » .

والضراوة ليست قصراً على هذين الوحشين ، فالضواري كثيرة العدد ،
وقد يقال : إن الأسد لا بد منه لأنه قافية البيت ، وسيد الوحوش ، فذكره
يفيد المبالغة ، ولكن لماذا خص الذئب بالذكر ، وهو ليس أضرى من الثمر

(١) ديوان المتنبي شرح البازجي - ١٢ .

(٢) فصل : ذهب خضابه : يريد : أن شيب كبده إذا خضبته سلوة لم يثبت خضابها ،

لأنه سرعان ما يعود إليه الشوق .

(٣) من قصيدة يخاطب بها ولادة ، ويستعطف ابن جهور - فلائد العقبان - ٨٢ .

(٤) وخط الشيب : انتشاره .

(٥) من ، أخذ القاضي الجرجاني على أبي تمام .

والفهد مثلا ١١ ثم ما هذه المهجة التي يبلغ من عظمها أن يجتمع عليها الذئب
والأسد ١١

ومادة الانتياب تفيد الرجوع مرة بعد أخرى ، ومن عادة الأسد -
كما يقال- ألا يرجع إلى فريسة أكل منها ، كما أنه لا يأكل من فريسة غيره
مهما نال منه الطوى ، ولو كانت مهجة هذا الشاعر المضحك ١١
فهذا الوصف لغو وسخف ومبالغة بلغت حد الإحالة ١ ولكن انظر
كيف تهش النفس للوصف وتسيغه ، لأنه لا يجاقب الطبيعة ، ولا ينبو عن
الواقع في قول أبي مرة المسكي :

كان قلبي إذا ذكرتكو فريسة بين ساعدى أسد
وقول عروة بن حزام :

كان قطاة علقمت بجناجها على كبدى من شدة الخفقان
وقول المجنون :

كان القلب حين يقال يُغدى قطاة عزها شرك فباتت
يلبى العامرية أو يراح تجاذبه وقد علق الجناح (١)
وقول بعض المصريين (٢) :

مرايح غزلان تعففت ولم تكن نديمى بها وليلى ، وريقتها الطملا
سوى متعة الأرواح والسمع والبصر وروحى وريحانى الأحاديث والسممر
كان فؤادى يسنحر الجمر فوقه إذ أعادت الذكري ، ويوخز بالإبر
هكذا القلب أو الكبد حين تعودها ذكرى الأحباب ، وهكذا .

هما حين يوصفان بالخفوق أو بالانتياح .
ويدت الشاعر الأخير :

لم يبق غير خفى الروح فى جسدى

أقبح أبياته ، وأجمعها اضطراب من المثالب ١

فوصفه الروح بالخفاء : حشو وفضول لا داعى له ؛ فالروح لا تكون

(١) عزها : غلبها .

(٢) ألمان الأصيل - ٢٩٧ .

إلا خفيّة ، ولا ترى إلا آثارها كالكهربى ، والله - سبحانه - يقول :
« يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » .
وإذا كانت هذه الروح الخفية باقية في جسده - كما صرح - فما الذى
يشكوه ؟ وماذا يريد وراء ذلك ؟ أليس هذا يساوى قوله : إنه حتى يسعى
ويضطرب كسائر الناس الذين عاينهم الله من محنة الغرام .
وقد نسلم له بالعشق مع بقاء روحه التى تشبهه روح القطاط ، فليس من
الضرورى أن يموت الصب - وإن برّح به الهوى - ولكن ما معنى بقاء
جسده فى قوله :

فدى لك الباقيان : « الروح والجسد »

أما كفاه أن تبقى له روحه حتى يضم لها بقاء جسده ! وكيف يتسق هذا
لمن يزعم أنه محب ولهان ، وأقل ما يذكره المحبوب فى هذا المقام : فنحول
الجسد بل فنأوه ؟
وذلك كقول المجنون (١) :

ألا إنما أبقيت يا أم مالك صدّى أينما تذهب به الريح يذهب (٢)
وقول بشار :
إن فى بردىّ جسما ناحلا لو تو كأت عليه لانهدم
وقول نصر :

ضنيت حتى صرت لوزجّ بي فى مقلة النائم لم ينتبه
وقول ابن العميد - وقد أخذه من سابقه - :
لو أن ما أبقيت من جسدى فدى فى العين لم يمنع من الإغضاه
وقول ابن عبد ربه :

لم يبق من جثمانه إلا حشاشة مبتس
قد ربق حتى ما يرى

(١) الأغاني - ٢ - ٢٠ .

(٢) أم مالك : كنية ليلى العامرية .

(٣) يتيبة الدهر - ١ - ١٠٢ .

وقول المتنبي - وهو من أكثر وافي هذا المعنى وغالوا فيه - :
روح تردد في مثل الخلال إذا أطارت الريحُ عنه الثوبَ لم يبين^(١)
كفى بجسمي نحو لا أنسى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترنى
وقوله :

وشكيتى فقدُ السقام لأنه قد كان لما كان لي أعضاء
وقوله :

مُحلت دون المزار فاليومَ لوزر ت لحال النحول دون العناق
وقوله :

دون التعاق ناهلين كشكيتي نصب أدقهما وضم الشا كل^(٢)
وقوله :

ولو قلم ألقيتُ في شقِّ رأسه من السقم ما غيرت من خط كاتب
فهذا الشاعر حينما يقرر : أن جسده باق ، ولا يتلطف بأن يصفه : أنه
سقيم أو نحيل - ولو ادعاء - ينادى على نفسه : بأنه خلو من تباريح الصباية
ولو اعج الغرام ، وهو في هذا يخالف مذاهب العشاق قديماً وحديثاً ١١ .

وقد رأينا بعض المغرمين - حينما رأى جسمه صحيحاً معافى
بخلاف ما جرت به العادة - اخترع لذلك علة طريفة ، تبرئه من جناية
السلو ، وتدرأ عنه سهام اللوم ، فقال :

وقائله : ما بال جسمك لا يُرى سقيماً وأجسام المحبين تسقم
فقلت لها : قلبي لجسمي لم يُحجج بجبي ، لجسمي بالهوى ليس يعلم
فلم يبق بعد ذلك ، إلا أن تكون هذه الأبيات المتقدمة خالية من
المحاسن ، لا كما رأها د الهوى ، عامرة بالمحاسن ١١ .

(١) تردد . يجوز أن يكون ملامحياً على أن الروح مذكر وهو الأكثر ؛ أو ملامحياً
مضارعاً على تأنيثها والأصل : تردد فخذت إحدى التاءين تخفيفاً .

(٢) يصف نحوله ونحول محبوبته من الشوق ؛ فيشبهها بفتحتين دقق الكاتب رسمهما
وقرب إحداهما من الأخرى .

ومن نظم ابن أبي الإصبع في التوشيح قوله (٣) :
بي محنتان ملام في هوى بهما يرثى لى القاسيان : الحب والحجر
لولا الشقيقتان من أمنيّة وأسا أودى بي المرديان : الشوق والفكر (٢)
وقد قال عنهما : وما بشعر قلته هنا من بأس (٣) .
وهذا يشعر باستحسانه لهما .

ويقول الحموي : رأيت في حاشية على هذين البيتين بخط رفيع : رحم الله
الشيخ ! لوقال : «الشوق والسهر ، لكان أتم وأحسن .
ولا مريّة في صواب هذا الرأى ، واسكن فات هذا الناقد : أن الشعر
كله لا يصلح بهذا الترقيع ، لأنه فاسد من الأساس ، فهو ركيك النسيج ،
واهن التركيب ، متكلف الألفاظ ، غامض المعنى ، خال من البهجة والرّواء ،
وأحسن ما يقال فيه : إنه نظم عالم فقهه لا أديب ذوّاقه ، ترى : ما هما
«المحتتان مثلاً؟ ولم لم يقل : بي غادتان على نحو ما قال ابن عبد ربه :
أطلاب ذحلي ليس بي غير شادن بعينيه سحر فاطلبوا عنده ذحلي (٤)
وفي بعض الروايات : لى محنتان (٥) . والتركيب به أشد ضعفا .
ولا تسكاد بحس رابطة بين المصراعين في البيت الأول .
ثم ما هذا الخلط بين الحب والحبيب في القسوة؟ فالحبيب هو الذى يصح وصفه
بها ، وأما الحب فيكفى أن يذكر ، فنتمثل فيه كل معانى الرحمة والعطف
والشفقة ، وحسبنا أنه « الحب » .
ثم أى علاقة بين الحب الرقيق العذب ، وبين الحجر الخشن الغليظ
فنقرنه به !

(١) خزائن الأدب للحموي - ٢١١
(٢) الأسا : جم أسوة بالضم والكسر فهما ؛ والمراد بها : التأسى والصبر . وفي
نهاية الأرب - ٧ - ١٤٩ : الشقيقتان .
(٣) لى نهاية الأرب - ٧ - ١٤٩ : وما بما قلته في هذا الباب من بأس .
(٤) التحل كعجل : الثأر .
(٥) حسن التوسلى للحلبى .

ثم من قال : إن الأمنية شقيقة الأسوة والصبر ؟ وأي جامع بينهما ؟
إن الأمنية : شقيقها الأمل والرجاء وما إلى ذلك .
ثم إن الشوق قد يردى المشوق ، ولكن من قال : إن الفكر يرديه ،
ألا يصح أن يكون تفكره في أشياء لذيدة سارة كاللقاء والوصال ، وإذن
فالفكر على إطلاقه لا يتسق وصفه بأنه يردى ، وإنما يجب تقييده حتى
يدل على المراد .

ومن ينعم النظر في التوشيح ، يرى أنه : شعبية من الإطناب ؛ فالغرض
المعنوى منه : الإيضاح بعد الإبهام ، وأن أكثر أمثاله جاءت في النشر ، وأنه
— حينما يجيء منشوراً يحسن دائماً ، لأنه يقع موقعه الطبيعي لسهولة إيراد
على هذا الوجه دون تعسف في الصيغة ، وتصيد للبعاني الغامضة ، وجلب
للروابط المفككة ؛ لأنه إما أن يأتي في صورة حكم تسلم بها العقول ؛
كقوله — عليه الصلاة والسلام — : « صنفان من أمتي إذا صلحا صلح
الناس ، وإذا فسدوا فسد الناس : الأمراء والفقهاء » وقوله : « أهلك الرجال
الأحران : الخنزير واللحم ^(١) » ، وقوله : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة
الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء
لا يحبه إلا الله ^(٢) » . وقول علي — كرم الله وجهه — : شتان بين عمليين :
عمل تذهب لذته « وتبقى تبعته ، وعمل تذهب مشونته ويبقى أجره ^(٣) » .

أو يكون كلمات واردة على صيغة التثنية حقيقة أو تغليباً ، تلقاها الناس
خلفاً عن سلف ، وتعارفوها ، واستفاضت شهرتها لديهم .

فمن المثني الحقيقي : الأمران : الفقر والهرم ، أو العرى والجوع .
السكريمان : الحج والجهاد . الأجودان : البحر والمطر ، وكذلك الأغزران .
الأصغران : القلب واللسان ، الأعزّان : الأهل والولد . الأعميان : السيل

(١) ديوان الصبابة — ٦٢ .

(٢) فتح المبدى — ٤٩ — ٥٢ ط الحلبي .

(٣) نهج البلاغة ٢١٥ — ٢١٦ .

والحريق . الحياتان : البقاء في الدنيا ، والثناء الحسن بعد الموت .
الأكرمان : الدين والعرض ، والقلب والكبد . البازيان : الأعشى
وجرير . البهران : البحر المالح والبحر العذب ، أو بحر فارس وبحر الروم .
الحرمان : مكة والمدينة . الحجران : الذهب والفضة ، وكذلك .
الحبيبان . الحكمان : أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص . الحكيمان :
أبو تمام والمنتبي . الثقلان : الإنس والجن . الأصفران : الزعفران
والذهب ، أو الورس^(١) والزبيب . السبطان : الحسن والحسين ،
وكذلك الشهيدان ، والريحانان . الصادان : الصاحب والصابي . الميتتان :
الحوث والجراد . الكريمتان : العينان . الكنزان : ملك النعام وفارس .
القبيلتان : الكعبة والمسجد الأقصى . المسجدان : مسجد مكة والمدينة .
العذابان : السفر والبناء . المصران : البصرة والكوفة . الرمانان :
الحلو والحامض . السكرتان : حب العيش وحب الجمل . الكاتبان :
ملك الحسنات وملك السيئات . الرافدان : دجلة والفرات . السماكان :
السماك الراح والسماك الأعزل^(٢) . الأطيبان : الأكل والنكاح ، أو النوم
والنكاح ، أو التمر واللبن ، وقيل غير ذلك . الأعذبان : الطعام والنكاح .
الأبيضان : اللبن والماء ، أو الشحم والبيض ، أو الخبز والماء ، أو الملح
والخبز ، أو الماء والتمر ، وقيل غير ذلك . الأشهبان : عامان أبيضان
ليس بينهما خضرة من النبات . الخافقان : المشرق والمغرب^(٣) .

والثنى الجارى على التغليب ، معدود من المجاز — كما صرح به ابن
شريف الحسيني في شرح الفوائد الضيائية — لأن اللفظ فيه غير مستعمل
في الموضوع .

ويغلب أحد المتجاوزين والمتشابهين على الآخر : بأن يجعل الآخر
مسمى باسمه ادعاء ، ثم يثنى ذلك الاسم قصداً إليهما جميعاً .

(١) الورس: نبات أصفر يشبه السمسم .

(٢) السماكان : نجمان نيران ٤ أو هما رجلا الأسد .

(٣) لأن الليل والنهار يخفقان فيهما .

ويجب تغليب الأخف إلا إذا كان الأثقل مذكرا .
وشرط ابن الحاجب أن يغلب الأذن على الأعلى ، كالقمرين ؛ فالقمر
دون الشمس ، والعمرين ؛ فأبو بكر أفضل من عمر (١) .
وعكس الطيبي ، فشرط تغليب الأعلى .

وخالفهما السيوطي في شرح عقود الجمان ، فقال : والذي نختاره خلاف
قولهما ، بل يكون التغليب للأفضل وللأخف وغير ذلك .

ويقول المبرد (٢) : تقول العرب : القمران ؛ تعني الشمس والقمر ،
تفعل ذلك في الشيتين ، إذا جريا في باب واحد : أى لمعنى غلب في الشيتين ،
كالنور في القمرين ، والنسل في الأبوين ؛ قال الفرزدق :

أخذنا بأطراف السماء عليكم لنا قراها والنجوم الطوالح
يريد : الشمس والقمر ، لأنهما قد اجتمعا في قولك : النيران ، وغلب
الاسم المذكور .

وقالوا : العمران لأبي بكر وعمر ؛ لأن عمر : اسم مفرد ؛ فآثروا
الحففة هنا مع أفضلية أبي بكر ؛ قال جرير :

وما لتغلب إن عدوا مساعيتهم نجم يضىء ولا شمس ولا قمر
ما كان يرضى رسول الله فعلهم والقمران : أبو بكر ولا عمر
وروى : والطيبان .

ثم يقول المبرد : ومن قال : العمران : عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز
لم يصب ؛ لأن أهل الجمل نادوا بعلي بن أبي طالب — رضى الله عنه — :
أعطينا ستة العمرين .

ومع ذلك روى أن قتادة : سئل عن عتق أمهات الأولاد ، فقال : قضى
العمران فما بينهما من الخلفاء بعثتمن : يريد عمر بن الخطاب ، وعمر بن
عبد العزيز .

ومن أمثلة المثني الجاري على التغليب : الأبوان : الأب والأم .

(١) هنا هو المشهور والأرجح ، ولا مانع أن يراد بالعمرين : عمر بن الخطاب ، وعمر بن
عبد العزيز .

(٢) الكامل للمبرد ، ورغبة الأمل للمرصفي - ٢ - ١٣١

الأخوان : الأخ والأخت . الأبيضان : الشحم والشباب ؛ لأن الشباب لا لون له . الأخضران : البحر والليل ، غلب الليل ؛ لأن البحر ليس بأخضر في الحقيقة . الأصيلان : الغداة والعشى ، غلب العشى . الباكران : الصبح والمساء . البصرتان : البصرة والسكوفة ، لأن البصرة أقدم ، الحيرتان : الحيرة والسكوفة ، لأن الحيرة أقدم . الرجبان : رجب وشعبان . الصفران : صفر والمحرم . العشاءان : المغرب والعشاء . المروتان : الصفا والمروة . المكتان : مكة والمدينة (١) .

وأما الشعر فقد وقع فيه فلتات ، والمطبوع منه لا يجاوز المرة الواحدة ينفح بها الإلهام من غير طلب لها ؛ كقول الشاعر :

شيثان لو بكت الدماء عليهما عيناى حق توذنا بذهاب
لم تبلغنا المعشمار من حقيهما : فقد الشباب وفرقة الأحباب

فهذا كلام متسق النظم ، مطرد التعبير ، يشرق بماء الطبع السمح ، تسوده نغمة حزينة هادئة تبعث الشجا ؛ لصدورها عن عاطفة صادقة ،

فليس آلم للره ولا أشد عليه من فقد شبابه وفرقة أحبابه !
وسواء أكان الأحباب بمعنى الحبايب المعشوقات ، أو الخلطاء الأصفياء ، فالعنى واحد ، والرزمان متكافئان !

بل إن بعضهم يرى فراق الصديق أنكى من فراق الحبيب ، كما يقول بعض الشعراء :

فراق أخ يعطى المودة حقها أضر وأنكى من فراق حبيب (٢)

فقد الشباب جماع المصائب كما يقول ابن الرومي :

أرى المرء مذيلقى التراب بوجهه إلى أن يُوارى فيه رهن المعاطب
وإن لم يُصب إلا بشرخ شبابه لكان قد استوفى جميع المصائب

(١) انظر جى الجنين للمجيبى ، وأدب الكاتب لابن قتيبة .

(٢) الأوراق للصولى - ١ - ١٦٣ .

ثم أتى المتنبي ، فبكاه قبل فقده ضمنا به ، وحرصاً عليه فقال :
ولقد بكيت على الشباب ولممتى مسودة ولماء وجهي روتق
حذراً عليه قبل يوم فراقه حتى لكدت بماء جفني أشرق
أما فراق الأحبة ، فهو عندهم أخو الموت ، وفي ذلك يقول الأبيورد
ابن المعذر الرياحي - يرثي أخاه بُريداً - :
وكنت أرى هجرأ فراقك ساعة ألا ، لا بل الموت التفرق والهجر
وقد أخذه أبو تمام فقال :

الموت عندي والفراق كلاهما مالا يطاق (١)
وجعله المتنبي علة الموت فقال :
لولا مفارقة الأحباب ما وحدث لها المتأيا إلى أرواحنا سبلا
وحذا السَّهْمَى حذوه فقال :
حازك البين حين أصبحت بديراً إن للبدر في التنقل عذرا
فارحلى إن أردت أو فأقيمي أعظم الله للهوى في أجرا
لا تقولى : لقاؤنا بعد عشر لست بمن يعيش بعدك عشرا
بل كثيراً ما نجدهم يقرنون فراق الشباب بفراق الحبيب أو الصديق ،
لتلاقيهما في فداحة الخطب !

يقول الأصبغى : أحسن أنماط الشعر : المراثي ، والبكاء على الشباب (٢)
ويقول كثير عزة : ذهب الشباب فما أطرب ، وتولت عزة ،
فما أنسب ، ومات ابن أبي ليلى ، فما أرغب (٣) .
ويقول الشبلي الزاهد :

مضت الشبيبة والحبيبة فانبرى دمعان في الأجنان يزدهمان
ما أنصفتني الحادثات رمينى بمودعين وليس لي قلبان

(١) الموازنة - ٩٨ - .

(٢) العقد الفريد - ٢ - ٤٧ .

(٣) ابن أبي ليلى : عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - .

ويقول ابن نباته :

فقدت الهوى لما فقدت شبيبتي وأوجع مفقود : هوى وشباب
ويقول شوقي في رثائه لإسماعيل صبرى :

ذهب الشباب فلم يكن زرئى به فوق المصاب بصفوة الألاف
والتوشيع فى الشعر السابق :

شيثان لو بكت الدماء عليهما

لم يأت حسنه من دقة الصياغة فقط ، ولكن لصحة المعنى ، وصدق
العاطفة ، وقوة الرابطة بين الاسمين المقسرين لمثناه : « فقد الشباب وفرقة
الأحباب » .

وإنك لو اجد هذا الحسن فى قول ابن المعتز :

سقتنى فى ليل شبديه بشعرها شبيهة خديها بغير رقيب
فأمسيت فى ليلين بالشعر والدجى وشمسين من نحر وخذ حبيب
فالشعر والدجى : ليلان بسوادهما ، وهذا الجامع حسن اقترانهما .
والنحر وخذ الحبيب : شمسان بحمرتهما وتوهجهما ، فليس فى الجمع بينهما
بعد ولا استكراه .

وزاد فى جمال الصورة وفتنتها التقاء الأضداد : ليلان وشمسان ؛ وكيف

يجتمع الليل والشمس ؟ !

ألم يقل إمام العبد لمن سأله عن السبب فى عدم زواجه .

يا خليلي وأنت أى خليل لا تلم راهباً بغير دليل
أنا ليل وكل حسناء شمس فالتقائى بها من المستحيل

وقد سبقه فى ذلك سعيد الكاتب التُّسْتَرى فقال :

قلت : زورى فأرسلت أنا آتيةك بسحرة

قلت : فالليل كان أخفى وأدنى مسره

فأجابت بحجة زادت القلب حسره

أنا شمس وإنما تطلع الشمس بكره

ولكن خلافة البيان، وسحر الافتنان ، الذى يصور المحال ممكنا ، والبعيد قريبا ، ويؤلف بين المتنافرين ، ويواخى بين المتعادين ؟؟

ولا بأس - إذن أن نرى شمسا ساطعة ، وليلا دامسا فى تصوير الشعر ، بالرغم من نواميس الطبيعة ! ألم يقل المتنبي :

رأت وجه من أهوى بليل عواذلى فقلن نرى شمسا وما طلع الفجر
وكرر هذا المعنى ، فقال :

غصن على تقوى فلاة نابت شمس النهار تقيل ليلا مظلمها (١)
لم تجمع الأضداد فى متشابهه إلا لتجعلنى لغرمى ممغنا (٢)

وما أعجب به العلوى ، ووصفه بحسن النظم ، ورقة الجلد ، والدقة وحسن الانتظام والفصاحة ، قول بعض المتأخرين :

يامن له الأطييان : المجد والكرم ومن له الماضيان : السيف والقلم
ومن خلائفه كالروض ضاحكة فطبعه الأحسنان : الجود والشيم
أنت الجواد وأنت البدر لا كذب يمحي بك الأسودان : الظلم والظلم
هناك ربك ما أولاك من نعم لا مسك المؤذيان : السقم والألم
وعادك الشهر أعواما مكررة ما عظيم الأشرفان : البيت والحرم

وفى رأينا : أن الأبيات لا تستحق هذا الثناء المفرط ، ففيها ثغرات تستوجب المؤاخذة :

لحسن قوله : الماضيان : السيف والقلم ؛ فكلاهما يوصف بالنفاد والمضاء ، وكلاهما بعيد الأثر فى قيام الممالك وسقوطها ، وكلاهما يخشى بأسه

(١) أى هى : غصن ، وهى : شمس ؛ فهما خبران لمتدأين محدودين . والقوان بفتح النون والقاف : مثنى نقا ، وهو الكتيب من الرمل . وتقل : تحمل .

(٢) أراد بالأضداد : ما ذكره فى البيت السابق من الأشياء التى شبهها بها ، وبالتشابه : شخصها الذى تشابهت أعضاؤه فى حسن الخلق وتناسبه : أى لم تجمع هذه الأوصاف المتضادة فى هذا الشخص التى تباها الحسن ، إلا لتجعلنى غنيمته لما يصيبى من الغرم فى حبها .

ويهرب حده ، وتهاج صولته ، وكلاهما يسود صاحبه ، ويرفعه إلى أعلى الدرجات ، ويبلغه أقصى الغايات .

هذا إلى أنهما في الأذهان مقترنان ، وإلفان متآلفان ، وصنوان لا يفترقان ، حتى جرت العادة من القديم أن تعقد بينهما المناظرات والمفاخرات ، والموازنات ، كما فعل ابن الوردي (١) ، والقلقشندي (٢) وابن نباتة (٣) ، فضلا عما صاغه الشعراء في تفضيل أحدهما على الآخر ، وهو جملة وافرة في الشعر العربي .

وجميل قوله : الأسودان : الظلم والظلم .
فكلاهما : أسود ، فالظلام أسود حقيقة ، والظلم أسود مجازا ، وكلاهما شنيع بغيض مخوف ، يملأ النفس وحشة ورهبة وفزعاً ،
ويبينهما جناس جميل خفيف غير متسكف ولا مجلوب : جناس في الصورة الظاهرة والباطنة : في اللفظ والمعنى .
وقد قويت بينهما الرابطة ، حتى لقد ذكرا مقترنين في الآثار والشعر .
ففي الحديث : « الظلم ظلمات يوم القيامة » .
وقد أخذه أبو تمام فقال :
جلا ظلمات الظلم عن وجه أمة أضاء لها من كركب الحق آفله
وأخذه آخر فقال :

والظلم مشتق من الظلمه

ونظر إليه البوصيري في قوله :

ظلمت سُنة من أحيا الظلام إلى أن اشتكت قدماه الضرع من ورم

وأما ما عدا ذلك فلبس بشيء ، فهو معيب منتقد ،

فالمجد والسكرم لا يوصف أحدهما بأنه : طيب ، ولم يقل ذلك شاعر

(١) ديوانه - ١٥٨ .

(٢) صبح الأعشى - ١٤ - ٣٣١ .

(٣) خزنة الأدب للحموي - باب التفاير - ١٠٣ الخ .

ولا نائر ، وإنما يقال مثلاً : مجد أثيل ؛ وموئل ، وتليد وقديم ، ومثله الكرم إن أريد به الأصالة والشرف ، فإن أريد به السخاء والجود ، وصف بأنه : واسع وغامر وما إلى ذلك .

والجود والشيم ليس يجمعهما قران، وإنما يقرن الجود بالشجاعة، وهما خلق الفتوة العربية .

يقول مسلم بن الوليد - وهو أصل كل معنى يشبهه - :

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود
ويقول أبو تمام :

وإذا رأيت أبا يزيد في ندى ووغى ، ومبدي غارة ومعيدا
أيقنت أن من السماح شجاعة تدمى ؛ وأن من الشجاعة جودا
ويقول المتنبي :

هو الشجاع يعد البخل من جُبْن وهو الجواد يعد الجبن من بَخْل
ويقول أيضاً :

فقلت إن القى شجاعته تريه في الشح صورة الفرق^(١)
ويقول مبيار :

سَخا بهم أن السخاء شجاعة وشجعهم أن الشجاعة جود
ويقول مبيار أيضاً :

وإذا الخلال الصالحات تكاملت فهي الشجاعة وأخوها الجود
ويقول البديهي :

وإذا اختبرت علمت غير مدافع أن السماح سجية الأبطال

(١) الفرق : الفرع .

ويقول صرّدر في مدح القائم بأمر الله العباسي :

ضمير جلاء صيقل الحلم والتقى وكف جباها الله بالجود والباس
وهكذا قل أن نرى مدحا بالشجاعة إلا مقرونا بذكر الكرم ، ولا
مدحا بالكرم إلا مقرونا بذكر الشجاعة ؛ لأن الشجاعة جود ،
والجود شجاعة .

على أن الجود يندرج تحت حسن الشيم التي هي الطبايع ، فذكره
معها فضول ؛ لأنه ليس أولى من غيره كالحلم والعقل والتقى مثلا ، ولو قال:
الأحسان : البأس والكرم ؛ لا تنفى عنه اللوم .

وأنت الجواد وأنت البدر ... « البيت » : بين المصراعين بعض
تخالف ، فالبدر يمحى به الظلام ؛ ولكن الجواد لا يمحى به الظلم ؛ ولكن
يمحى به الفقر مثلا ، ولو قال : أنت الضياء وأنت العدل لبرى
من اللوم .

والسقم والألم في غاية القبح ؛ لأن السقم قد يمكن وصفه — على
ضعف — بأنه مما يؤدي ، لأنه مؤثر على كل حال ، ولكن كيف يوصف
الألم بذلك ، وهو أثر للسقم أو لغيره .

وكان يمكن أن يقول : الأقبحان : الفقر والحرم .

والأشرفان : « البيت والحرم » ، مما ينتقد عليه ؛ ماذا يريد بالحرم ؟
هل هو ما حول الكعبة ؟ أريد مكة والمدينة ، فهما يسميان الحزمين ،
وحرمة الله ؟

والمتبادر إلى الذهن : أنه يريد ما حول البيت العتيق ، وهو مع شرفه
لا يسامى البيت نفسه .

ولو أنه ذكر مع البيت المعظم ، الروضة النبوية ، التي هي روضة من

رياض الجنة كما جاء في الأثر^(١) ، أو القبر الشريف الذى هو أفضل مكان
ضم أفضل جسد^(٢) ١١ لآتى بشيء حسن مختار .

وإنك لتحس الحسن يترقق فى قول شوقي^(٣) :

والناس صنفان موتى : فى حياتهم وآخرون يبطن الأرض أحياء
تأبى المواهب ، فالأحياء بينهم لا يستوون ، ولا الأموات أكفاء
فالتوشيع فى البيت الأول ، أتى عفو الخاطر ، وفيض القريحة ،
ومساواة البديهة ، حاملا إليك حقيقة ناصعة لا يمتري فيها اثنان ، ولا
يزرى به : أن المعنى مطروق أو مسبوق ، فانتظامه فى سلك القافية ، ألقى عليه
أشعة زاهية من الجدة والطفرة ، فصار أحق به .

وقد وقع لبعض العصريين طرف من ذلك : يقول من قصيدة عنوانها
شباب العروبة^(٤) :

عهد الشباب رطيب الظل وارفه فبادرا فوته فالظل متنقل .
أيامه ولياليه منورة فيها الجمال ، وفيها البشر والأمل
مضى حديث الخيال المندر كيف مضى ماضى لو رجعت أيامنا الأول
ونحن من بعده أنضاء معركة سلاحها الأتكدان : الشيب والعلل
وقوله من قصيدة أخرى عنوانها : جنانية الأسماء : بطسّن فيها الهزل
بالجد^(٥) :

قالوا الحظوظ له عن وجهها سقرت وتوجته بتاج السبق والغلب

(١) فى الحديث : « بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » .

(٢) قال القاضى عياض : ولا خلاف : أن موضع قبر النبي - صلى الله عليه وسلم -
أفضل بقاع الأرض .

(٣) من قصيدة له فى ذكرى شكسبير الشوقيات - ٢ - ٥ .

(٤) أعرابيد السحر - ١١١ .

(٥) ألحان الأصيل - ١١٤ .

وأن جيبي كبطنى راح منتفخا يكاد ينشقّ عن دأوراقه، القشْب
وأن لى الدار كالأهرام شاحخة لهنى على أُجهر ضبّ بينهم خرب
لله آباؤهم ! ! هل نال ذوجدة مانال بالأجوفين: الشعر والخطب (١)
أستغفر الله لى بيتان ما جُهِلا بيت القريض، وبيت المجد والحسب
هذا شرود على الأيام مغرب وذا مقيم يناغى النجم عن كسب
فأنت لا تشك أن التوشيح فى هاتين المقطوعتين غير مقصود ولا
مستجلب ، وأن سياق المعنى هو الذى استدعاه ، فلي طامعاً .

فالحديث عن ربيع الشباب المونق السمرّيع الطلق النضر، أفضى إلى ذكر
الشيب والمرض ، وهما الثمرة المرة التى تقطفها كارهين فى خريف العمر
الذى يذسخ ربيعهم ، فما أحلى الشباب لو كان دائماً !!

كما أن الشيب والمرض هما الرحى الثقيلة التى تطحننا بها الأيام فى هذه
السن العالية ، من حيث لا نملك لها قوة ولا دفعا !!

والأجوفان : الشعر والخطب : ترديد لما قرّ فى أذهان الشعراء والادباء
— إن حقاً وإن باطلاً — عن « حرفة الأدب » وما تجر على أهلها من الشقوة
والحرمان فى كل عصر ومصر !!

ما فيه « لو » ولا « بيت » ، فتنقصه وإنما أدركته حرفة الأدب (٢)
وبيت القريض وبيت المجد ، لا يخفى ما يندهما من الرحم الواشجة ، والصلة
الوثيقة ، فللمجد بيت ، وللقريض بيت لا يقل عنه سناً وسناء !!

شاعر المجد خدنه شاعر اللفظ كلانا رب المعانى الدقائق
هكذا يقول المتنّبى الشاعر ، لأبى العشائر الحمدانى الماجد ، إلا أن المجد
شرف موروث ، والشعر شرف مكتسب ، والشرف كل الشرف
فى اجتماعهما .

(١) الجدة كزنة : النى

(٢) من رثاء ابن بسام لابن المعتز - وفيات الأعيان - ٢ - ٤٦٢ .

(م - ١٠ - البلاغة)

وخير الشعر أشرفه رجالا

كما يقول الفرزدق

ولعلك تستحسن معى التوشيح فى الآيات التالية ، لهذه الأسباب
التي ذكرناها .

تستحسنه فى قول الخنساء ترى أعاها صخرأ :

يا صخر وراد ماء قد تناذره أهل المياه وما فى ورده عار (١)

مشى السببى إلى هيجاء معضلة له سلاحان : أنياب وأظفار (٢)

وما عجول على بؤ تحن له لها حنينان : إعلان وإسرار (٣)

وتستحسنه فى قول عكرمة بن الشغيب يرثى ابنه شغبا :

فارقت شغبا وقد قويت من كبر لبست الخلتان : الشكلى والكبرى

وقول بعض الشعراء :

فصبرا على ذل ربيع بن مالك وكل ذليل خير عادته الصبر

تحالفكم فقر قديم وذلة وبئس الخليفان : المذلة والفقر

وقد عده العسكرى أهجى ما قالته العرب (٤)

وقول آخر :

ولا يُقيم على ضيم يُراد به إلا الأذلان : صبر الحى والوتد

هذا على الخسف مربوط برؤيته وذا يُشجع فلا يرثى له أحد

وقول شوقى :

فاجعل صبوحك فى البسكور سليلة للمنجبين : الكرم والتفاح

(١) تناذره : خوف بعضهم به بعضا .

(٢) السببى والسبندى : الجرىء ، وأصله فى النمر والأسد .

(٣) العجول : الواله التى فقدت ولدها . والبؤ : جلد الناقة ، وجلد الحوار بضم الحاء

يمشى تبنا ، ويقرب من أم الفصيل فتعطى عليه وتدر اللبن .

(٤) ديوان المعانى - ١ - ١٩٢ .

وقوله أيضاً :

وإن للجد آفات إذا جُمعت وجدتهن اثنتين : الحقد والغضب

وقول الأسمر :

تجسرى القوافي بها في كل ناحية يمدُّها الرافدان : القلبُ والكبد^(١)

وقول محمود غنيم :

تلك المبادئ - وهي شتى - جُمعت في مبدأين : الحق والإنصاف^(٢)

ويستبين مما تقدم من الأمثلة : أن الموصوف بالمجودة من هذا النوع ، لا يمكن أن يأتي إلا لِمَا قليلة ، وأن المكرر كله - بما قصد لذاته - تبدو عليه سمة التكلف واضحة ، وإن حسن حيناً لصياغته المحكمة الدقيقة .

وليك جزء قصيدة من هذا النمط لأبي عبد الله محمد بن حامد في

الصاحب ابن عباد ، تُرَبِّي عَلَى ثَلَاثِينَ يَتَا^(٣) ١١

ويكفي أن يبلغ توشيعها هذا القدر ؛ ليقال : إن ناظمها ركب

متن الشطط :

ليهنك الأهنيان : الملك والعُمُر
وطال عمر سنك المستضاء به
يفدى الورى كلهم وكافى الكفاة ، فقد
له مكارم لا تحصى محاسنها
لكيده النصر من دون الحسام وإن
ما سار موكبِهِ إِلَّا وَيُخَدِّمُهُ ..
ماساير الأسيان : الشعر والأسمر
ما عُمِّر الأبقيان : الكتب والسير
صفا به الأفضلان : العدل والنظر^(٤)
أويحسب الأكران : الرمل والشجر
تمرّد الأشجعان : الترك والخزر
في ظله الأسيان : الفتح والظفر

(١) ديوان الأسمر - ٢٧١ .

(٢) صرخة في واد - ١٦٦ .

(٣) يتيمة الدهر - ٤ - ٢٣٥ .

(٤) كافى الكفاة : لقب الصاحب بن عباد . والنظر : الحكم بين القوم .

وإن أمّس على طرس أنامله أغضى له الأبهجان : الوشى والزهر
دامت تقبلها صيد السلوك كما يُقبَل الأكرمان : الركن والحجر

ومع وصفنا لصاحب هذه القصيدة بالغلو ، فن الإنصاف ألا ننكر
عليه قدرته على اختراع ألوان جديدة من التوشيح لم يسبق إليها .

ومن الإنصاف أيضاً : أن نعترف : بأنها حوت شيات من الحسن
في المواضع التي قويت فيها الرابطة بين المثنى وتفسيره من ناحية ،
وبين الاسمين المفسرين له من ناحية أخرى كقوله : « الأسيران :
الشعر والسمر » .

و « الأبقيان : السكتب والسير » و « الأكرمان : الركن
والحجر » .

والتوشيح الأخير أفضل الجميع وأطبعها وأكثرها خطوراً بالبال ؛
للاتفاق على كرامة الركن والحجر ؛ ولاستدعاء أحدهما للآخر؛ حين يذكر
أو يمر بالذهن .

ولسكنك تشعر بالضعف والتهافت في قوله : « الأكرمان : الرمل
والشجر ؛ لأن الشجر — وإن كان كثيراً — لا يسمي الرمل في الكثرة .
وقد جرت العادة أن يقولوا : الرمل والحصى ، والنجم والحصى ، والقطر
والرمل والتراب .

وقد قال ابن أبي ربيعة :

ثم قالوا تحبها قلت بهراً عدد الرمل والحصى والتراب^(١)

(١) البهر الغلبة : أى حباً غلبى . وقال ابن الأعرابي : البهر : الحنية والفخر ، وأنشد
بيت عمر السابق . وقيل معناه : جما ، وقيل : عجباً بفتح الجيم وقال المبرد : يجوز — أن كل
ما قاله ابن الأعرابي في وجوه البهر — أن يكون معنى لما قال عمر . وأحسنها : العجب . شرح
حياجة القاموس - ١ - ٣٧٨ .

وقال المتنبي :

فأقرب من تحديدها رَدٌّ فائت وأيسر من إحصائها : الفطر والرمل
وكذلك نشعر به في : «العدل والنظر» و«الترك والخزر» و«الفتح
والظفر» .

فالنظر وإن كان في المعنى قريباً من العدل ؛ لأن معناه الحكم بين القوم
إلا أنه ليس مانوساً للعامّة ، وهو حائل اللون ، كابي الشعاع ، بجوار العدل
الوضاء المستنير ، وأقرب المعاني انجذاباً إلى العدل : كلمة الحق والإنصاف
والصدق ، وكثيراً ما يقال : حق وعدل ، وحق وصدق ، وعدل وإنصاف .
والخزر : ليس إلا جيلاً من الترك ، وإن غلبت عليهم هذه التسمية
فهو من عطف الخاص على العام .

والفتح والظفر بمعنى واحد ؛ لأن معنى الفتح : النصر .

وأغرق منه في التكلف قول تاج الدين السكندی :

دع المنجم يكبو في ضلّالته أن ادعى علم ما يجري به الفلك
تفرّد لله بالعلم القديم فلا الإنسان يشرّكه فيه ولا الملك
أعد للرزق من إشرّكه شرّكا فبئست العُدتان الشرك والشرك

فليس المنجم مشركاً وإن ضلّ وكذب ، وليس كل شرك مذموماً ، فهناك
أشراك جائزة الإستعمال في صيد السمك والجرذان وغيرها .

وهو قد يستعمل في الغزل مجازاً ، فيكون سائغاً عذباً لطيف الموضع ،
كقول الخضرى (١) :

نصبت عيناي له شركا في النوم فعزّ تصنيده

(١) مقدمة زهر الآداب - ١ - ٦ وانظر معارضات الشعراء للخضرى جمع الأستاذ
عبي الدين رضا .

وقال شوقي :

كَمْ بَدَأَ لَطِيفُكَ مِنْ شَرِكٍ وَتَأَدَّبَ لِأَيْتِصِيهِ
وَقَدْ اتَّقَى الْمَرْحُومُ الدُّكْتُورُ زَكِي مَبَارَكُ قَوْلَ مَعِينِ الدِّينِ بِرِ الْخَطِيبِ :
أَشْكُو إِلَى اللَّهِ مِنْ نَارَيْنِ : وَوَاحِدَةٍ فِي وَجْنَتَيْهِ ، وَأُخْرَى مِنْهُ فِي كَبْدِي
وَمِنْ سَقَامَيْنِ : سَقَمٌ قَدْ أَحْلَى دَمِي مِنْ الْجَفْوَنِ أَوْ سَقَمٌ حَلَّ فِي جَسَدِي
وَمِنْ نَمُومَيْنِ : دَمَعِي حِينَ أَذْكَرُهُ يُذْبَعُ سِرِّي ، وَوَأَشْ مِنْهُ بِالرَّصَدِ
وَمِنْ ضَعِيفَيْنِ : صَبْرِي حِينَ يَهْجُرُنِي وَوَدَهُ ، وَيَرَاهُ النَّاسُ طَوْعَ بَدِي
فَقَالَ فِي الْبَيْتَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ :

وهذا شعر منتقد ، فإنه إذا صح أن يشكو المحب إلى الله سقمه ووجده
أهلاً في الراحة من بلاء الحب ، فما الذي يريد بشكوى السقم في جفن محبوبه
والنار في خديه .

ثم قال : وقد أجاد أو قارب في البيتين الأخيرين ، فإنه لا بأس من
شكوى الواشي ، والود الضعيف .

ونختم نقده بقوله : والشعر ضعيف البنية ، مهلهل النسيج ، خال من
لوعة المحب الصادق ، لهذا لا يلوح عليه صدق الأداء (١) .

ولسنا مع المرحوم الدكتور في كل ما قال ، فشكوى المحب من سقم
جفون حبيبه ، ومن نار خده : أمر متعارف ، فسقم الجفون - من غير
سقم -- : يضني عليه سقماً حقيقياً ، كما يقول المتنبي :

بَرَحْتَ يَا مَرَضَ الْجَفْوَنِ بِمُـرَّضٍ مَرِيضِ الطَّيِّبِ لَهُ وَعِيدُ الْعَوْدِ (٢)

ونار الخدود : تشب النار في الجوانح ، وتطوح بالقلوب والعقول كما
يقول المتنبي أيضاً :

(١) مداوم العشاق - ٤٠

(٢) المدرس : يريد نفسه . والمعنى : أن فتور هذه الجفون ، أناخ عليه بالمرض ، حتى
مرض طيبه وعوده إشفاقاً عليه .

المنهيات عقولنا وقلوبنا وجناتهن الناهيات الناهيات^(١)

ويقول الصنوبري^(٢)

لا النوم أدرى به ولا الأرق يدري بهذين من به رفق
إن دموعى من طول ما استبقت كلت فما تستطيع تسبق
ولى عليك لم تبد صورته مذكان الا وصلت له الحدق
نويت تقبيل نار وجنته وخفت أدنو منها فأحترق
ومن هنا يظهر لنا : أن التوشيح يقوم على أسس وطيدة من جوامع
تداعى المعانى .

فالأيضان : الماء واللبن ، والأصفران : الذهب والزعفران ، أو الخمر
واللحم ؛ تدخل فى جامع التشابه ، لوجود التماثل بين صورتى كل منهما فى العقل ،
بحيث تستدعى حضور إحداهما فى الذهن حضور الأخرى .

ودجلة والفرات ، والقلب والكبد ، والركن والحجر ، تجمعهما
رابطة المكان .

والشيب والمرض ، والأكل والنكاح ، والغداة والعشى ، « السحران »
والليل والنهار « الجديدان » تجمعهما رابطة الزمان .

والبحر والمطر ، والشوق والسهر ، والفاتنان ، الجمال والدلال ، تجمع
بينهما رابطة السبب بالمسبب ، ولهذا نسمع الشاعر يقول فى الأول :

كالبحر يطره السحاب وما له فضل عليه لأنه من مائه

والفرزدق يقول فى الثانى :

يقولون طال الليل - والليل لم يطل - ولكن من يبكى من الشوق يسهر

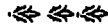
(١) يريد : المنهيات وجناتهن عقولنا وقلوبنا ، فوجنات : مفعول أول ، وعقول : مفعول ثانى ؛ أى هؤلاء الحسان اللاتى جعان عقولنا وقلوبنا ؛ نهبنا لخدودهن والناهيات : امت للوجنات ، أى الموصوفة بأنها تنهب الناهيات ؛ وهو الرجل الشجاع .

ويقول عبد المطلب في الثالث^(١) :

على النيل من سيف الجزير جُوذِر هفاتها، والحسنُ بالتيه يأمر^(٢)
وهذه الروابط الثلاث تدخل في جامع الاقتران في الذهن ، ويقصد
بها هنا : وجود المعنيين في العقل في آن واحد ، أو لحاق أحدهما الآخر
على الفور فيه^(٣) .

وقد تجتمع عدة روابط في توشيع واحد، فالسما كان : الراحح والأعزل
يجمعهما التشابه ، فكلاهما نجم منير ، ويجمعهما التباين ، فمذاذورح ، وذاك
أعزل ، ثم بينهما رابطة الزمان والمكان ، فهما يطلعان ليلا في
صفحة السماء .

وعلى ذلك يمكن أن نقول : إن التوشيع ترتفع قيمته ، ويرداد حسنه
بقدر ما فيه من قوة الترابط أو قوة التشابه .



(١) النجوم الزاهرة - ٣ - ٢٢٨

(٢) ديوان عبد المطلب - ١١٠ .

(٣) السيف بكسر السين : الساحل .

(٤) انظر ما كتب عن تداهي المعاني في كتاب علم النفس للأستاذين : الجارم ومصطفى

الفصل السادس

الاطراد

الاطراد في اللغة باشديد الطاء : مصدر اطراد الامر والماء والنهر : تبع بعضه بعضا ، وجرى من غير توقف .

وعند البلغاء : أن يأتي الشاعر باسم الممدوح أو غيره ، وأسماء آباؤه على ترتيب الولادة في بيت واحد من غير تكلف (١) .

وعند ابن أبي الإصبع : أن يطرده للمتكلم أسماء لأبائه ممدوحه ، منسوب بعضها إلى بعض ، مرتبة على حكم ترتيبها في الميلاد (٢) .

وغالى صفى الدين الحلبي في شرح « بديعته » (٣) ، فاشتراط على الشاعر أن يأتي باسم الممدوح ولقبه وكنيته ، وصفته اللائقة به ، واسم من أممكته من أبيه وجدته وقبيلته ، ليزداد الممدوح تعريفاً .

ولا بد من ذلك عنده أن يقع في بيت واحد ، مع الخلو من التكلف والتعسف ، والفصل بالفاظ أجنبية عنه .

وأورد على ذلك قول بعضهم (٤) :

مؤيد الدين أبو جعفر محمد بن العلقمي الوزير
قال ابن طباطبا العلوي : وهذا بيت حسن ، جمع فيه بين لقبه ، وكنيته ،
واسمه ، واسم أبيه ، وصنعتة (٥) .

(١) معاهد التصحيح - ٢ - ٦٧ .

(٢) بديع القرآن - ١٠٩ .

(٣) خزائن الأدب للحموي - ٢٠٠ .

(٤) هوكمال الدين بن البوق يمدح مؤيد الدين العلقمي ، من قصيدة .

(٥) الفخرى - ٢٩٩ .

ويقول النويرى في تعريفه : هو أن يطرد الشاعر أسماء متتالية ، يزيد الممدوح بها تعريفاً ، لأنها لا تكون إلا أسماء آبائه ، تأنى منسوقة غير منقطعة ، من غير ظهور كلفة على النظم ، كاطراد الماء وانسجامه (١) .

ومع أن خلو الكلام من التكاثر دعامة أساسية في استحقاقه صفة البلاغة ، إلا أن النص عليه هنا واجب حتم ، حتى يتم التطابق بين الاسم والمسمى ، لأن الاطراد يفيد السهولة والسلاسة والجريان والتدفق والتتابع والولاء ، فيجب إذن أن يكون الكلام موسوماً بهذه السمات ، ليستأهل أن يقال فيه : إنه مطرد إطراد الماء في تدفقه وإنسيابه .

فتى وقع بناء البيت متعاطلاً معقداً ، أو جانبته السهولة والدمائة ، أو شابه النكاث والاستكراه ، خرج عن نطاق الاطراد ، وأصبح عاطلاً من هذه الحلية .

ومن شواهد الشعرية القديمة : قول دريد بن الصمعة — يرئى أخاه
عبد الله — :

قتلنا بعبد الله خير لداته ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قارب (٢)
وقد روى : أن سبرة بن عياض الجشمى أنشد عبد الملك بن مروان
قصيدة دريد التي منها هذا البيت .

فلما وصل إليه ، قال كلمة معجب : لولا القافية لبلغ به آدم (٣) ، أوقال :
كاد يبلغ به آدم (٤) .

والحق : أن هذا البيت من فرائد هذا النوع ، وأن من حقه علينا أن
نطرب له ، وإن كان المقام مقام رثاء .

(١) نهاية الأرب - ٧ - ١٥٥ .

(٢) في رواية : أبانا بعبد الله خير لداته . . . أى أخذنا بثأره .

(٣) الممدوح - ٢ - ٦٧ .

(٤) معاهد التنصيص - ٢ - ٦٧ .

(٥) وقيل قائله : داود بن ربيعة الأسدي . معاهد التنصيص - ٢ - ٦٧ وفي إعجاز

القرآن للباقلاني - ١٦٧ : أنه لأبى دؤاد الأسدي :

فقد كان الشاعر الرائي موقفا إلى أبعدمدى ، حين أتى بأربعة أسماء في شطر بيت على هذا النسق العجيب البالغ الإحكام ، دون أن نلمح أى ضميم شاب بنيته ، ولا سيبا إذا أحضرنا في أذهاننا : أن هذا الشاعر كان يرثى أخاه الأثير لديه ، الكريم عليه ؛ فله من حزنه الممض ، وجواه الشاعر ، ولهفته العميقة ، ما يشغله عن مراعاة التعبير والتنميق ، هذا إلى أنه شاعر جاهلي يجرى على عرق أصيل من الطبيعة السمحة المواتية ، البعيدة عن نوازع التصنع ، فلا يمكن أن يقال في مثله وفي موقفه : إنه كانت تعنيه الزينة وتستويه الحلية ، فلم يبق إلا أن يقال في البيت : إنه نغمة من نفحات الإلهام .

ومثله قول ربيعة بن قَعَيْن يرثى ذؤابا ابنه :

إن يقتلوك فقد ثلثت عروشهم بمُستببة بن الحارث بن شهاب (١)
بأحبهم فقدنا إلى أعدائه وأشدهم فقدنا على الأحياب

والشاهد في البيت الأول .

ويقول الباقلاني : قد بنى قافيته على « الباء » لاجل ذلك الاسم ، فتم له ما أراد في رفق ويسر (٢) .

وقول الأعشى :

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد وأنت أمرؤ ترجو شبابك وائل (٣)

وقد قال فيه ابن رشيق : ومن حسن الصنعة : أن تطرد الأسماء من غير كلفة ، ولا حشو فارغ فإنها — إذا اطردت — دلت على قوة الشاعر ، وقلة كلفته ، ومبالاته بالشعر ، وذلك نحو القول المتقدم .

(١) ائلل : الهدم ، وئلل الله عرشهم : هدم ملكهم ، ويقال : لققوم — ذهب عزم

والخئل حالهم — ئلل عرشهم .

(٢) إعجاز القرآن — ١٦٧ .

(٣) في بعض الروايات : ترجو بقاءك ، وائل ، وفي بعضها : بقاءك بكسر الميم ،

وهو المطاء .

ثم يقول فيه : فأتى كالماء اطرادا وقله كلفة ، ويبيِّن النسب حتى أخرجه
عن مواضع الشبه (١) :

وقال أبو تمام في قالب بيت الأعرابي - وإن نقص عنه اسما واحدا - :

بنصر بن منصور بن بسّام انفرى لناشظف الأيام عن عيشة رغد (٢)

وقول الحارث بن ذؤوس الإيادي :

وشباب حسن أوجهم من إياد بن نزار بن معد
فأطرد ثلاثة أسماء لا كلفة فيها .

وقول ابن معايا الشاعر - يمدح لإدريس بن حمود ملك
الأندلس (٣) - :

وكان الشمس لما أشرقت فأنثت منها عيون الناظرين
وجه إدريس بن يحيى بن عليّ بن حمود أمير المؤمنين

وقول المتنبي :

يا غصن الدولة من ركنها

أبوه والقلب أبو له

يمدح غصن الدولة بتفضيله على أبيه ركن الدولة ويضرب لهما مثلا
بالقاب واللب ؛ فالقلب مصدر اللب ولكن اللب هو الأفضل .

(١) العمدة ٢ - ٦٦ - ٦٧ .

(٢) انفرى بوزن اشترى : انكشف .

(٣) كان إدريس في حال الإنشاد وراء الحجاب على عادة خلفائهم في ذلك ، فلما بلغ
الشاعر إلى قوله :

انظرونا نقتبس من نوركم
أمر برفع الحجاب حتى نظر إليه .
لأنه من نور رب العالمين

وقول شرف الدين بن راجح الحلبي من قصيدة - يمدح بها السلطان
الكامل الأيوبي - وكان في حضرته وفد من الصليبيين - :
أُعْبَادَ عَيْسَى ؛ إِنْ عَيْسَى وَحِزْبِهِ وَمُوسَى جَمِيعًا يَخْدُمُونَ مُحَمَّدًا
يريد بعيسى الثاني : الملك عيسى المعظم الأيوبي ، وبموسى : الملك موسى
الأشرف الأيوبي ، وهما أخوا السلطان الكامل .

ويقول الشيخ شهاب الدين أبو شامة : بلغني وقت الإنشاد : أنه أشار
عند قوله : « عيسى » إلى الملك المعظم ، وعند قوله : « موسى » إلى الملك
الأشرف ، وعند قوله : « محمد » إلى السلطان الكامل .
وهذا من أحسن الاتفاق (١) .

ولا مريبة في أن البيت حسن : فهو محكم النسيج ، قوى
الرصيف ، جميل النغمة ، والأسماء فيه لم تذكر عبثا ، ولم تأت فضلة ،
بل يقتضيها المقام .

وزاد في رونقه : هذه التورية البديعة الواقعة موقعها في ثلاثة أسماء من
أشهر أسماء الرسل الكرام : موسى وعيسى ومحمد .
وقول الشطر نجى الأوازى في مدح الصاحب بن عباد من قصيدة :
إلى ابن عبادِ أبي القاسم الصاحب إسماعيل كافي الكفاة
ويقول الصاحب في ذلك : كنت والله أشتى أن يجتمع كنيتي واسمى
ولقبى ، واسم أبي في بيت (٢) .

(١) مطالع البدور - ١ - ٢٧٧ .

(٢) معجم الأدباء - ٦ - ٢٥٣ - ٢٥٤ .

ولا شك أن الشاعر وفق في ذلك كل التوفيق ، وحقق له هذه الأمنية
العزيزة .

وقول أبي القاسم الأليمانى — يمدح ابن عيسى الدامغانى من قصيدة — :
إلى الشيخ الجليل أبى على محمد بن عيسى الدامغانى
وقد ذكر الثعالبى^(١) : أنه لم يذكر : أن أحداً من الصدور وسع دطامه ،
وتريبته ، وكنديته ، واسمه ، واسم أبيه ، وبلده ، بيت واحد سواه .
وعندى أنه يكدر صفوه ، تنوين محمد لضرورة الشعر ، وهى ضرورة
قبيحة .

ومما جاء معيباً قول أبى تمام — يمدح عبد الملك بن صالح العباسى — :
عبد المليك بن صالح بن على قسيم النبى فى نسبه
فهذا سهل العنان ، خفيف اللسان — كما يقول ابن رشيق — إلا أن
الياء فى المليك جاءت ضرورة وتكلفاً .
وقول أمية فى القاضى منصور بن محمد الأزدي :
قالت تفتش عن أولى المجد من فى الأنام لطالب الرقاد؟
فأجبت قاضينا وسيدنا منصور بن محمد الأزدي
وقد جاء فيه بالتنوين ضرورة .
وقول بعض المتأخرين فى ابن أبى الإصبع^(٣) :

(١) ، بقيمة الدهر ٤ — ١٣٤ .

(٢) العمدة ٢ — ٦٧ .

(٣) خزائن الأدب الجوى — ٢٠٠ .

عبدالعظيم الزكي ابن أبي الإصبع رب القريض والخطب
وقد اشتمل على اسم الممدوح ، واسم أبيه ، والصفة اللائقة به ، ولكن
عابه بقطع همزة الوصل .
.. وقول بمضموم :

من يكن رام حاجة بعدت عنه . وأعيت عليه كل العياء
فلما أحد المرجى بن يحيى بن معاذ بن مسلم بن رجاء (١)
وفيه يقول ابن رشيق : لجاء كلامه نسقا واحدا ، إلا أنه قد شغل
البيت ، وفصل بين الكلام بقوله : « المرجى » غير أن مجانسة رجاء ،
هونت من خطيئته ، وغفرت ذنبه .

ويقول ابن أبي الإصبع : لقد أرى هذا الشاعر في هذا النوع على من
تقدمه ، ولو سلم بيته من الفصل بلفظة « المرجى » ، لكان غاية لا تدرك ،
وعقيلة لا تملك ا .

وإذن عيب البيت هنا في نظر الناقدین : أنه خولف فيه شروط الاطراد
وهو الفصل بأجنبي بين اسم الممدوح واسم أبيه ، فهو عيب من حيث الصنعة
التي بينوا قواعدها ، واشترطوا المحافظة عليها ، وإلا فهو من جهة الصياغة
والفن البلاغى لا عيب فيه .

وقال أبو تمام يمدح مالك بن طوق التغلبي :

عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتمة ب بن سهم . سهمكم لا يسهم (٢)
نحاطب بذلك عمرو بن غنم . التغلبيين — وهم بنو عم مالك بن طوق —
فانتظم له ما أراد من الأسماء إلا أنه ظاهر التكلف غير مطرد .

(١) هذه رواية الجوى ، ورواية ابن رشيق : سلم بن رجاء .

(٢) لا يسهم : لا يغلب .

ويرى النويرى : أن اطراد الأسماء فى عجز البيت أحسن من اطرادها فى صدره ؛ وهو لذلك يفضل بيت دزید بن الصمة المتقدم :

قتلنا بعهد الله خير لداته ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قارب
على بيت الأعمشى :

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد وأنت الذى ترجو حياك وائل
وقد يطول هذا النوع حتى يمل ويصير ممجوجاً ، كقول ابن دريد -
وقد جمع ثمانية أسماء فى بيت واحد - :

فنعم أخو الجلى ومُسْتَسْبَطِ الندى
وملجأ محزون ، ومفزع لاهث

عياد بن عمرو بن الحلييس بن عامر بن
زيد بن مذكور بن سعد بن حارث

وفيه يقول شهاب الدين العلوى الحضرمى : وهذا لا تكون الإجادة فيه إلا مقرونة بتوفيق^(١).

والحق : أن التكلف فى هذا ظاهر ، والبيت ثقيل ، ولا يزيد فى قيمته على نظم الضوابط ، ومصطلحات العلوم .

والتوفيق قد جانب صاحبه بالرغم من هذا الاتفاق - على خلاف ما يرى ابن شهاب - لأن التوفيق لا يمكن أن يصاحب بيتاً يجمع بين ثمانية أسماء متلاصقة ، وإن وجد توفيق - على زعمه - فهو القدرة على رصف هذه الأعلام الكثيرة فى سلك واحد ؛ وليس فى مثل هذا عبقة من الهبة ، ولا ومضة من الوحي !

(١) إقامة الحجبة على التقى بن حجة - ٢٨ - العمدة - ٦٧ .

وكقول أبي تمام :

مَناسِبٌ تُحَسَّبُ مِنْ ضَوْئِهَا مَنَازِلًا لِلْقَمَرِ الطَّالِعِ^(١)
كَالدُّلُوِّ وَالْحَوْتِ وَأَشْرَاطِهِ وَالْبَطْنِ وَالنَّجْمِ إِلَى التَّالِعِ^(٢)
نُوحِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَوِيٍّ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَوِيٍّ ابْنِ الْفَتَى مَانِعٍ
فَأَحْكَمِ التَّصْنِيعِ وَقَابِلِ سِتَّةِ بَسْتَةٍ ، لَوْلَا أَنَّهُ نَغَّصَ بِذِكْرِ الْفَتَى فِي سَادِسِ
جَدِّ ، فَإِنَّهُ بَارِدٌ ، وَرَكِيكٌ ، إِذْ قَدِ يَوْمٌ أَنْ أَبَاهُ وُلَّاهُ كَلِمَهُمْ : قَتَى : أَي صَغِيرِ السِّنِّ
وَإِنْ كُنَّا نَعْلَمُ : أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ فِتَاءَ السِّنِّ ، وَلَكِنَّ الْفِتْوَةَ^(٣) .

وقول السَّراج الوراق :

فَلَهُ الْجِبَالُ غَدَاً بِغَيْرِ مُنَازَعٍ وَوَلَى الْجَبَلُ فِيهِ بِغَيْرِ قَسِيمٍ .
وَكَذَا الْعَلَا مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سَلِيمٍ
وَفِيهِ عَلَى طَوْلِهِ : عَيْبٌ آخَرٌ وَهُوَ تَنْوِينُ «عَلِيٍّ» .

وبما حسن مع طوله : قول الخارث الدؤلي - يمدح عاصم بن عمرو بن
عثمان بن عفان - فذكر نسبه كاملاً^(٤) .

إليك ابن عثمان بن عفان عاصم بن عمرو سرت عيس فطال سراها
فالبيت قد حوى أربعة أسماء ، ولكنه لم يذكرها متتابعة ، بل قال :
عثمان بن عفان ، ثم قال : عاصم بن عمرو ، تخف وقعها على السمع .

وقد خلا من الضرورات التي تقع في مثله ، وهو - إلى ذلك - لا يخلو
من نفحة الطبع ، وفيه إيقاع وتنغيم لا يخفى ، وقد أتى فيه ناظمه على حاجته

(١) في معاهد التنصيص : تحسب من سردها . والمناسب : الأنساب .

(٢) الدلو والحوت : برجان في السماء . والأشراط : من منازل القمر . والبطن : يريد
بطن الحمل بفتح الحاء ، وهو من منازل القمر أيضاً ، ويسمى : البطن بالتصغير ، والنجم : الثريا
وهو من المنازل . والتالع : الدبران بفتح الدال والباء : كوكب أحر من المنازل . كأنه تلغ
جيبه : أي مده .

(٣) الممددة - ٢ - ٦٧ - ٦٨ - معاهد التنصيص - ٦٧ .

(٤) معجم الأدباء - ٦ - ٢٥٤ .

من ذكر المطايا ، وطول سراها إلى الممدوح ، فبلغ غايته من الاستمناح مع التعفف والتصون عن المسألة ، والقصد في الكلام .

ويلاحظ أن كثيراً من أمثلة هذا النوع ، اختيرت فيها القوافي الموافقة للأسماء ابتداءً ، وبخاصة في الأبيات المفردة والمقطّعات :

وذلك كقول ابن أبي الإصبع :

أجلُّ ملائِك إلى العلياء منسوبٍ محمد بن أبي بكر بن أيوب
وقول يعقوب بن أحمد النيسابوري في أبي القاسم علي بن موسى الموسوي :
يقول صديقي : ألا دُلِّي على برمك الجود ، أو حاتم
فقلت - وأقسمت - ربُّ العلا عليُّ بن موسى أبو القاسم
وقول البانحرزي من قصيدة - - يمدح بها أبا الحسن محمد بن الحسين
ابن طلحة - :

أبو الحسن السيد الأريحي محمد بن الحسين بن طلحة
والقصد إلى القافية هنا واضح لأنها ثقيلة وعسيرة ، ولكنه ركب متن
التعسف في ذلك ، لأجل اسم الممدوح .
وقد يفرض الاسم نفسه فرضاً على القافية ، كقول شاعر في الحكيم بن
المنذر بن الجارود (١) :

يا حكم بن المنذر بن الجارودٍ مرادق العز عليك ممدود
فيأتي سهواً رهواً ، خفيفاً لطيفاً ، متعيناً في مكانه ، وهل كان في إمكان
الشاعر أن يصنع غير ما صنع مادام يريد أن يدعو ممدوحه ١٩ ؟

وكقول مطران (٢) في رثاء المغفور له : الأستاذ عبد القادر حمزة :

(١) بدائع البدائنه - ٢ - ٦٨ .

(٢) ديوانه - ٤ - ٢٨٧ .

واع السكتانة رزء عبدالقادر وجرى القضاء بأى حكم قاهر
وقال العقاد فيه أيضاً (١) :

جلّ المضاب بفقد عبدالقادر وبع البيان على المبين الساحر
فقد توافى الشاعران الكبيران على هذا المطلع المحزون مصادفة مع اختلاف
يسير ، مع أنهما من غير شك قصدا إلى المعنى بالاسم ، وبنيا القافية عليه ،
فكان بناء مطبوعاً .

وقد تضبط القافية خبط عشواء كلمنا يافى رأى زهير بن أبى سلمى ، فتصبب
الاسم مصادفة ، فلا يعدم حظه من الحسن والجمال ، شأن كثير مما يقع
لنا اتفاقاً .

وذلك كقول إسحاق الموصلى فى وصف الخمر :

وصافية تغشى العيون رقيقة سليلة عام فى الدنان وعام (٢)
أدرنا بها الكأس الروية بيننا من الراح حتى انزاح كل ظلام (٣)
فما بان قرن الشمس حتى كأننا من العسى نحكى د أحمد بن هشام (٤)

فقال له ابن هشام : لم هجوتنى مع الضدافة بيننا ؟

فقال : لأنك قعدت على طريق القافية (٥)

ولحق أنه ليس يعاب على الشاعر ، أن يختار قافية معينة لغرض يريد

(١) ديوان أعاصير مغرب ١٢٦ .

(٢) سليلة عام : بنت عام .

(٣) فى بعض الروايات : موهنا بدلا من بيننا . والمومن : نحو نصف الليل . وكذلك
ورد : انجاب بدل انراح .

(٤) فى رواية : ذر قرن الشمس : أى طلع ، وقرن الشمس : ناحيتها ، أو أعلاها ، أو

أول شعاعها .

(٥) ثمار القلوب - ٥٢٩ .

أن يسلكه في نظمه : من سوق خبر ، أو ذكر عدد أو اسم ، أو إشارة إلى حادث أو .

فهذا بما يدخل في مقاصد الشعراء ، وهو من باب التلاؤم بين الأسلوب والغرض .

ولكن ينبغي - كما يقول العسكري - أن تأخذ في طريق تسهل عليك حكايته فيها ، وتركب قافية تطيعك في استيفائك له ، كما فعل النابغة في قوله (١) .

واحكم حكيم فتاة الحى إذ نظرت إلى حمام سراع وورد التمد (٢)
قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا أو نصفه فقد (٣)
فكملت مائة فيها حمامتها وأسرت حسنة في ذلك العدد
فحسبوه فالفوه كما حسبت تسعا وتسعين لم تنقص ولم تزد
فهذا أجد ما يذكر في الباب ، وأصعب مارامه شاعر ، لأنه عمد إلى حساب دقيق ، فأورده مشروحاً ملخصاً ، وحكاة حكاية صادقة ، ولما احتاج إلى أن يذكر العدد والزيادة والتمد ، بنى الكلام على قافية فاصلة « الدال » فسهل عليه طريقه ، واطرد سبيله .

ومثل ذلك ما أتاه البحترى في القصيدة التي أولها (٤) :

هاج الخيال لنا ذكرى إذا طافا وافي يخادعنا والصبح قد وافي

(١) الصناعن - ١٤١ - ١٤٢ - شعراء النصرانية - ٢ - ٦١٥ .

(٢) في الحيوان للجاحظ - ٣ - ٦٧ « ساسى » شراع بالشين ؛ وشراع بكسر الشين : جمع شرع كعنب ، وشرع : جمع شرع بفتح الشين والراء ، وشرع بكسر الشين وفتحها مع إسكان الراء ، وهو مثل الشيء . أى حمام سواء ومتماثل ، وفتاة الحى : زرقاء اليمامة المشهورة . والتمد يسكون الميم ويحرك : وكتاب : الماء القليل لامادة له ، أو ما يظهر في الشتاء ويذهب مع الصيف .

(٣) أو نصفه : أى بمعنى الواو أى ونصفه ، لا بمعنى الشك .

(٤) يمدح بها الطائي . وأولها في ديوانه :

يهدى الخيال لنا ذكرى إذا طافا .

وكان قد احتاج إلى ذكرى الآلاف ، والإسعاف ، والأضعاف ،
والإسراف والآنصاف ، فجعل القصيدة «فائية» فاستوى له مراده ، وقرب
عليه مرامه في قوله :

قضيتَ عني بن بسطام صنيعته عندي ، وضاعفت ما أولاه أضعافا
وَدانَ معروفه قَصِداً إلىَّ ، وما جازيته عنه تذييراً وإسرافاً
مَثونَ عَيْشِنَا تَوْلَسَّيتُ الثوابِ بها حتى اثنتُ لأبي العباس آلافاً (١)
قَد كان يكفيه بما قدمت يده رَبّاً يزيد على الأحاد أنصافاً

وكما يحدث ذلك قصداً قد يحدث عفواً ، كقول «شوقي» من قصيدة
يرثي بها الشهيد «عمر المختار» البطل الليبي :

إفريقيا مهدّ الأسود ولحدها ضجّت عليك أراجلا ونساء
والجاهلية من وراء قبورهم يبكون «زيد الخيل» ، «والفلاحاء» (٢)

فالفلاحاء هو : عنتره بن شداد العبسي ، ومجيء الكلمة هنا من عمل
الإلهام وحده ؛ لأن «شوقي» لم يقصد بناء القافية على الهجزة من أجلها ،
ولكن لم يكن له بد من أن يختم البيت باسم مهموز على وزن «فعلاء»
وأن يكون مسماه فارساً جاهلياً مشهوراً ، ليتم البيت بعامة — وهو في
مقام التحدث عن الفروسية — وليلائم «زيد الخيل» بخاصة — وهو أحد
الفرسان الأنجاد — فاستوى له غرضه بكلمة «الفلاحاء» على أفضل
وجه وأتمه .

وقد وقع مثل ذلك لشاعر عصرى في قصيدة له ، عنوانها : «معاهدة
غير ذات موضوع» (٣) .

(١) العين بفتح العين : النقد ، وما ضرب من الدنانير وما لم يضرب .

(٢) زيد الخيل : فارس مشهور ، وقد سماه الرسول الكريم : زيد الخير . والفلاحاء
كفلياء : عنتره الفوارس ؛ قيل له ذلك لفلحة كانت به ، وإنما ذهبوا إلى تأنيث الشفة ، والأفلاج :
مشقوق الشفة السفلى ، والأعلم : مشقوق العليا . وليات الأعيان - ٢ - ٢٤٦ .

(٣) أغاريد السحر - ١٧٠ .

فقد بناها على حرف الراء من غير قصد، ثم إنساق فيها إلى ذم المعاهدة المصرية، التي عقدت في بعض العهود السابقة للملكية، فقال:

قالوا معاهدة فقلت سلاسل يلبس بجملو رينها المسارر
حذرت قومي السم في أضعافها لو كان ينفع قومي التحذير
ثم إذا هو يقول:

قد رُمّتاح لم يُلقَ دَجْدِيمَةٌ، فيه الصواب ولا أُطبع «قصير»^(١)

فأتى باسمين تاريخيين مناسبين للغرض، وأوقع أحدهما قافية بدون تكلف.

على أنه يجب أن يلاحظ أن يكون الاسم رشيق البنية، حلو الجرس، يوحى إلى سامعه بمعاني الجمال أو الجلال.

وكثير من الأسماء يشمل هذه المزية.

وقد ذكروا: أنه لا يستحسن ذكر أسماء النساء في الغزل إلا ما كان خفيفاً على اللسان؛ كأميمة وسعاد.

وقد عابوا على الأخطل تغزله «بقذور» لما فيها من الثقل في المنطق، مع أن معنى قذور: المنتحبة عن الرجال، والمتزهة عن الأقدار.

وعيب على البحترى قوله:

إن للبين منة لا تؤدّي ويدا في ثماضر بيضاء^(٢)

كما عابوا على جرير قوله:

وتقول «بوزع» قد دببت على العصا

هلا همزت بغيرنا يا بوزع

(١) يشير إلى قصة الزباء وجذبة الأبرش المشهورة.

(٢) الحق أن ثماضر ليس بثقيل، وقد سميت به بعض الفتيات في عصرنا.

وذكروا أن الوليد بن عبد الملك قال له : أفسدت شعرك ببوزع (١) .
ويقول ابن رشيق : وأما قول السيد الحميري :

ولقد تكون بها أوانس كالدمى هند وعبدة والرباب وبوزع

فإنه ثقيل من أجل بوزع ، وقد أنكر هذه اللفظة عند الملك على
جرير ، فما ظنك بالسيد الحميري (٢) .

وتقع الأسماء الجميلة العذبة للشعراء كثيراً ، في عصور الحضارة : لوفرة
هذه الأسماء وانفساح الاختيار فيها .

وذلك أنه في عصور الحضارة رقت الأسماء — كما يقول ابن حزم —
ووجد أمثال هذه الأسماء اللينة الحلوة كصبيح ، وغزلان ، ودعجاء ،
وطروب (٣) .

كما وجد أمثال الذلفاء والرباب ولبس ، وحسن الورد (٤) .

وعضراً يعج بأمثال هذه الأسماء الرقيقة الوديعية ، كآمال ونوال ومهجة
وزيناس ، وكوثر ، وإحسان ، وسلوى ، ومها ، ونجلاء ، وسها ، ولواحظ
وغصن البان ، وتغريد إلخ . .

والشعراء — كما يقول ابن رشيق (٥) — أسماء تخنف على ألسنتهم ،
وتخلو في أفواههم ، كثيراً ما يأتون بها زورا : نحو ليلى ، وهند ، وسلوى
ودعد ، ولبني ، وعفراء ، وأروى ، وربي ، وفاطمة ، ومية ، وعلوة ،
وعائشة ، والرباب ، وجمل ، وزينب ، ونعم ، وأشباههن .

(١) سر المصاحبة - ٦٤ وبوزع كجوهر .

(٢) العمدة - ٢ - ٩٨ .

(٣) مقدمة طوق الحمامة - ق

(٤) الذخيرة - ١ - ١٠٤ - ١٢٣ - ٢ - ٣٦٥ .

(٥) العمدة - ٢ - ٩٨ .

ولذلك قال مالك بن زغبة الباهلي - أنشده الأصمعي - :
وما كان طيباً حُثِّبها غير أنه يقام بسلي للقوافي صدورها (١)
وأما «عزة» و«بثينة»، فقد حاهما «كثير»، و«جميل» حتى كأنما
حرما على الشعراء .

وربما أتى الشعراء بالأسماء الكثيرة في القصيدة ، إقامة للوزن وتحلية
للنسيب كما قال جرير :

أَجْدَدَ رِوَاحُ الْقَوْمِ بِلَاتِ رِوَاحٍ نَعَمُ كُلِّ مَنْ يُعْنَى «بُجَيْلٍ» مُسَبَّرِحٍ (٢)
ثم يقول بعد بيت :

إذا سائرت أسماءً يوماً ظمينةً فأسماء من تلك الظمينة أملح (٣)
وكلما كانت اللفظة أحلى ، كان ذكرها في الشعر أشهر ، اللهم إلا أن
يكون الشاعر لم يزور الاسم ، وإنما قصد الحقيقة لإقامة الوزن ، فحينئذ
لاملاحة عليه ، ما لم يجد في السكينة مندوحة .

وقد كشف الجاحظ عن سر دقيق في حب العرب لتسكينه البنات
فقال : (٤) وربما كان اسم الجارية غُلَيْبِيَّةً وَصَبَبِيَّةً وما أشبه ذلك ، فإذا
صارت كهلة جزلة ، وعجوزا شهلة (٥) ، وحملت اللحم ، وتراكب عليها
الشحم ، وصار بنوها رجالاً ، وبناتها نساءً ، فما أقبح حينئذ أن يقال لها : يا غليم ،
كيف أصبحت ؟ ويا صبية ، كيف أمسيت ؟

ثم يقول : ولأمر ما ، كنت العرب البنات ، فقالوا : فعلت أم
الفضل وقالت : أم عمرو ، وذهبت أم نعم ، حتى دعاهم ذلك إلى التقدم (٦)
في تلك السكينة .

(١) طيبى بكسر الطاء : هادق وشأن وشهوتي .

(٢) المبرح بتشديد الراء المفتوحة : من اشتد عليه الأذى .

(٣) الظمينة : في الأصل : المرأة ما دامت في الهودج ، ثم أطلق عليها مطلقاً .

(٤) البيان والتبيين - ١ - ١٣٤ .

(٥) الشهلة : المعجوز ، والنصف المائلة ، خاس بالنساء .

(٦) التقدم : الإكثار .

وعلى كل لا يعاب على الشاعر أن يذكر الاسم - مادام ذلك صحيحا - وإنما يكره الثقل في الأسماء المستعارة^(١).

ويجب كذلك ألا يقع الاسم حشوا؛ كما وقع في قول أبي تمام :
يقول أناس في حُبِّيناء عابوا عِمارة رحلى من طريف وتالد^(٢)
فليست هناك فائدة في ذكر حبيناء ، وليس أبو تمام مضطرا
لذلك^(٣).

ولعل أقبح أمثلة هذا النوع وأنكرها ، وأبعدها من سمات البلاغة :
قول المتنبي في مدح سيف الدولة :

فأنت حسام الملك والله ضارب	وأنت لواء الدين والله عاقد
وأنت أبو السمِّيجان حمدان يابته	تشابهه مولود كريم ووالد ^(٤)
وحمدانُ حمدونُ وحمدونُ حارث	وحارثُ لقمانُ ، ولقمانُ راشد ^(٥)
أولئك : أنيابُ الخِلافة كلها	وسائرُ أملاك البلاد : الزوائد ^(٦)

ومن الغريب أن الخفاجي لا يرى هذا التكرار قبيحا، لأن المعنى المقصود لا يتم إلا به ، وقد اتفق أن ذكر أجداد الممدوح على نسق واحد من غير حشو ولا تكلف ، لأن أبا الهيجاء هو عبد الله بن حمدان بن حمدون ابن الحارث ابن لقمان بن راشد ، ولو ورد هذا الكلام ثرا لم يزد على هذه الصفة ، فلما عرض في هذا التكرار معنى لا يتم إلا به ، سهل الأمر فيه . وكان البيت مرضيا غير مكروه^(٧).

(١) الطراز - ١ - ٢٨١ .

(٢) الرجل : المسكن ، وما تستصعبه من الأناث.

(٣) سر الفصاحة - ٦٥ .

(٤) الهيجا والهيجاء : الحرب تمد وتقصر، وأبو الهيجاء : كنية عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة ، يريد أنت أبو الهيجا يا بن أبي الهيجا .

(٥) هؤلاء أسماء أباء سيف الدولة : أي كل واحد هو أبوه في صفاته .

(٦) أي هم للخلافة بمثابة الأنياب للسمع في الحماية والمنعة ، وغيرهم لافائدة منهم .

(٧) سر الفصاحة - ٩٥ .

وعندى أن هذا أقبح القبح ا وليس هناك عذر واضح للمتنبى في ارتكابه . إلا التفاصيل بنظم مالا يسوغ نظمه .

ولا أرى معنى يفوت بعدم ذكر هذه الأسماء على هذا النسق الغريب المنسك ، فسيف الدولة ، ليس بخامل النسب ، ولا آباؤه نكرات في العرب حتى ينوه بهم على هذه الصورة السمجة ا ومثل ذلك يذكره المؤرخ حين يترجم ، لا الشعاع حين يمدح ، وما للشعر وهذه الحقائق الجافة ، التي لا تختلف عن سرد الأعداد ، والتي تذهب بغضارته ومائه ، وتلحقه بمسائل الحساب والهندسة ا .

وقد وسمه ابن رشيق بالتمسيف^(١) ، وعدت من التقصير في المعنى : أنه جاء به في بيتين .

ثم تهكم عليه ما شاء : بأنه جعلهم أنياب الخلافة وهم سبعة بالمدوح ، والأنياب في المتعارف : أربعة إلا أن تكون الخلافة تمساح نيل ، أو كلب بحر ، فإن أنياب كل واحد منهما ثمانية ؛ اللهم إلا أن يريد أن كل واحد منهم ناب الخلافة في زمانه خاصة ، فإنه يصح .

والحق : أن د أنياب ، كرهية أننا وقمت ، ولا تعد من الألفاظ الشعرية في مغدى ولا مراح ، وكان للمتنبى مندوحة عنها بقوله : أركان الخلافة أو آساد الخلافة وما إلى ذلك .

وإذا قبحت (أنياب) في المدح ، فهي في الغزل والنسيب أقبح ، وقد وقعت في كلام كثير من الشعراء ، كقول ابن ميادة^(٢) :

كان على أنيابها المسك شابه ^{بُعَيْدُ السُّكْرِ} من آخر الليل عابق^(٣)

(١) العمدة - ٢ - ٦٨ .

(٢) نهاية الأرب - ٢ - ٥٦ .

(٣) في رواية : كان على أنيابها الخمر شجبه

بماء الندى في آخر الليل عابق

وما ذقته إلا بعيني تفرُّسا كما شيم في أعلى السحابة بارق
وكتقول جميل (١) .

خليل عوجا اليوم حتى تسلمنا على عذبة الأنياب طيبة النشر
وقول ابن أبي ربيعة (٢) .

ألا حبيذا حبيذا حبيبا حبيب تحملت منه الأذى
وياحبيذا برِّد أنيابه إذا أظلم الليل واجلوا (٣)

وقد ذكر ابن رشيق في الشعر المتقدم مزية للمتنبى على غيره ، وهي :
أنه جعل كل ابن : هو أبوه في الخلافة إلى أن بلغ راشدا ، ولم يقصد إلى
ذلك أحد من أصحابه .

وإنما تمت شعره هذا بتسكيره كل اسم مرتين في بيت واحد ، وهي
أربعة أسماء (٤) .

وكما يجيء الاطراد في الجد ، كذلك يجيء في الهزل ، ويكون في العادة
خفيفا لطيفا ، ومن أشهر ذلك قول ابن مهدي الكسروي في ضربة سليمان
بن وهب (٥) :

إن وهب بن سليبا ن بن وهب بن سعيد
حمل الضربة للرّي على ظهر البريد (٦)

(١) تزيين الأسواق - ٣٥

(٢) الكامل للمبرد - ٨ - ٢٧٨ .

(٣) اهلوز : امتد . وشجته : مزجه .

(٤) العمدة - ٢ - ٦٨

(٥) كانت هذه الضربة بمضرة عبيد الله بن خاقان ، وقد تناولها كثير من الشعراء بالقول
- معجم الأدباء - ٥ - ٩٢ - ٩٦ وانظر "نوار القلوب للشمالبي .

(٦) الرّي بفتح الراء : مدينة . والنسبة إليها رازي .

في مهمات أمور منه بالركض الشديد (١)
وبما جاء من الاطراد في القرآن الكريم . قوله - تعالى - حكاية عن
يوسف الصديق - عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام : « وأتتبع
ملة آباء إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، .

وقوله - عز وجل - حكاية عن أولاد يعقوب - عليه السلام - :
« قالوا : نعبد إلهك وإله آباءك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، .
وذهب العلوي : إلى أن ذكر الأمهات والجدات ، ليس بمدوحا
عند البلغاء وأهل العلم بالمدايح الشعرية : لما فيه من الركة وإنزال
قدر الممدوح .

ثم يقول : وقد عيب على أبي نواس في مدحه لمحمد الأمين ، ذكره
لأمه في مدحه ، حيث قال :
أصبحت يابن زبيدة بنت جعفر أملا لعقد حباله استحكام
فإن هذا بما يعد في القبح في مثل هذا المقام .

وكذا قوله :
وليس بجديته أم موسى إذا نسبت ولا كالحيزران
وإنما كان هذا مكروها ، لأن شرف الإنسان ، إنما يكون بالرجال
لا من جهة النساء (٢)

وهو كلام ظاهر البطلان ، فليس ذكر النساء في المدح مذموماً على
إطلاقه ، فقد مدح كثير من الملوك والأشراف بأمهاتهم ، وهذا حسان بن
ثابت يقول في آل جفنة الغساسنة :

(١) معاهد التنصيص - ٢ - ٦٩

(٢) الطراز - ٣ - ٩٤

أولاد جفنة حول قبر أبيهم^(١) قبر ابن مارية السكريم المفضل^(٢)
وهي مارية ذات القرط الذي ضرب به المثل ، فقيل : قرط مارية .
ويقول جرير في مدح الخليفة عمر بن عبد العزيز :

فما كعب ابن مامة وابن أروى بأجود منك باعمر الجوادا
وفي رواية : وابن سعدى .

وكثير من الخاصة نسبوا إلى أمهاتهم ؛ منهم المنذر بن الأسود اللخمي ،
وأمه : ماء السماء^(٢) ؛ سميت بذلك لحسنها .

وأولاد إلياس بن مضر ينسبون إلى أمهم خندف كزبرج ، وهي ليلى
بنت حلوان .

وكثير من الناس ينسب إلى تَجِيب بوزن تقيم ، وهي امرأة ينسب إليها
أولادها ؛ وهم حى يبنى عظيم .

وسلول : نخذ من قيس ، وهم بنو مرة بن صعصعة ، وسلول : أمهم .
ويقال للأوس والحزرج : ابنا قبيلة بفتح القاف وإسكان الياء ؛ وهي
أمهما وبها يفاخران .

وحسان بن ثابت يعرف بابن الفريعة كجينة ، وهي أمه .

وطلحة بن عبيد الله يعرف بابن الحضرمية .

ومحمد بن علي بن أبي طالب ، يعرف بمحمد بن الحنفية .

ونسب كثير من الشعراء العشاق إلى محبوباتهم ، حتى غلب ذلك عليهم .

(١) يريد « بقبر أبيهم » : أنهم ملوك مقيمون لا يتجمعون غيرهم ، ولا يرحلون عن بلادهم

(٢) مروج الذهب - ١ - ٢٩٣ .

وتنوسى آباؤهم ، بكميل بثينة ، وكثير عزة ، وقيس ليلي ، وقيس لبنى .
وجرى الفخر ككثيراً بالنساء ؛ فقال الرسول — صلوات الله
وسلامه عليه — : «أنا ابن الفواطم من قريش ، والعواتك من سليم^(١) .»
ومن نثر عبد الله بن الزبير على معاوية : ... وإن أبى أسماء بنت
أبي بكر الصديق ، وأمك هند آكلة الأكباد ... وعمتى خديجة ذات الخطر
والحسب ، وعمتك أم جميل حاملة الحطب ... وجدتي صفية ، وجدتك
حاماة ... وحالتي عائشة أم المؤمنين ، وخالتي أشقي الأشقيين^(٢) .
ولما أخبر على بقتل الزبير — رضى الله عنهما — فى وقعة الجمل ، قال :
بشروا قاتل ابن صفية بالنار .

وصفية أم الزبير : بنت عبد المطلب بن هاشم .

ويذكرون : أن معاوية أعطى الحسن بن على أعطيات جزيلة فى بعض
زياراته له ، فقال له — وهو يقدمها — : خذها وأنا ابن هند
فقال له الحسن : رددتها عليك وأنا ابن فاطمة ؛
والشواهد على ذلك كثيرة .

فليس شرف الإنسان يكون من جهة الرجال فقط ، بل يكون من جهة
النساء أيضاً ، بل لعله من جهة النساء أكثر وأهم .
وقد لقبوا من أبوه أشرف من أمه بالهجين .

(١) الفواطم : واحدة قرشية ، وقيسيتان ، وعبانيتان ، وأزدية ، وخزاعية ، والعواتك :
ثلاث من سليم ، والبواقي من غير سليم .

(٢) المقدم الفريد — ١-٣٢ .

وكانت بنو أمية لاتولى الخلفاه إلاعربياً أباً وأماً ، فحرم منها لذلك
« مسلمة بن عبد الملك» وكان يلقب بفقى العرب فروسة ونجدة وهمة وكرما .
وحينما انتصر العباسيون على الأمويين ، وتهايا الملائمبايعه أول خليفة
منهم ، قال أبو مسلم الخراساني : أيكم ابن الحارثية ؟
فبايع لعبد الله السفاح ؛ لأن أمه كانت عربية من بنى الحارث بن كعب
من اليمن ، ولم يبايع للنصور مع أنه كان أكبر سنأ منه .
ومثل هذا حدث للأمين مع المأمون ؛ مع أن المأمون أسن وأرشد؛ لأن
الأمين : ابن زبيدة العباسية بنت عم الرشيد .
و«الأمين» بخاصة كثيراً ماكان يضاف إلى أمه، ولما بايع الرشيد له بولاية
العهد قال سلم الخاسر :

قل للعنازل بالكتيب الأعفر سقيت بغادية السحاب المطر
قد بايع الثقلان مهدياً الهدى لمحمد بن زبيدة بنته جعفر
فحشت زبيدة فاه درأ ، باعه بعشرين ألف دينار^(١) .

: ولو كان الأمين رأى في مثل هذا المدح هجنة ، لرده ووبخ الشاعر عليه
كما كان يحدث من الخلفاء والأمرأ في مثل هذه المواقف ، وقد كانوا عرباً
يفهمون الشعر ويتذوقونه ، ويفرقون بين غثه وسميته .

ولو أخذ هذا على أبي نواس لرجع عنه ، ولكننا نعرف أنه مدح بذكر
النساء كثيراً ، وهذا يدل على أن مدوحيه ، ونقاد عصره رضوا
هذا المدح .

ولو نظرنا في المدح بالنساء ، نجد أن قوام الأمر في ذلك أن يكن
مشهورات ذوات ذكر سائر ، وصفات حميدة متعارفة ، وأقدار خطيرة :

(١) وفيات الأعيان - ١ - ٣٥٤ .

مثل فاطمة الزهراء ، وأسما ذات النطاقين ، وهند بنت عتبة ، وصفية بنت عبد المطلب ، وزبيدة بنت جعفر العباسية ، وأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان الأموية ، لأنهن معروفات للنخاص والعام ، فليس في ذكر أسمائهن عيب ، هذا إلى أنهن يشرفن من ينتسب إليهن ، وبعضهن كن ملكات أو شبه ملكات وإن لم يلقبن بذلك ، فمن يقاسمن أزواجهن أبهة الملك ، وسناء الخلافة ، بل بعضهن كان نفوذها يحجب نفوذ زوجها ، كالتخيزران زوج المهدي ، وأم الهادي والرشيد ، وقبيحة^(١) زوج المتوكل ، وأم ولده المعتز .

ولا أدري كيف يكون شرف الإنسان من قبل أبيه فقط ، وهو يهجي بأمه كما يهجي بأبيه ؟



(١) سميت بذلك ، لأنها كانت أجمل أهل زمانها من باب تسمية الأضداد .

الفصل السابع

التوهم

هذا الباب مما استنبطه أبو إسحاق^(١)، وسماه النشريع ، وفسره بأن قال: هو أن يبني الشاعر البيت من الشعر، والنائر الفصل من النثر على قافيتين، إذا اقتصر على الأولى كان للشعر وزن غير وزنه ، إذا أتى بعد الأولى بالقافية الثانية . ولا يختلف الوزن إلا من جهة الضروب ، وإلا فالشعر لا بد أن يكون من بحر واحد ، والقافيتان يجوز تماثلهما ، ويجوز اختلافهما ، وكذلك يكون الحكم في الفصل من النثر ، فإنه إذا اقتصر فيه على السجعة الأولى كان الكلام تاما مفيداً ، وإن ألحقت بها السجعة الثانية ، كان في التمام والإفادة على حاله ، مع زيادة معنى ما زاد من اللفظ.^(٢)

وعرفه غيره : بأنه بناء البيت على قافيتين ، يصح المعنى بأنوقف على كل واحد منهما^(٣) .

فإذا أسقط من أجزاء البيت جزء أو جزءان ، صار ذلك البيت من وزن آخر غير الأول .

ولا عيب في هذا التعريف ، إلا أنه غير جامع ، لأنه لا يعم ما بنى على أكثر من ذلك ، فكان الأحسن أن يقال : هو بناء البيت على قافيتين أو أكثر ، ليشمل ما زاد على قافيتين^(٤) .

(١) هو أبو إسحاق الإجداني : إبراهيم بن إسماعيل الطرابلسي .

(٢) بديع القرآن لابن أبي الإصيص .

(٣) الإيضاح - ٢٨١ - لتمام الدراية - ١٦٩ .

(٤) التجريد - ٤ - ٤٤٩ .

وقد روى عن بعض الشعراء : أنه كان ينظم القصيدة على ثلاثة أبحر من الشعر ، ثم يُنشد كل واحدة منها على - ياله مخالفاً الآخر .
واقترح عليه بعض أصحابه أن يصنع مثل ذلك . فصنعه وأجاد فيه (١) .
ولكن لعل الخنابيب - وهو صاحب هذا التعريف - رأى ما بنى على أكثر من قافيتين ضرباً من التكلف ، فلم يدخله في حساب ، ولذلك لم يمثل له .

وللتوءم أسماء كثيرة ؛ منها : التشريع .

وقد اعترض على هذه التسمية ابن السبكي ، فقال : إنها عبارة لا يناسب ذكرها ، فإن التشريع قد اشتهر باستعماله فيما يتعاق بالشرح المعظم ، فكان من اللائق اجتنابها (٢) .

وهذا القول غلو في التزميت ، وإقحام للدين في مسائل لا تمس جوهره من قرب أو بعد .

وغريب أن يصدر من صاحب « عروض الأفراح » ، فقد عهدناه من أوسع المتأخرين أفقاً في تصور البلاغة ، وأكثرهم إدراكاً للحقائقها .

وقد سماه ابن الأثير : « التوشيح » .

وبنى تعريفه على هذه التسمية ، فقال : هو أن يبنى الشاعر أبيات قصيدته على بحرین مختلفين ؛ فإذا وقف من البيت على القافية الأولى ، كان شعراً مستقيماً من بحر على عروض .

وإذا أضاف إلى ذلك ما بنى عليه شعره من القافية الأخرى ، كان أيضاً شعراً مستقيماً من بحر على عروض ، وصار ما يضاف إلى القافية الأولى للبيت كالوشاح (٣) .

(١) الطراز - ٣ - ٧٢ .

(٢) التجريد - ٤ - ٤٤٧ .

(٣) المثل السائر - ٣١٠ .

وجرى العلوى فى طريق ابن الأثير - كما هى عادته - فسماه: التوشيح،
أيضاً ، ثم علل التسمية بقوله : اعلم أن هذا النوع إنما لقب بالتوشيح ؛
لأن معناه أن يبني الشاعر قصيدته على بحر من البحور الشعرية ، فإذا
وقف على القافية الأولى ، فهو شعر كامل مستقيم ، وإذا وقف على الثانية
كان بجزء آخر ، وكان أيضاً شعراً مستقيماً من بحر آخر ؛ فلما كان ما يضاف
إلى القافية الأولى زائداً على الثانية سمي : توشيحاً ، لأن الوشاح : ما يكون
من الخلى على الكشح زائداً عليه .

ثم أردف قائلاً : ويقال له : التشريع أيضاً ، لأن ما هذا حاله من
الشعر ، فإن النفس تشرع إلى تمام القافية وكما لها^(١) .

وسماه بعض البلغاء : « التوشيح وذا القافيتين معاً » .

وعلى هذا الأخير اقتصر الوطواط^(٢) ، وهو أنسب الأسماء^(٣) ؛ لأنه
اسم يدل على مساه ، ويعرب عن حقيقته ، ويعنى عن تعريفه .

واختار ابن أبي الإصبع : اسم « التوم » .

وأراد بذلك مطابقتة للمسمى ، لأن التوم فى اللغة : الملود مع غيره
فى بطن : من الاثنين فصاعداً ذكراً أو أنثى .

وهنا قافيتان أو أكثر ، كل واحدة توم لغيرها^(٤) .

وكذلك سماه السيه طى : التوم^(٥) .

(١) الطراز - ٣ - ٧٠ .

(٢) حدائق السحر - ١٥٧ .

(٣) التجريد على السعد - ٤ - ١٤٧ .

(٤) خزنة الأدب للحدوى - ١٤٩ .

(٥) الإقنان - ٢ - ١٦٨ .

مثاله من القسم الأول — وهو ما بنى على قافيتين — قول الحريري
في المقامة الثالثة والثلاثين من أبيات في ذم الدنيا :

يا خاطب الدنيا الدنية لأنها شرك الردى ، وقَرارة الأكدار
دار متى ما أضحكك في يومها أبكت غدا ، تبسها لها من دار (١)
وإذا أظلم سبحانه لم ينتقم منه صدّي ؛ لجهامه الغرّار (٢)
غاراتها ما تنقضي ، وأسيرها لا يُفتدى ، بجلائل الأخطار

فهذه الأبيات من الضرب الثاني من البحر الكامل ؛ لأنه مقطوع .

والقطع : إسقاط ساكن الوند المجموع ، وهو حرفان يليهما ساكن ،
وتسكين المتحرك الثاني ؛ كأن تسقط نون « متفاعلن » وتسكن « اللام »
فتصير « متفاعلن » نحو : أكدارى .

وإن وقفت على « الردى . وغدا » إلى آخره ، صار البيت من الضرب
الثامن من الكامل أيضاً ؛ لأنه مجزوء .

وتفاعيله حينئذ أربعة | ومصراعه على الياء الأولى من « الدنية » .
ويكون الشعر هكذا :

يا خاطب الدنيا الدنية لأنها شرك الردى
دار متى ما أضحكك في يومها أبكت غدا
وإذا أظلم سبحانه لم ينتقم منه صدّي
غاراتها ما تنقضي وأسيرها لا يُفتدى

ولؤيد الدين الطغرأى من قصيدة عدتها خمسة عشر بيتا — يمدح بها
الوزير نظام الملك — (٣) .

(١) تبالها : أى هلاكا . وفي رواية : بعدا لها .

(٢) لم ينتقم : لم يرو ولم يسكن . والجهام كسلام : السحاب لأماء فيه .

(٣) النجوم الزاهرة — • — ٢٢٠ •

يأيها المولى الذى اصطنع الورى ، شرقا وغربا
والمستعان على الزما ن إذا اعترى ، وأجدد جدبا (١)
أقسمت بالبهزل النوا فح في البرى ، قودا وقببا (٢)

والقافية الأولى : كلمة « الورى » و « اعترى » و « البرى » .

والثانية « غرباً » و « جدبا » و « قبا » وهكذا .

كأن يقول :

يأيها المولى الذى اص سطنع الورى
والمستعان على الزما ن إذا اعترى
أقسمت بالبهزل النوا فح في البرى

والقصيدة كلها على هذا المنوال .

وقد كان الطغرائى معاصراً للحريرى ، ولا يدرى منهما من السابق

فى ذلك :

ولأبى الحسين بن سعد الكاتب قصيدة (٣) من هذا النوع :

وقسينة وصلتها بطاهر مُسَوِّد ، تِرب العلاء نجيب (٤)
إذا غوت أرشدتها بخاطر مُسَدِّد وهاجس مصيب (٥)
وبلدة قطعها بضامر خَفَسِيدِد ، عيرانة ركوب (٦)

(١) اعتراه : غشيه . وأجد : أحدث .

(٢) البزل : جمع بازل ، وهو البعير والناقة يدخلان فى السنة التاسعة . والبرى بالفتح : التراب . والقود : بضم القاف : طوال الأعناق ، جميع أقود كأسود . والقب بوزن حمر : الفسر البطون جمع أقب .

(٣) معجم الأدباء - ٣ - ٤٤ .

(٤) الترب بالسكسر : من ولد معك .

(٥) الهاجس : ما يخطر بالبال .

(٦) الخفيدد : السريع . والعيرانة : السريمة فى نشاط . والركوب بالفتح : الذلول .

ولييلة سهرتها لزائر ومُسعد ، مُواصل حبيب
 وقهوة باكرتها لفاجر ذى عتد ، فى دينه ، وروب^(١)
 سؤورتها كسرتها بماطر مبرد ، من جمّة القليب^(٢)
 وحرب خصم بُخّشتها بكائر ذى عمد فى قومه مهيب^(٣)
 مُعوّدا ، بل سنّتها بياتر مهند ، يفرى الطشاي رسوب^(٤)
 وكم حظوظ نلتها من قادر مُمجد ، بصنعه الغريب
 ذافيه إذ شكرتها فى سامر ومشهد للملك الرقيب

ويمكن الاكتفاء بالقافية الأولى « خفيدد » و « مسعد » و « مسود »
 و « مسدد » « وذى عتد » إلى آخر القصيدة .

بل إن ياقوتاً يقول : إنها على أربع قواف ؛ كلما أفردت قافية ، كان
 شعراً برأسه إلى آخر الأبيات (٥) .

فنعول :

وبلدة قتلعتها بضامر خفيدد
 وليلة سهرتها لزائر ومُسعد
 وقنينة وصلتها بظاهر مسود
 وقهوة باكرتها لفاجر ذى عتد

(٥) ذى عتد : شديد . والوروب بوزن : غفور المخادع .

(٦) السورة بفتح السين : الحدة . والجمّة بالضم : معظم الاء ، والتليب : البئر .

(٧) بخّشتها : أطمأنتها ؛ مضمّن معنى أباح المتعدى ، والكائر : ذو الكثرة فى الرجال والمال .

(٨) معودا : حال حذف معموله : أى معودا ذلك ، وسائه : سريره بسيفه . ويفرى :

يشق . والطل كمالا : الأعناق ، جم طلبه بالضم .

(٩) معجم الأدباء - ٣ - ٤٤ .

وكذا قول صفي الدين الحلبي - وهو من البسيط - :

فلو رأيت مصابي عندما رحلوا رثيت لي من عذابي يوم يذنبهم

ومنه يخرج هذا البيت من مجزوء المحتش :

فلو رأيت مصابي رثيت لي من عذابي

والحسن فيه أظهر من أصله ، فقد خلا من الحشو والفضول الذي شان

الأصل ، « فمصابي » تنوب عن « عذابي » و « عندما رحلوا » تنوب عن

« يوم يذنبهم » :

هذا إلى التصريح الجميل الخفيف الروح الذي جاء من غير تكلف .

ولا شك أن من الاتفاق الغريب : أن يستنبط بيت من بيت ، فيأتي

أحسن من سابقه .

وقول ابن جابر الأندلسي :

من لي بأنسة ينام لحاظها من غير نوم ، بل تتيه وتفتن

قالت : ألسنت تخاف حين تزورني سَطَوَاتِ قومي ، كم تبوح وتعلن

فأجبتها في نيل وصلك لم أكن لأخاف لومي ، فهو عندي هيئن

وهو يأتي كما يلي :

من لي بأنسة ينام لحاظها من غير نوم

قالت ألسنت تخاف حين تزورني سَطَوَاتِ قومي

فأجبتها في نيل وصلك لم أكن لأخاف لومي

وقول أبي جعفر الغرناطي :

يا راحلا يبغى زيارة « طيبة » نلتَ المنى بزيارة الأخييار^(١)

(١) طيبة بفتح الطاء : المدينة المنورة كتابة وطيبة بتشديد الياء المكسورة ، والطيبة

بتشديد الياء المنووحة

حى العتيق، إذا وصلت وصف لنا وادى منى، ياطيب الأخبار (١)
وإذا وقفت لدى المعرف، داعياً زال العناو ظفرت بالأوطار (٢)
ويمكن أن نقول :

يا راحلا يبغي زيا رة طيبة نلت المنى
حى العتيق إذا وصل ت، وصف لنا وادى منى
وإذا وقفت لدى المعرف ف داعياً زال العنا

ومن الحسن الجيد : قول بعضهم :

أسلم ودمت على الحوادث مارسا ركننا ثبير ، أو هضاب حراء (٣)
ونل المراد ممكناً منه على رغم الدهور، وفز بطول بقاء
ويمكن أن نقول :

اسلم ودمت على الحوا دت مارسا ركننا ثبير
ونل المراد ممكناً منه على مر الدهور
وليس هذا النوع - كما يتوهم - من اختراع المحدثين ، فقد جاء فى
شعر العرب .

قال ابن سلام (٤) : سمعت سلبة بن عياش يقول : تذا كرنا جريراً
والفرزدق ، والأخطل ، فقال قائل : من مثل الأخطل ؟ إن كان فى كل
بيت له بيتان ، إذ يقول :

(١) العتيق : واد بظاهر المدينة ، ومنى : موضع بمكة مذكر مصروف .

(٢) المعرف بتشديد الراء المفتوحة : الموقف يعرفات .

(٣) ثبير : جبل بمكة .

(٤) طبقات الشعراء - ١٨٥ - ١٨٦ .

ولقد علمت إذا الرياح تروّحت هَدَجَ الرّمال، تكبّهن شمالاً (١)
أنا نعجّل بالعبيط لضيغنا قبل العيال، ونقتل الأبطالاً (٢)
وفي بعض الروايات :

ألفيتنا تقرى العبيط لضيغنا .

ولو شاء لقال :

ولقد علمت إذا الرياح تروّحت هَدَجَ الرّمال (٣)
أنا نعجّل بالعبيط لضيغنا قبل العيال
فلكل منهما قافيتان .

والبيتان في الأصل من الضرب التام المقطوع من « الكامل » « على
تمام أجزائه » .

وبالاعتصار على « الرّمال » و « العيال » بصيران إلى الضرب المجزوء
المرفل من « الكامل » أيضاً (٤) . ففي كل بيت في حال التمام قافيتان مقدرتان

(١) تروّحتهم : أى صادفتهم وقت الرواح : والرّمال كسباع : جمع رأل كراى : صغار
نعام . والهدج : بفتح الهاء والذال : الممى في ارتعاش ؟ وهو مشى النعام .

(٢) العبيط : السمن الفقى المذبوح على غير علة .

(٣) في خزانة الأدب للحموى — ١٤٩ .

وإذا الرياح مع العشى تناوحت هوج الرمال بكبهن شمالاً

ألفيتنا تقرى العبيط لضيغنا قبل القتال ، ونقتل الأبطالاً

وفي معاهد التنصيص — ١٠٣ :

وإذا الرياح مع العشى تناوحت هوج الرمال تكبهن شمالاً

والتعريف ظاهر في الروايتين .

(٤) الترفيل : أن يزداد في البحر الكامل سبب على « متفاعلين » فيصير : « متفاعلاتين »

والسبب : حرف متحرك وحرف ساكن .

على تساوي القافيتين في حال الاقتصار في الردف ، وتمائلهما في الروى وإن اختلف المجرى فيهما .

وأنت لا تشك في أن الأخطل لم يتكلفه ، ولم يفكر فيه ، بل وقع في شعره من غير قصد ، ولعله لم يفتن إليه بعد وقوعه .

وهذا واضح في نسج الشعر ، وانسيابه سمياً سهلاً متدفقاً ، كأنه أعناق السيل .

وواضح أيضاً في أن الفرع لا يقل عن أصله في حسن السبك ، ورونق الديباجة ، حتى لبطن أنه نظم مستقلاً .

ولم يشترط الوطواط : أن يتزن الباقي من الشعر ويصير على وزن آخر بعد حذف ما يحذف منه ، بل اشترط فقط : أن تكون للقصيد أو المقطوعة قافيتان متجاورتان ، مثل قول مسعود بن سعيد :

يايلة أظلمت علينا لبلاء قارية الدجنه (١)

قد ركضت في الدجى علينا دهما خدارية الأعنه (٢)

فبت أقتاسها فكانت حبلى نهارية الأجنه (٣)

ففى هذه القطعة نجد القافية الأولى : « قاريه » و « خداريه » و نهاريه والقافية الثانية : « دجنه » و أعنه » و أجنه » .

ولا شك أن هذا الضرب أقل تسكناً من سابقه ، وأسهل نظماً .

(١) القارية : منسوبة إلى القار . والدجنه بتشديدالنون وتخفف : الظلمة .

(٢) الدم : السود . والخدارية بالضم : العقاب ؛ شبهها في السواد بالخييل الدم ، وى السرعة بالعقاب

(٣) حدائق السحر ١٥٧ .

ومثال ما بنى على أكثر من قافيتين : قول الحريري — وهو من أول السكامل — :

جودى على المستهتر الصب الجوى وتعطفى بوصاله وترحمى (١)

ذا المبتلى، المتفكر القلب، الشجى ثم اكشفى عن حاله لا تظلمى (٢)

قال الفزرى : وهذه الأيات على قواف عدة .

الأولى : رائية فى «المستهتر» و «المتفكر» .

والثانية : «بائية» فى الصب و «القلب» .

والثالثة : يائية فى «الجوى» و «الشجى» وعلى هذا القياس (٣) .

وتفصيل ذلك : أنه يمكن أن يقال من ههوك الرجز :

جودى على المستهتر ذا المبتلى المتفكر

ومن مشطور الرجز الأجد :

جودى على المستهتر الصب الجوى ذا المبتلى المتفكر القلب الشجى

ومن مشطور الرجز :

جودى على المستهتر الصب الجوى ذا المبتلى المتفكر القلب الشجى (٤)

ومن مجزوء الرجز :

جودى على المستهتر الصب الجوى وتعطفى

ذا المبتلى، المتفكر القلب الشجى ثم اكشفى

(١) الجوى بكسر الواو على وزن فعيل : من يحس الجوى بفتح الواو ، وهو الحرقه من عشق أو حزن والمستهتر بالشىء بالفتح : المولع به لا يبالى بما قيل فيه .

(٢) الشجى بالتخفيف وفى الشعر بالثقيل : الحزين .

(٣) التجريد : — ٤ — ٤٤٩ .

(٤) التقرير للأنبأى — ٤٤٩ — بغية الإيضاح — ٤ — ٩٦ .

ويمكن أن تكون هائية في « وصاله » و « حاله » :

جودى على المستهتر الصب الجوى وتعطفى بوصاله

ذا المبتلى المتفكر القلب الشجى ثم اكشفى عن حاله

وقول ابن جابر الأندلسى :

يرنو بطرف فاتر . مهما رنا فهو المنى . لا أتتهى عن حبه
يهفو بغصن ناضر . حلوا الجنى يشفى الضنى . لاصبرلى عن قر به
لو كان يوما زائرى . زال العنا يحلو لنا . فى الحب أن نسمى به
أنزلته فى ناظرى . لما دنا قد سرنا . إذ لم يحل عن صبه

فهذه الأبيات من « الضرب الأول من الرجز التام » .

ويصير من مجزوء الرجز :

يرنو بطرف فاتر مهما رنا فهو المنى
يهفو بغصن ناضر حلوا الجنى يشفى الضنى
لو كان يوما زائرى زال العنا يحلو لنا
أنزلته فى ناظرى لما دنا قد سرنا

ومن مشطور الرجز :

يرنو بطرف فاتر مهما رنا يهفو بغصن ناضر حلوا الجنى
لو كان يوما زائرى زال العنا أنزلته فى ناظرى لمادنا
ومن منهوك الرجز :

يرنو بطرف فاتر فهو المنى لا أتتهى عن حبه
يهفو بغصن ناضر يشفى الضنى لاصبرلى عن قر به
لو كان يوما زائرى يحلو لنا فى الحب أن نسمى به
أنزلته فى ناظرى قد سرنا إذ لم يحل عن صبه

ومن ذلك قول الأراجاني :

صب مفيم سائر فؤاده طوع الهوى مع الخليط المنجد (١)
غائب قلب حاضر وداده لمن نأوا في عهدهم والمعهد (٢)
له جوى مخامر يعتاده إذا اشتكى طيف الكرى في العود (٣)
لصبره مكابد إيقاده حشو الهوى بعد الحسان الخرد (٤)
ودمعه مكائر أسداده خوف النوى يقول: «لهم» ابعده (٥)

والأمثلة على ذلك كثيرة، وقد اكتفينا بما لعله لا يبلغ غاية الثقل.

ويعد بحر الرجز أوسع البحور في هذا النوع، لأنه يستعمل تاماً
ومجزواً ومشطوراً ومنهوكاً، فيمكن أن يعمل للبيت منه أربع قواف.

فإذا ما أسقطت ما بعد القافية الأولى، صار البيت منهوكاً.

وإذا ما أسقطت ما بعد الثانية، صار مشطوراً.

وإذا ما أسقطت ما بعد الثالثة، صار مجزواً.

وإذا لم تسقط شيئاً كان تاماً (٦).

هذا وقد قدمنا: « أن التشريع » يسمى: « التوشيح » عند

بعض البلغاء.

(١) الخليط: المشريك. والمنجد: من أنى نجداً أو خرج إليه.

(٢) المعهد: المنزل الذي لا يزال القوم يرجعون إليه إذا بعدوا عنه، والموضع الذي كنت

تعهد به شيئاً.

(٣) المخامر: المخالط والعود: جمع عائد، وهو زائر المريض.

(٤) الخرد: جمع خريدة، وهي البسكرة لم تقس، أو الخفرة الطويلة السكوت، الخائضة

الصوت المستترة.

(٥) لهم: أصلها: اللهم.

(٦) خزنة الأدب للحموي - ١٥٠.

ونحب أن نبين هنا : أن التوشيح أطلقه بعضهم على نوع آخر من البديع .

فالتوشيح عند قدامة^(١) : أن يكون أول البيت شاهدا بقافيته ، ومعناها متعلقا به ؛ حتى إن الذي يعرف قافية القصيدة التي منها البيت — إذا سمع أول البيت — عرف آخره ، وبانت له قافيته ، كقول الراعي النيرى :

وإن وزن الحصى فوزنت قومي وجدت حصى ضريبهم رزينا^(٢)
فإذا سمع الإنسان أول هذا البيت ، استخرج منه لفظ قافيته ؛ لأنه يعلم : أن قوله « وزن الحصى » سيأتي بعده « رزين » لعلتين : أحدهما : أن القافية في القصيدة توجهه .

والأخرى أن نظام المعنى يقتضيه ، لأن الذي يفاخر برجاحة الحصى يلزمه أن يقول في حصاه : إنه « رزين » .
وقول نصيب :

فقد أيقنت أن ستزول ليلى وتحجب عنك إن نفع اليقين
فن تأمل هذا البيت ، وجد أوله يشهد بقافيته .

وهو بهذا المعنى عند العسكري والحلي والحوى ، إلا أنه يشمل النظم والنثر معا .

ويزيد العسكري على ذلك : أن تسميته توشيحاً ، بعيدة عن معناه ، وأن الأقرب أن يسمى « تبيننا »^(٣) .

وفسر النويرى معناه بقوله : هو أن يكون معنى الكلام يدل على لفظ

(١) نقد الشعر - ٩٩ .

(٢) الضريبة : السجبة والطبيعة ، يصفهم برجاحة الحلم ولوقان والثبات ؛ والحصى : المقول والآراء جمع حصاة ، وهو حصى كفى بالتشديد : وافر العقل .

(٣) الصناعتين - ٣٧٢ - حسن التوسل - ٦٨ - خزائن الأدب - ١٦٢ .

آخره ؛ فيتنزل المعنى منزلة ارشاح ، ويتنزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح اللذين يحول عليها الوشاح^(١).

والتوشيح عند الطواط^(٢) ، يختلف عن ذلك كثيراً ؛ فهو عنده: أن يورد الشاعر في أول الأبيات ، أو وسطها حروفاً أو كلمات ، بحيث إذا جمعت بعينها أو مع تصحيفها ، خرج لنا منها بيت أو مثل «بفتح الشاء» أو اسم ، أو لقب من الألقاب .

قيمة التنعيم :

حينما ننظر في هذا النوع البديعي ، نرى أن قيمته انطية محضه ؛ وهي هذه الموسيقية المزدوجة المتحدرة إلى أسماءنا من قافيتين أو أكثر : إحداهما: داخلة ، والأخرى : خارجة .

أما المعنى فيه ، فقل أن يناصره اللفظ ؛ لأن الشاعر يستهلك خاطره كله في تسوية هذه الصنعة الشاقة المضنية ، التي تشبه عملاً هندسياً دقيقاً ، يحتاج إلى حساب وتقدير ، وقياس ووزن ، لا يترك مكاناً للتفكير في غيره .

ولسنا نقلل من قيمة التنعيم ، وعمق أثره في النفس ، متى وصل إلينا صافياً عذباً مهذباً متقناً ، ولكنه فيما نحن بسبيله ، لا يرتقى أبداً إلى هذه المرتبة إلا في الأقل النادر ، لأنه ينبعث من هياكل كلمات خاوية لا روح فيها ولا خصب ولا حياة || كلمات ركبتها المعازلة ، وضامها التعسف ، وشاعت فيها الغثاثة ، وتقطعت بينها الأسباب والأرحام ، وضم بعضها

(١) نهاية الأرب - ٧ - ١٣٧ .

(٢) حدائق السحر - ١٦٠ .

إلى بعض قسراً واجتلاباً ؛ بلا توافق في صيغة ، ولا تناسب في بنية .
ولا تلازم في معنى .

فالشأن كله إذن : صنعة لا طبع ، وتعمل لا هبة ، وتلفيق
لا بلاغة .

أما ما وراء ذلك مما يقوم به الكلام ، ويقاس به قدره ، فليس له أدنى
حظ من الرعاية .

فعمل الشاعر هنا ، مردّه : إلى المهارة اللفظية ، والقدرة على الرصف
والاحتيال على البناء ، وبقدر نصيبه منها ، يكون إحسانه فيه إحساناً مجرداً
من سمة الإلهام ، وموضحة الوحي ، ورشح العاطفة ، وفيض الطبع ، إذ
لا يتصور العقل : أن هذا المنظم - الدقيق المسلك ، البائع السكفة ، الكثير
التعقيد ، الذي يبني بناء ، ويرصف رصفاً ، ويفكر في آخره قبل أوله
ويختار لاحقه قبل سابقه - مما تسمح به النفس ، وتندى به القرينة من غير
قصد ، إلا على الندرة في البيت .

ولا خلاف : أن الضرب الأول منه — وهو ما بنى على قافيتين —
أيسر صنعة ، وأخف مثونة ، وأدنى إلى القبول من الضرب الثاني .

والضرب الثاني — على ثقله إلى حد ما في أقل صورته — يزداد ثقلاً
بازدياد قوافيه .

وآية ذلك : أننا في كل ما أوردناه منه - وهو المصنف المختار - لا نجد
ديباجة أنيقة ، ولا خيالاً بديعاً ، ولا معنى دقيقاً ، ولا صورة ناصعة ،
تستوقف النظر ، وتسترق السمع .

هذا إذا قرأناه تاماً ، فأما حين نمزقه إلى قوافيه الداخلية ، ونحمله

إلى ضروب أخرى من الأوزان ؛ فإن سلوكه انتهى ، وروابطه تم من ، وعراه تنفصم ، ويشيع فيه التفكك والانحلال ، فلا ترى إلا مبعثرة هنا وهناك ، لا يمت بعضها إلى بعض بنسب ولا سبب .

وقد غلا بعض الشعراء في ذلك ، وركب رأسه فيه ، حتى انتهى إلى ما يصح أن يسمى شعوذة ، لا يرضاها لنفسه الفنان الأصيل .
فمن ذلك ما نظمته « الرئيس بن عاصم » في مدح السلطان « أبي الحجاج (١) » .

وهي قصيدة طويلة غريبة تمنمخض فتلد بنتين ، وكل بنت تلد موشحة ؛ فتصبح القصيدة أما لبنتين ، وجدة لحفيدتين ١١ .

وسنذكر فيما يلي نموذجاً لهذه القصيدة الولود غير الودود ، ونشير بالاقواس المفردة إلى إحدى البنتين ، وبالاقواس المزدوجة إلى البنت الأخرى (٢) :

أما والهوى « ما كنت » مذبان عهدُه
أهيم بـلقيا مَن (تناثر) وده
رعى الله من « لو أنصف » الصبّ في الهوى
لما فاض منه (الدمع) مذبان صده
ولو جاد من بعد « المسطال » بزورة
لما شبّ أشواقى وقلبي زنده
كما خان صبرى يوم أصبح « واصلى
« لظسى » زاد ماءً من (جفوني) وقده

(١) زهر الرياض في أخبار القاضي عياض - ١ - ١٤٦ « تحقيق الميمني .

(٢) كانت العلماء يواصون بوضم كلمات إحدى البنتين بين قوسين مزدوجتين «
مكتوبة بخط أحمر ، وكلمات الأخرى بين هلالين (مكتوبة بخط أخضر
(م ١٣ البلاغة)

كذلك أسال الدمع (من الدم) مدمعى
من « الوجد » فاستولى على الجفن سهده
حكى لؤلؤا (من سلكه) تنائراً
و « إلا ليتم » قد نتابع ممدته
ذخرت (الثمين) القدر منه بمقلتي
وما زلت من خوف « النكال » أعدته
ولا عجب (مذ أعوز) القرب أن غدا
« وكالقمر الزاهى » سنانه وبعده
أيلاً حقيقاً بالثقباً أو (الوصل) من يغزو
ر « فى نوره » بدر السماء وجنده
وصير جسمي للصبابة (والتلا
قى) مثل قلبى إذ تمكن وجده
أقطع أنفاسى « عليه ك » آية
ولله من بدر) لغيرى سعه
فن شعره « الليل البهيم » ومن سنا
مقبلة للـ (حسن) نور يمدّه
فالبيت الأولى الخارجة من الأقواس المفردة هي :
تنائر الدمع من جفونى كالدر من سلكه الثمين
مذ أعوز الوصل والتلقى من بدر حسن بلاقرين
والموشحة المتولدة هي :

تنائر الدمع كالدر مذ أعوز الوصل من بدر

وتصير باختصار هكذا :

تنسائر الدمع منذ أعوز الوصل

والبنت الأخرى الخارجة من الأقواس المزدوجة :

ما كنت لو أنصفَ بعد المطال أصبلى لظى الوجد الأليم النسكال
كالقمر الزاهى فى نوره عليه كالليل البهيم الدلال
وموشتها هى :

ما كنت لو أنصف أصلى لظى الوجد الأليم
كالقمر الزاهى عليه كالليل البهيم

ويمكن أن تختصر هكذا :

ما كنت لو أنصف كالقمر الزاهى

ولا نستطيع أن نقول شيئاً فى هذا أكثر من أنه سخف وهراء ، يسوده الخلل فى النظم ، والتعسف فى التركيب ، والاستغلاق فى المعنى ، فالأم وبناتها وحفيداتها جميعاً ، قرار للقيح والدمامة ، وثقل الروح ، وجمود النسيم ، ولو كن من الإنس لبعض الرجال فى بنات حواء !

ومن هذا العبث أيضاً : قصيدة سائرة ذات أوزان ، للشاعر الخلاطى البعلبكي ، وهى :

دام نوى . بفؤاد شفته سقم لمحتنى . من دواعى الهم والسكد
بأضلعى . لذب تذكو ش. ارته من الضنى . فى محل الروح من جسدى
يوم النوى . طال فى قلبى به ألم وحرقتنى . وبلائى فيه بالرصد
توجعنى . من جوى شبت حرارته مع العنا قد رثى لى فيه ذو الحسد
أصل الهوى . ملبسى وجدابه غدم لمهجتى . من رشأ بالحسن منفرد
تبعى . وجهه من تزهو نضارته لما جنى . مورثى وجداء إلى الأبد

ويقول الصفدى : إن هذه القصيدة ، تقرأ على ستين وثلاثمائة وجه .^(١)
وطريقة ذلك : أن يؤخذ الشطر الأول من كل بيت كما هو ، أو مع تغيير
في بعض كلماته ؛ ثم يوضع مع ما يناسبه معنى ، من الشطور الشواني في القصيدة
كلها ؛ فتخرج من ذلك صور كثيرة للبيت الواحد .

وإذا كان الأصل على هذه الصفة من هلملة النسخ ، وسوء التركيب ،
وتعبد اللفظ والمعنى ، والفراغ التام من صور البيان الأنيق ، فما الظن
بما يتفرع عنه من هذه التوائم الكثيرة المولودة خداجاً^(٢) ، مع ما تحمله
من أوم العرق !!

ولبعض الأندلسيين خطبة تخرج منها قصيدة كاملة^(٣) .

وأخرب من ذلك ، بيت للشيخ نجيب الدين العاملى في مدح الإمام (على)
ذكروا : أنه يشتمل على أربعين ألف بيت ، وثلاثمائة وعشرين بيتاً^(٤)
في حساب طويل محقد ، وهو :

على . رضى . بهى . ولى . صفى . وفى . سخي . على

وقد أشار ابن الأثير إلى شيء من هذا الهذر ، فقال : لقد رأيت
رجلاً أديباً من أهل المغرب ، وقد تغلغل في شيء عجيب ؛ وذلك : أنه شجر
شجرة ، ونظمها شعراً ، كل بيت من ذلك الشعر ، يقرأ على ضروب من
الأساليب اتباعاً لشعب تلك الشجرة وأغصانها .

فتارة يقرأ كذا ، وتارة يقرأ كذا ، وتارة يكون جزء منه هنا ، وتارة
هنا ، وتارة يقرأ مقلوباً .

(١) أزهار الرياض - ١ - ٣١٠ .

(٢) الحداج : ولادة النقص .

(٣) سلافة العصر - ٣١٣ .

(٤) المثل السائر - ٣٠٨ .

وكل ذلك الشعر — وإن كان له معنى يفهم — فإنه ضرب من الهذيان ،
والأولى به وبأمثاله أن يلحق بالشعبذة والمعالجة والمصارعة ، لا بدرجة
الفصاحة والبلاغة .

ويتصل بالتشريع : نوع يسمى : « المتلون » ذكره الوطواط .

وهو أن يقول الشاعر : بيتاً من الشعر تمكن قراءته على وزن ، أو
أكثر من أوزان الشعر .

ويختلف عن التشريع : بأنه ليست له قافية داخلية يمكن الاقتصار عليها .
وذلك كقول الشاعر :

إنما الدنيا فداء داره وبنو الدنيا فداء أسرته

فإذا قرأت لفظة « فداء » مقصورة في كلا المصراعين ، كان هذا البيت
من « المديد » .

وكان تقطيعه هكذا :

فاعلاتن فاعلن فاعلن . . . :

أما إذا قرأت « فداء » ممدودة ؟ فإن البيت يكون من بحر الرمل ،
ويكون تقطيعه هكذا :

فاعلاتن فاعلاتن فاعلن .

وكذلك يتصل بالتشريع : المربع في الفارسية « جهارسو » .

وهو الذى له أربع نواح .

وهو : أن يقول الشاعر أربعة أبيات ، أو أربعة مصاريع ، بحيث
إذا قرئت طولاً أو عرضاً كانت واحدة .

وذلك مثل قول الوطواط :

فؤادى . سباه . غزال . ربيب
سباه . بقدر . كفنصن . رطيب
غزال . كفنصن . جناه . عجيب
ريبب . رطيب . عجيب . حبيب

ومن ذلك قطعة للصفى الحلى ، تقرأ من أعلى إلى أسفل أربع مرات وهى :

ليت شعرى — لك علم من سقامى — يا شفائى
لك علم — من زفيرى ونحولى — وضنائى
من سقامى — ونحولى داونى إدا — أنت دائى
يا شفائى — وضنائى أنت دائى — ودوائى

ولا يخفى ما فيه من التكلف ، وإخضاع المعنى للصياغة المحضنة .

وقد ذهب قوم : إلى أن التشريع خاص بالشعر — كما تقدم —

وذهب آخرون كابن الأثير والحموى والعلوى ، إلى أنه يقع

فى النثر أيضاً^(١) .

وذلك ببناء كل فقرة منه على سبجتين ، لو اقتصر على الأولى منهما ، كان الكلام تاماً مفيداً ، وإن ألحقت به السجعة الثانية ، كان فى التمام والإفادة على حاله ، مع زيادة معنى ما زاد من اللفظ ، ولكن حسنه لا يظهر إلا فى النظم ، لأن الانتقال فيه ، من وزن إلى آخر .

(١) المثل السائر — ٣١٠ — خزنة الأدب — ١٥٠ — الطراز — ٣ — ٧٢ .

وأما النشر ، فليس فيه هذا الانتقال : لمجيئه — إذ ذلك مسجوعاً على كل حال — فلا يكون إلا هذا النوع المعروف بالترصيع .

وقد نبه العلوى : بأنه إنما يقع عن كان يتعاطى التمكن من صناعة النظم ، عظيم البراعة في ذلك ، مقتدرأ على كثير من الأساليب (١) .

ويرى ابن أبي الإصبع (٢) : أن معظم سورة الرحمن جاءت من هذا الباب ؛ كقوله — تعالى — : « يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض ، فأنفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان . يُرسل عليكم أسواق من نار ونحاس^٣ فلا تنتصرون . فبأى آلاء ربكما تكذبان . » .

وهكذا إلى آخر السورة ، فإن الكلام أو اقتصر فيه على أولى الفاصلتين دون الثانية — لو كان التنزيل كذلك — لكان الكلام مفيداً وبتمكيل الكلام بالفاصلة الثانية ، بفيد معنى زائداً على معنى الكلام الذى خرج مخرج تجاهل العارف ، للاستفهام فيه عما هو معلوم ، لقصد التوبيخ بعد تعديد النعم ، والتحذير من حلول النقم ، فكانت الفاصلة الأولى في غاية التمكن ، والثانية متضمنة إيغالا حسناً ، جاء مقترناً بتجاهل العارف .

وقس على ذلك ما تلاحظه من سور الكتاب العزيز .

وقد اعترض عليه السيوطى (٣) : بأن التمثيل غير مطابق ، وأن الأولى

(١) الطراز — ٣ — ٧١ .

(٢) بدع القرآن — ١٨٥ .

(٣) الإقنان — ٢ — ١٧٦ .

أن يمثل بالآيات التي في إيجابتها ما يصح أن يكون فاصلة ، كقوله تعالى :-
« لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل
شيء علما ، .

ولا تستريح النفس إلى عد هذه الأمثلة من التشريع ، فالصواب أنه
لا يقع في النثر ، وهذا واضح بأدنى تأمل .

~~*

الفصل الثامن

التكرار

التكرار أو التكرير: دلالة اللفظ على المعنى مردداً، لتأكيد غرض من أغراض الكلام، أو للبالغة فيه، وذلك:

(١) كالغزل في قول امرئ القيس:

ديار أسلمى عافيات بنى الخال ألحَّ عليها كلُّ أسحَمٍ هَطَّالٍ^(١)
وتحسب سلمي لا تزال كعهدنا بوادى الخزامى أو على رأس أوعال
وتحسب سلمي لا تزال ترى طلاً من الوحش أو يبضا بميشاء محلال^(٢)
ليالى سلمي إذ تريك منضداً وجيدا بكيد الرثم ليس بمعطال^(٣)
وزعم عبد الكريم^(٤) وغيره: أنه لم يتخلص أحد تخلصه، ولا سلم سلامته في هذا الباب^(٥).

وقول قيس بن ذريح صاحب أبنى:

ألا ليت «لبنى» لم تكن لى نخلة^(٦) ولم تلتقى «لبنى»، ولم أدر ما هي^(٧)

(١) الأسحَم: السحاب.

(٢) الطلا بفتح الطاء: ولد الظبية ساعة يولد. والميشاء: الأرص اللينة. والحلال: التي يحل بها كثيراً.

(٣) في بعض الروايات: منصباً وزن منضداً، أى نغرا مستويًا ليس بمختلفة وفي رواية أخرى مقصبا: أى شعرا ذا ذوائب، والقصة بفتح القاف وسكون الصاد: الخصلة من الشعر.

(٤) عبد الكريم: عبد الكريم النهشلي.

(٥) العمدة لابن رشيق - ٢ - ٥٩.

(٦) الخلة بضم الخاء: الخلية.

وقول ابن المعتز :

لسانك لسرى كتوم^١ كتوم ودمعى بجبى نموم نموم
ولى مالك شقى حثبه بديع الجمال وسيم وسيم
له مقلتا شادن أحور ولفظ سحور رخيم رخيم
فدمعى عليه سجوم سجوم وجسمى عليه سقيم سقيم

وقول القاضى الفاضل :

ماذا تقول الله واحى - صل^٢ سعيهمو - وما تقول الأعداى حين ألقاه^(١)
هل غير أن أهواه - وقد صدقوا - نعم نعم أنا أهواه وأهواه

وقول بعضهم :

يقان - وقد قيل لنى كهجعت^٣ - عسى أن يلم بروحى الخيال
حقيق حقيق وجدت السهل^٤ ؟ فقلت : لهن^٥ محال محال

(ب) وكالتنويه به ، والإشارة إليه بالذكر ، ويشمل ذلك :

١ - المدح كقول الخنساء فى أخيها صخر :

وإن صخرأ لمولانا وسيدنا وإن صخرأ - إذا نشئوا - لنحار^٦
أغر^٧ أبلج^٨ تأتم الهداة به كأنه علام فى رأسه نار
فتكرير اسم الممدوح هنا تنويه به ، وإشادة بذكره ، وتفخيم له
فى القلوب والأسماع .

وقول كثير عزة فى عمر بن عبد العزيز - مشيراً إلى خلافته - :

فأربح بها من صفة المبايع وأعظم بها ، أعظم بها ، ثم أعظم

(١) الواحى : اللوام .

وقول أبي تمام (١) — يرثي غالباً الصُّغندي :

بدلت منهم بلؤلؤة الغواص حسنا وذميمة المحراب
بالصریح الصريح ، والأروع الأروع وع منهم ، وباللباب اللباب (٢)
وقول أبي الأسد الدينيوري (٣) :

ولائمة لامتك (٤) يا فيض في الندي فقلت لها : هل يقدح اللوم في البحر
أرادت لتثني الفيض عن عادة الندي ومنذا الذي يثني السحاب عن القطر
كان وفود الفيض يوم تحمّلوا إلى الفيض لا قوا عنده ليلة القدر
مواقع جود الفيض في كل بلدة مواقع ماء المزن في البلد القفر
وبما أنشده الفراء :

وكأنّ وكم عندي لهم من صنيعه أيادي تشوها على وأوجبوا
ومن أمثلته في القرآن الكريم : « والسابقون السابقون أولئك المقربون
في جنات النعيم » .
وهذا مثال لما جاء منه بالمفردات .

وأما ما جاء منه بالمركبات ، فقوله — تعالى — : « ليس على الذين آمنوا
وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات
ثم اتقوا وآمنوا » .

٢ — الهجاء على سبيل التشهير وشدة التوضيح بالمهجو ، كقول ذي الرمة :

(١) ديوانه - ٣٥٣ .

(٢) الصريح: المالمس

(٣) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري - ١ - ٣٠ - ٦٣ .

تسمى أمراً القيس بن سعد إذا اعتزت
وتأبى السبيل الصَّهْب والآنف الحجر^(١)
ولكنما أصل امرىء القيس معشر
يحل لهم لحم الخنازير والخمر
نصاب امرىء القيس العبيد، وأرضهم
تمرّ المساحى لا فلاة ولا مصر^(٢)
تخلي إلى الفقر امرؤ القيس لأنه
سواء على الضيف امرؤ القيس والفقر
تحب امرؤ القيس القرى أن تناله
وتأبى مقاربيها إذا طلع الفجر^(٣)
هل الناس إلا يامراً القيس غادر
وواف ، وما فيكم وفاء ولا غدر
وكذلك صنع جرير في قصيدته التي سماها : «الدمّاغة»^(٤) في هجاء الراعي
النميري ، فإنه كرر «بني نمير» في كثير من أبياتها .
ومن أبياتها المشهورة :

ففض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلعت ولا كلاباً

(١) السبال بكسر السين : جمع سبلة كورقة ، ومن معانيها : مقدم اللحمة ؛ والصهب : جمع أصهب وصهباء من الصهبة ، وهي حمرة أو شقرة في الشعر ، وليست من ألوان العرب ، على أن البكري في مجمه ص ٧٤٥ روى للناطقة في الفخر :

فإما تنكري نسي فإني من الصهب السبال بنى ضباب

(٢) النصاب : الأصل . والمساحى : ما يقشر بها الطين ويجرف ، جمع سحابة بالكسر .

(٣) المقارى : القدور والقصاع : جمع مقرة بالكسر .

(٤) كان يسميها الدماغة والدامنة ؛ تشبيها لها بالشجرة التي تصل إلى الدماغ ، وسمتها العرب

الفاضحة .

٣ - الازدراء والتهمك والتنقيص ، كقول حماد عجرد في ابن نوح - وكان يتعرب - :

يا بن نوح يا أبا المجلس ويا بن القشيب^(١)
ومن نشأ والده بين الربا والكذب
يا عربى يا عربى يا عربى يا عربى

٤ - التقرير والتوبيخ ، كقول بعضهم :

إلى كم وكم أشياء منكم تريدنى أغمض عنها لست عنها بذى عمسى
٥ - التعظيم للمحكي عنه كالذى أنشده سيبويه ، من قصيدة لعدي بن زيد ،
أو لابنه سواده^(٢) :

لا أرى الموت يسبق الموت شيء نغص الموت ذا الغنى والفقيرا
٦ - الوعيد والتهديد ، كقول الأعشى ليزيد بن مسهر الشيباني :

أبا ثابت لا تعلقنك رماحنا أبا ثابت أقصر وعرضك سالم
وذرتنا وقوما إن هم عمدوا لنا أبا ثابت واقعد فإنك طاعم^(٣)
ومثاله من القرآن الكريم : « الحاققة ما الحاققة وما أدراك ما الحاققة ،
« القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة » .

وهذا مثال ما جاء بالمفردات منه .

ومثال المركب قوله - تعالى - : « كلاً سوف تعلقون ثم كلا سوف تعلقون » .

(١) المجلس بالكسر : كساء على ظهر البعير تحت البردعة . والقشيب : الرجل .

(٢) خزائن الأدب للبغدادي - ١ - ٣٤٣ .

(٣) الطاعم : الأكل ؛ يريد : أنه ساقط لابهمة إلا الأكل .

٧ - التوجع في الرثاء والنابين ؛ كقولهم : تمم بن ثوبة يرى
أخاه مالكا (١) :

وقالوا أتبكي كل قبر رأيتَه لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت لهم : ان الاسبى يبعث الاسبى ذرونى فهذا كله قبر مالك

وقول ابنة عم الشحمان بن بشير الأنصارى الصحابى ترى زوجها :

أقام ونادى صحبه به برحيل	وحدثنى أصحابه أن مالكا
ضروب بنصل السيف غير تكول	وحدثنى أصحابه أن مالكا
خفيف على الحداك غير ثقيل	وحدثنى أصحابه أن مالكا
جواد بما فى الرسل غير بخيل (٢)	وحدثنى أصحابه أن مالكا
صروم كاضى الشفرتين صقيل (٣)	وحدثنى أصحابه أن مالكا

وقول المهلهل بن ربيعة - يرى أخاه كليباً من قصيدة مطلعها - :

أليتنا بنذى حُسم أنيرى إذا أنت انقضيت فلا تحورى
إلى أن يقول :

وهمام بن مرة قد تركنا عليه القشيمان من النُسور (٤)
على أن ليس عدلا من كليب إذا طرد اليتيم عن الجزور (٥)
وقد كرر : «على أن ليس عدلا من كليب» فى هذه القصيدة أكثر
من عشرين مرة (٦) .

(١) قتله خالد فى حروب الردة

(٢) الرجل : المنزل .

(٣) الصروم : الماضى الشجاع .

(٤) القشيمان : مبتدأ مؤخر لقوله : عليه ، ويروى بالنصب : على أنه مفعول به لتركنا .

(٥) العدل يفتح العين وكسرها : المثل بالكسر والنظير . والجزور : البعير ، أو ما يذبح من الشاء .

(٦) الصناعتين - ١٨٥ .

وباب الرثاء أولى ما تكرر فيه الكلام، لمكان الفجعة، وشده القرحة
التي يجدها المتفجع، وهو كثير حيث التمس من الشعر وجد.

وقد قيل لبعضهم: متى يحتاج إلى الإكثار!

فقال: إذا عظم الخطب!!

٨ — الاستغائة — وتدخل في باب المدح كقول العديّل بن الفرخ:

بنى مسجداً مع لولا الإله وأتموا بنى مسمع لم ينكر الناس منكراً

٩ — التفضيم، كقول امرئ القيس:

تقطع أسباب اللبانة والهوى عشية جاوزنا حماة وشيزرا^(١)

عشية جاوزنا حماة وشيزرا أخو الجهد لا يلوى على من تعذراً

وقال ابن الزيات في الحسن بن سهل:

إلى الأمير الحسن استجديتها أى مزار ومناخ ومحل

أى مزار ومناخ ومحل لحائف ومستريش ذى أمل^(٢)

١٠ — التعجب، كالذى رواه القالى عن أبي بكر بن الأنبارى

عن أبيه:

: لما تبعدت من الأستار قلت لها سبحان سبحان ربى خالق الصور

: ما كنت أحسب شمساً غير واحدة حتى رأيت لها أختاً من البشر

كانها هى إلا أن يفضّلها حسن الدلال، وطرف فاطر النظر

١١ — الاستبعاد، كقوله — تعالى: دهيّيات هيّيات

لما تواعدون.»

(١) حماة: مدينة بالشام. وشيزر كعبدر: بلد قرب حماة.

(٢) المستريش: يريد طالب الفنى.

١٢ — التهويل ، كقوله — عز وجل — « الحاقّة ما الحاقّة » .
القارعة ما القارعة .

١٣ — التقرير والإنكار ، كقوله — تعالى — : « فبأى آلاءِ ربِّكما
تُكذِّبان » في سورة الرحمن .

وذلك أنه عدد في هذه السورة نعماءه ، وأذكر عباده آلامه ، ونههم
على قدرها وقدرته عليها ، ولطفه فيها ، وجعلها فاصلة ، بين كل نعمة ليبرف
موضع ما أسداه إليهم منها ، فحسن التكرار للتقرير بالنعم المختلفة المتعددة ،
فكلما ذكر نعمة أنعم بها ، قرر عليها ، ووبخ على التكذيب بها ، وبكّنت
من أنكرها ، كما يبيكت منكراً أيادي المنعم عليه من الناس بتعديدها له ، وكما
يقول الرجل لغيره : ألم أحسن إليك ، بأن خولتك الأموال ، ألم أحسن
إليك بأن خلصتك من المكاره ، ألم أحسن إليك ، بأن فعلت بك كذا
وكذا ؟ فيحسن منه التكرار لاختلاف ما يُقرره به (١) .

فإن قيل : إذا كان التكرار في سورة الرحمن ، ما عدده من آياته ومن
نعمه ، فقد عدد في جملة ذلك ما ليس بنعمة ، وهو قوله : « يرسل عليكما
شواظ من نار ونحاس^٢ فلا تتنصران^(٢) » .

وقوله « هذه جهنّم التي يُكذَّب بها المجرمون ، يَطوفون بينها وبين
حميم^(٣) » .

(١) الصناعتين — ١٨٥ — أمالي المرتضى — ١ — ١٢٣ خزانه
الأدب للعوى — ٢٠٥ .

(٢) الشواظ : اللهب الخالص . والنحاس : الدخان ، أو الصفر المذاب .

(٣) حميم آن : حار قد انتهى حره ونضجه .

فكيف يحسن أن يقول بعقب هذا : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ،
وليس هذا من الآلاء والنعم ؟ .

والجواب : أن فعل العقاب — وإن لم يكن نعمة — فذكره ووصفه ،
والإنذار به ، من أكبر النعم ؛ لأن في ذلك زجراً عما يستحق به العقاب ،
وبعنا على ما يستحق به الثواب ، فأشار — تعالى — بقوله : « فبأى آلاء
ربكما تكذبان » — بعد ذكر جهنم والعذاب فيها — إلى نعمته ، بوصفها
والإنذار بعقابها ، وهذا مما لا شبهة في كونه نعمة (١) .

وكذا قوله — تعالى — : « فذوقوا عذابي وثنُّوا ، ولقد يسرنا القرآن
لذِّكر فهل من مُدِّكر » .

وفائدته أن يمدوا عند استماع كل نبي من أنبياء الأولين اذكاراً واتعاظا ،
وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظا ، إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه ،
وأن تقرع لهم العصا مرات ، ويقعق لهم بالشَّن (٢) تارات ، لتلا يغابهم
السهو ، ولا تستولى عليهم الغفلة (٣) .

وقد كرر قاضي العرب الحارث بن عباد البكري قوله ؛ من قصيدته التي
نظمها حين اعتزم دخول حرب البسوس :

قرباً تربط النعامة منى لقيحت حرب وأمل عن حِيال (٤)

أكثر من تكرير المهلهل لمصراع بينه المتقدم .

وقالت ليلي الأخيالية ترى صاحبها توبة بن الحمير .

(١) أمالي المرتضى — ١ — ١٢٧ .

(٢) الشن بفتح الشين الشنة : القرية البالية الصغيرة .

(٣) الكشاف — ٢ — ٤٢٢ .

(٤) تربط بكسر الباء وفتحها ، والنعامة : اسم فرسة ، والحِيال : عدم حمل الباقة سنة

أو سنتين أو سنين . وعن : بمعنى بعد .

لنعم الفتى يا توب كنت ولم تكن لتسبق يوماً كنت فيه تحاول
فكررت نعم الفتى ثلاث مرات ، أو أربعاً أو خمساً على
حسب الروايات .

ثم قالت :

لعمري لأنت المرء أبكى لفقده يجدد ولو لامت على العواذل
فكررت : لعمري لأنت المرء أربع مرات .

ثم قالت :

فلا يُبعدنك الله يا توب إنما لقيت حمام الموت ، والموت عاجل^(١)
فكررتها ثلاث مرات .

وللأمير تميم بن المعز الفاطمي قصيدة كرر فيها « أنا ، ثلاثاً وثلاثين
مرة في أبيات متتابعة بلغت عشرين بيتاً : وأولها :

أنا المرئى بالآفها م ، والمعروف بالخُبر^(٢)

وإنما كان التكرير في الرثاء ، لما كانت الحاجة إلى التكرير ماسة ،
والضرورة إليه داعية ، لعظم الخطب ، وشدة موقع الفجعية ، واختلاف
المعاني التي عدت في الشعر .

وهذا يدل على أن الإطناب في موضعه عندهم مستحسن ، كما أن الإيجاز
في مكانه مستحب^(٣) .

وأما وجه التكرار في قوله — تعالى — : « لا أعبد ما تعبدون

(١) لا يعبدنك : لا يهلكنك من البعد بفتح العين من باب فوح ، وهو دعاء
خرج بلفظ النهي .

(٢) ديوانه ص ١٧٤ .

(٣) الصناعتين — ١٨٥ .

ولا أنتم عابدون ما أعبد ، من سورة «الكافرين» ، فقد أجاب عنه ابن قتيبة :
بأن القرآن لم ينزل دفعة واحدة ، وإنما كان نزوله شيئاً بعد شيء والأمر
في ذلك ظاهر .

فكان المشركين أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له : استلم بعض
أصنامنا حتى نؤمن لك ونصدق بنبيوتك ، فأمره الله — تعالى بأن يقول
لهم : « لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد » .

ثم غبروا مدة من الزمان ، وجاءوه فقالوا له : اعبد بعض آلهتنا ، واستلم
بعض أصنامنا يوماً أو شهراً أو حولاً ، لنفعل مثل ذلك بإهلك .
فأمره — تعالى — أن يقول لهم : « ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم
عابدون ما أعبد » .

أى إن كنتم لا تعبدون إلهي إلا بهذا الشرط ، فإنكم
لا تعبدونه أبداً .

وقد استضعف بعضهم هذا التأويل .

وذكر المرتضى^(١) في ذلك ثلاثة أجوبة :

١ — ما حكى عن ثعلب أنه قال : إنما حسن التكرار ، لأن تحت كل
لفظة معنى ليس هو تحت الأخرى .

وتلخيص الكلام : قل : يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون الساعة ،
وفي هذه الحال ، ولا أنتم عابدون ما أعبد فيما تستقبلون .

فاختلفت المعاني ، وحسن التكرار في اختلافها .

ويجب أن تكون السورة على هذا مختصة بمن علم أنه لا يؤمن .

(١) أمالي المرتضى - ١ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٥ .

وقد ذكر « مقاتل » وغيره : أنها نزلت في أبي جهل والمستهزئين ، ولم يؤمن من الذين نزلت فيهم أحد .

والمستهزئون هم : العاصي بن وائل ، والوليد بن المغيرة ، والأسود بن المطلب ، والأسود ، بن عبد يغوث ، وعدى بن قيس .

٢ — قول الفراء : وهو أن التكرار للتأكيد ، كقول الجيب مؤكداً بلى . بلى . والممتنع مؤكداً : لا . لا .

ومثله قوله — تعالى — : « كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون » .

ومنه قول الشاعر :

أرادت لنفسى بعض الأمور فأولى لنفسى أولى لها^(١)

٣ — تأويل صدر السورة : أنى لا أعبد الأصنام التي تعبدونها ، ولا أنتم عابدون الله الذي أنا عابده ؛ إذ أشركتم به واتخذتم الأصنام وغيرها معبودة من دونه أو معه ، وإنما يكون عابداً له من أخلص له العبادة دون غيره ، وأفرده بها .

وأما قوله في عجز السورة : « ولا أنا عابداً ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد » : فما ، وما بعدها في موضع المصدر : أى لست أعبد عبادتكم ، ولستم عابدين عبادتى ، فلم يتكرر الكلام ، لاختلاف المعانى .

وتلخيص المعنى : لا أعبد آلهتكم ومن تدعونه من دون الله ، ولا أنتم عابدون إلهى ، وإن زعمتم أنكم عابدون إلهى ، فأنتم كاذبون ، لأنكم من

(١) أولى لك : كلمة تحذير ؛ معناه : فأريك ما تكره .

غير الجهة التي أمركم بها تعبدونه ؛ فأنا لا أعبد مثل عبادتكم ، ولا أتم --
ما دمتم على ما أتم عليه - تعبدون مثل عبادتي .

ويقول ابن الأثير^(١) : وقد ظن قوم أن في الآية تكريراً لا فائدة
فيه وليس الأمر كذلك ؛ فإن معنى قوله : « لا أعبد » يعنى في المستقبل من
عبادة آلهتكم ، ولا أتم فاعلون فيه ما أطلبه منكم من عبادة لإلهي .
« ولا أنا عابد ما عبدتم » : أى وما كنت عابداً قط فيما سلف
ما عبدتم فيه .

يعنى : أنه لم يعبد منى عبادة صنم في الجاهلية في وقت ما ، فكيف يرجى
منى ذلك في الإسلام ؟ ولا أتم عابدون ما أعبد في الماضى في وقت ما ،
ما أنا على عبادته الآن .

وبالجملة فاعلم أنه ليس في القرآن مكرر لا فائدة في تكريره .

فإن رأيت شيئاً منه تكرر من حيث الظاهر ، فأنعم نظرك فيه ، وانظر
إلى سوابقه ولو أحقه ، لتكشف لك الفائدة منه .

على أن الرازى نفي أصالة : أن يسمى مثل هذا تكراراً ؛ فقال : وأما
ما تكرر في سورة الرحمن من قوله - تعالى - : « فبأى آلاء ربكما
تكذبان » .

فليس بتكرار ، لأنه - سبحانه - ذكر نعمة بعد نعمة ، وعقب على
كل نعمة بهذا القول ، وإنما عني بالتنبيه الجن والإنس .

ومعلوم : أن الغرض من ذكره عقيب نعمة : غير الغرض من ذكره
عقيب نعمة أخرى ، وإن كان اللفظ واحداً .

(١) المثل السائر : - ٢٣٤ . وانظر الكشاف - ٢ - ٥٦٤ .

وأما قوله تعالى — : « ويل يومئذ للمكذبين » فإنه ذكر ذلك عند قصص مختلفة فلم يعد تكراراً ، لأنه أراد بما ذكره أولاً : ويل للمكذبين بهذه القصة .

ثم لما أعاد قصة أخرى ذكر مثله على هذا الحد .

ولما اختلفت الفائدة خرج عن أن يكون تكراراً (١) .

وكذلك لا يعد من التكرار قوله — تعالى : « ثم إن ربك للذين عمدوا السيوف بجمالة ، ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » .

وقوله — تعالى : لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب .

وقوله — تعالى : ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » .

فما تكرر في هذه الآيات خارج عن حكم التكرير ، وذلك أنه إذا طال الفصل في الكلام ، وكان أوله يفتقر إلى تمام لا يفهم إلا به ، فالأولى في باب الفصاحة أن يعاد لفظ الأول مرة ثانية ، ليسكون مقارناً لتام الفصل كي لا يجيء الكلام منشوراً ، لا سيما في إن وأخواتها .

فإذا وردت « إن » ، وكان بين اسمها وخبرها فسحة طويلة من الكلام فأعادتها أحسن في حكم البلاغة والفصاحة .

وعلمه ورد قول شاعر الحماسة (٢) :

أسجناً وقيداً واشتياقاً وغربة ونأى حبيب إن ذا لعظيم

(١) نهاية الإيجاز : ١٦٧ - ١٦٨ .

(٢) في الحيوان للجاحظ : ٦ - ١٥٦ : أنها لبعض اللصوص ، وفي البيان والتبيين : ٢ - ٦٧ : أنها لأحد الأعراب .

وإن امرأ دامت موثيق عهده على مثل هذا إنه لكريم
فإنه - لما طال الكلام بين اسم إن وخبرها - أعيدت مرة ثانية ،
ولولم تعد لم يأت على الكلام بهجة ولا رونق .

وهذا لا يتنبه لاستعماله إلا الفصحاء إما طبعاً وإما علماً (٣) .

وفي بعض تكرار الآيات معنى آخر فطن إليه بعض علمائنا، ولم يكشف
لهم عن سره .

وأول من نبه عليه الجاحظ في كتابه « الحيوان » ، إذ قال: ورأيتنا أن
الله تبارك وتعالى - إذا خاطب العرب والأعراب ، أخرج الكلام مخرج
الإشارة والوحي والحذف .

وإذا خاطب بنى إسرائيل أو حبكى عنهم ، جعله مبسوطاً وزاد في الكلام:
أى كان ذلك مبالغة في إفهامهم ، وتوسع في تصوير المعانى لهم ، وتلويها
بالألفاظ إيجازاً في موضع ، وإطناً بآ في موضع ، إذ كانوا أقوماً لا سلبقة لهم
كالعرب ، وليسوا في حكمهم من البيان ، فلا يعضى كلامهم لسننه بلا اعتراض
من تنافر التركيب ، وثقل الحروف ، وجفاء الطبيعة اللغوية .

فلهذا ونحوه كان لا بد في خطابهم من التكرار والبسط والشرح بخلاف
العرب ، فإن الخطاب يقع إليهم على سنن كلامهم من الحذف ، والقصد
إلى الحجية ، والاكتفاء بالمحجة الدالة ، وبالإشارة الموحى بها ، وبالكلمات
المتوسمة ، وما يجرى هذا المجرى .

وهذا صحيح ، ولكنهم أخطئوا وجه الحكمة فيه ، فقد كان في اليهود
متكلمون وشعراء وأنبياء ، والخطاب في القرآن كله ، يسمعه العرب واليهود

فلا ينكرون جميعاً من أمره شيئاً ، ولكنهم سر من أسرار الأدب العبراني جرى القرآن عليه في أكثر خطابه لليهود خاصة ، ليعلموا أنه وضع غير إنساني ، وليحسوا من معاني إعجازه كما أحس العرب ، إذ كان أبلغ البلاغاء في الشعر العبراني القديم ، قصاره أن تجتمع له رشاقة العبارة ، وحسن المعرض ووضوح اللفظ ، وفصاحة التركيب ، وتكرار الكلام لكل ما يفيد التكرار ، وتوكيداً ومبالغة وإبانة وتحقيقاً ونحوها ، ثم استعمال الترادف في اللفظ والمعنى ومقابلة الأضداد وغيرها ، مما هو في نفسه تكرار آخر للمحسنات اللفظية ، وتحسين للتكرار المعنوي^(١) .

وقد احتفل ابن الأثير بهذا الضرب من الكلام ، فقسمه أقساماً ، وشقق منها فروعاً ، وساق لها كثيراً من الأمثلة النثرية والشعرية ، ومزجها بالوان من النقد ، بث فيها حياة وخصباً ونماء وغناء .

وكان للاستدلال من القرآن الكريم نصيب موفور من عنايته .
وقد بدأ بتقسيمه إلى قسمين :

١ - تكرار في اللفظ والمعنى ، وهو إما مفيد أو غير مفيد .

والمفيد : إما أن يدل على معنى واحد ، والمقصود به غرضان مختلفان ، كقوله - تعالى - : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتوَدُونَ أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يُحِقَّ الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين ، لِيُحِقَّ الحق ، وَيُبْطِلَ الباطل ، ولو كره المجرمون » .

فقوله : « يُحِقُّ الحق ، وليحِقَّ الحق » تكرار في اللفظ والمعنى .

وإنما جرى به هنا ، لاختلاف المراد ، وذلك : أن الأول : تمييز بين الإرادتين .

(١) إيجاز القرآن للرافعي : ٢٠١ .

والثاني : بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها، وأنه ما نصرهم ، وخذل أولئك إلا لهذا الغرض .

وكقوله - تعالى - « كذب قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ، إني لكم منه رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون . »

فكرر : « فاتقوا الله وأطيعون ، ليؤكد به عندهم ، ويقرره في نفوسهم ، مع تعليق كل واحد منهما بعلة .

فجعل علة الأول : كونه أميناً فيما بينهم .

وجعل علة الثاني حسم طمعه عنهم ، وخلوه من الأغراض فيما يدعوهم إليه .

ولما أن يدل على معنى واحد ، والمراد به غرض واحد ، كقوله - تعالى - : « فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر » .

والتكرير دلالة على التعجب من تقديره ، وإصابته الغرض ١١ .

وورد عليه قول الشاعر :

ألا يا أسلمى ثم أسلمى ^{تمت} أسلمى .

مبالغة في الدعاء لها بالسلامة .

وكل هذا يجاء به لتقرير المعنى المراد وإثباته .

ومن هذا النوع : أن يكون المعنى مضافاً إلى نفسه مع اختلاف اللفظ .

وذلك في الألفاظ المترادفة ، كقوله - تعالى - : « والذين سعوا

في آياتنا معاجزين ، أولئك لهم عذاب من رجز اليم » .

والرجز : هو العذاب .

وقول أبي تمام :

نهوض بشقل العيب مضطلع به وإن عظمتم فيه الخطوبُ وجائت
والثقل : هو العيب .

وقول البحتري :

توتهمتها ألولى بأجفانها الكرى كرى النوم ، أو مالت بأعطافها الخز
فالكرى : هو النوم .

والفائدة في كل ذلك : تأكيد المعنى المقصود ، والمبالغة فيه .

فعذاب من رجز : أى عذاب مضاعف .

وثقل العيب : مبالغة في وصف الممدوح بحمله الأثقال .

والكبرى كرى النوم : تكرير للمعنى على طريق المضاف والمضاف
إليه ، تأكيداً له ، وزيادة في بيانه .

وأما التكرار في اللفظ والمعنى — وهو غير مفيد — فقول مروان
الأصغر :

سقى الله نجداً ، والسلام على نجد وياحبسنا نجد على النساء والبعد
نظرت إلى نجد وبغداد دونها لعلى أرى نجداً ، وهيات من نجد

وهذا من العي المضاعف ؛ فإنه كرر ذكر نجد في البيت الأول ثلاثاً ،
وفي البيت الثاني ثلاثاً .

ومراده في الأول : الثناء على نجد ، وفي الثاني : أنه تلفت إليها ناظراً
من بغداد ، وذلك مرعى بعيد .

وهذا المعنى لا يحتاج إلى مثل هذا التكرير .

أما البيت الأول فيحمل على الجائز منه ، لأنه مقام تشويق وتحرق وموجده
بفراق نجد .

ولما كان كذلك أجزير فيه التكرار .

على أنه قد كان يمكنه أن يصوغ هذا المعنى الوارد في البيتين معاً ، من غير أن يأتي بهذا التكرار المتتابع ست مرات .
وقول شاعر :

ألا طرقتنا بعد ما هجعوا هند وقد سرن نخساً واتلاب^(١) بنا نجد
ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأى والبعد
وقد قال فيه أبو العلاء : من حبه لهذه المرأة لم ير تكرير اسمها عيباً ،
ولأنه يجد التلطف باسمها حلاوة .

فلم ير الاعتذار من التكرير إلا هذا العذر^(٢) .

وهو عذر جاوز حد القبول .

ومن هذا أيضاً قول المتنبي :

ولم أر مثل جيرانى ومثلى لمثلى عند مثلهم مقام

لمثلى : خبر مقدم لمقام الذى هو مصدر ميمي بمعنى الإقامة ، والجملة مفعول
ثان لقوله : لم أر .

ويحتمل أن يكون أراد الاستفهام التعجيبى ، فحذف الهمزة لضيق المقام
أى المثلئ مقام عند مثلهم !!

فهذا هو : التكرار الفاحش الذى يؤثر فى الكلام نقصاً .

ومعنى البيت لم أر مثل جيرانى فى سوء الجوار ، ولا مثلى فى مصابرتهم
ومقامى عندهم .

٢ - تكرر فى المعنى دون اللفظ .

(١) اتلاب : استقام وامتد .

(٢) سر الفصاحة : ٩٦ .

وهو كذلك مفيد وغير مفيد .

والمفيد : إما أن يدل على معنيين مختلفين ، كقول حاطب بن أبى بائنة
لرسول — صلى الله عليه وسلم — : «... ما فعلت ذلك كفرة ، ولا ارتداداً
عن ديني ، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام .

وذلك حين عاتبه الرسول الكريم على كتابته لأهل مكة يخبرهم ببعض
شأن المسلمين .

فقد يظن أن قول حاطب من التكرار ، وليس منه ، لأن معناه : أني لم
أفعل ذلك وأنا كافر : أى باق على الكفر .

ولا أنا مرتد : أى كفرت بعد إسلامي .

ولا رضا بالكفر بعد الإسلام : أى ولا إشاراً لجانب الكفار على
جانب المسلمين .

ويدخل في هذا النوع : أن يكون التكرار في المعنى يدل على معنيين .
أحدهما : خاص ، والآخر : عام ، كقوله — تعالى — : «حافظوا على
الصلوات والصلوة الوسطى ..» .

وقوله — سبحانه — : «فيهما فاكهة ونخل ورمان» :

وإما أن يدل على معنى واحد لا غير .

وقد ورد في القرآن كثيراً ، كقوله — تعالى — حكاية عن نبيه يعقوب
— عليه السلام — : «قال إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله» .

فإن البث والحزن بمعنى واحد ، وإنما كرره ههنا ، لشدة الخطب النازل
به ، وتكاثر سهامه النافذة في قلبه .

وبما ورد من التكرار بذكر الخاص بعد العام : قول الأعمش :

فأبيت لا أرثي لها من كلاله ولا من وجسى حتى تلاقى محمداً

فإن الوجى والسكالة معناهما سواء ، وإنما حسن تكريره هنا للإشعار
ببعده المسافة .

وقول بعض الشعراء ، وهو 'بكَـير بن الأخنس :

نزلت على آل المهلب شاتياً بعيداً عن الأوطان في الزمن المحل
فما زال بي إكرامهم وافتقادم وإحسانهم حتى حسبتهم أهلي
فإن الإكرام والافتقار : داخلان تحت الإحسان : وإنما كرر ذلك
للتنويه بذكر الصنيع والإيجاب لحقه (١) .

أما تكرار المعنى دون اللفظ غير المفيد فكقول أبي تمام :
تقسم الزمان ربوعها بين الصبا وقبولها ودبورها أملاً (٢)
فإن الصبا هي القبول (٣)

والذي نأخذه على ابن الأثير : ضيق أفقه اللغوى مما حواه إلى عدم
التوفيق في اختيار الأمثلة ، وجعله مضطرباً في فهمه لمعنى الترادف . فهو
— فيما عدا الصبا والقبول — خاذه الصواب والسداد ، فالبث : الحال ،
وأشد الحزن . والسكالة : الإعياء ، والوجى : الحفا . والإكرام : التعظيم
والتنزيه . والإحسان : ضد الإساءة . والافتقار : طلب الشيء عند غيبته ،
والتفتيش عنه ، فليس بين هذه الأشياء التي ذكرها ترادف كما هو ظاهر
ولعله أراد الاستواء في المعنى العام والتفسير باللازم .

وللتكرار عند ابن رشيق مواضع يحسن فيها ومواضع يقبح فيها .

(١) راجع تفصيل ذلك في المثل السائر : ٢٣٢ إلى ٢٤٣ .
(٢) الدبور : الريح تقابل الصبا ، وتهب من الغرب : أى من حيث يدبر النهار .
(٣) نقل عن النضر بن شميل : أن القبول ريح على الصبا ما بينها وبين الجنوب ، وهذا غير
معروف ولا معمول عليه ، الموازنة : ١ - ١٤٥ .

وأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني ، وهو في المعاني دون الألفاظ أقل .

فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعاً ، فذلك هو الخذلان بعينه (١) .

وقد زرى الحموى على التكرار ، وجرده من القيمة البلاغية ، ولم يجعل له بأنواع البديع قريبي ولا نسباً لنزول قدره عنها .

ولعل السر في ذلك : أن حد التكرار عنده ، هو : أن يكرر المتكلم اللفظة الواحدة باللفظ والمعنى (٢) .

ومتى كان التكرار من هذا النمط الذي عرفه الحموى ، دون أن يقيد بشرط يحقق تحسيناً في اللفظ أو المعنى ، فلا شك أن عدمه خير من وجوده . وقد وصفه ابن الأثير بأنه غير مفيد ، وعده ابن رشيق من الخذلان كما تقدم .

وصفوة القول : أن التكرار في القرآن الكريم على اختلاف فنونه اقتضته البلاغة الرفيعة ، ووقع موقعه من الصناعة العربية الفخمة ، وأساليها العالية ، فنزل منزلة التسليم والقبول من المزاج العربي والطبع العربي والذوق العربي ، ولو لم يكن مذهبا معروفاً مألوفاً وطريقاً لاجباً مسلوفاً لعابه خصوصه اللئذ ، وقد تحداهم فافتضحوا بالعجز البين .

فالتكرار في التنزيل الحكيم ورد للتخويف ، أو التفجع ، أو التهويل وما إليها .

وقد يأتي بأداء المعنى الواحد في صورتين مختلفتين صياغة وعبارة وترتيباً ؛ إمعاناً في التحدى ، وإلحاحاً للخصوم .

ثم إن في التكرار — إلى ذلك لإثبات قدرته — تعالى — على تكرير

(١) العمدة : ٢ - ٥٩ .

(٢) خزنة الأدب : ٢٠٥ .

ما يقول في قوالب متنوعة ، ونسق مختلف مع اتحاد المعنى ، ووقوع الإعجاز وذلك غير متأت لغيره .

وليقوم الدليل أيضاً على أن أسلوب القرآن لا يقف عند صورة بعينها ونظم لا يختلف ، حتى لا يفسح مجال القول لمن يتحداهم . بأن سبب عجزهم هو وقوفهم أمام قالب جامد لا يتغير ولا يتبدل .

وكأنه بذلك يوسع أمامهم المنداح ، ويمهد لهم السبيل ، ويمنحهم الفرص الرجئية - لياتوا بمثله - فلم يبق إلا الاعتراف بالعجز الكامل بعد أن أعذر إليهم ، وأنصفهم كل الإنصاف وقطع عليهم أسباب التعلل .

وقد جرى هذا النوع كثيراً على ألسنة الشعراء

فمن ذلك : ما أنشده الفرّاء :

كم نعمة كانت لكم كم كم .
وأنشد أيضاً :

نَعَقَ الغراب بيسن لبني نَعْدُوَ كم كم وكم لفراق لبني ينعق^(١)
وكقول محمد بن منذر البصرى^(٢) في معنى التكثير :

كم كم كم كم كم كم كم كم قال لي أنجز حرماً ما وعدت
فزاد على الواجب وتجاوز الحد .

وقول بعض الشعراء .

لو كنت كنت كتتمت الحب كنت كما كنا نكون ولكن ذاك لم يكن

وقول أبي تمام :

وليس يحتاج إلى دليل على قبحه للتكرار ، أكثر من سماعه .

(١) في رواية : نَقَق .

(٢) منذر : بفتح الميم وضمها .

فالمجد لا يرضى بأن ترضى بأن يرضى المؤمن منك إلا بالرضا
وفد أنشده أبو تمام ، أحمد بن أبي دؤاد ، فقال له إسحاق الموصلي
لقد شققت على نفسك يا أبا تمام ، والشعر أسهل من هذا (١) .

وقول ابن الزيات :

أتعرف أم تقيم على التصابي فقد كثرت مناقلة العتاب (٢)
إذا ذكر السلوة عن التصابي نفرت من اسمه نقر الصّحاب (٣)
وكيف يلام مثلك في التصابي وأنت فتي المجانة والتصابي
سأعزف إن عزفت عن التصابي إذا ما لاح شيب بالغراب
ألم ترني عدلت عن التصابي فأغرتنى الملاحاة بالتصابي

وفيه يقول ابن رشيق : فمأ الدنيا بالتصابي | على التصابي لعنة الله
من أجله |

فقد برد به الشعر لاسيما وقد جاء به كاه على معنى واحد من الوزن ،
لم يعد به عروض البيت (٤) .

وقد أكثر المتنبي من هذا النوع المرذول ، وعدده الشعالي من عيوبه (٥) .
كقوله :

ومن جاهل بي وهو يجهل جهله ويجهل علمي أنه بي جاهل
لأنه ذكر الجهل خمس مرات ، وكرري ، فلم يبق من ألقاظ البيت
مالم يجاوزه إلا اليسير .

(١) سر الفصاحة : ٩٠ .

(٢) عزف عنه : زهد فيه وانصرف عنه ، أو مله .

(٣) الصّباب : جمع صباب ؛ وهو العسر والأبي والأسد والبل .

(٤) العدة : ٢ - ٦٢ .

(٥) يتيمة الدهر : ١ - ٣٩ .

وقوله :

فقلقت بالهم الذى قلقل الحشا قلاقل عيسٍ كُشِين قلاقل (١)
حتى قيل فيه : ان كله قلاقل ١١

وقوله :

وأجع من فقَدنا من وجدنا قبيسُ الفقد مفقود المثل
وقد قال فيه «الصاحب» وما زال الناس يستبشعون قول مسلم
ابن الوليد (٢) :

سَلتَ وسَلتَ تمُّ سَلَّ سَليلها فأتى سَليلُ سَليلها مسلولاً
حتى جاء هذا المبدع فقال هذا البيت ، وأظن المصيبة فى الرأى أعظم
منها فى المرثى .

وقوله :

عُظمت فلما تُسكَّتم مهابةً تواضعتَ وهو العُظمُ عظاماً عن العُظم (٣)
وفيه يقول الصاحب : ما أكثر عظام هذا البيت ! مع أنه من قول
الطائي :

تعظمت عن ذلك التعظيم فيهم وأوصاك عظيم القدر أن تتنبأ
ويذكرون أن الأصمعى أنشد قول الشاعر :
فما للنوى جُدَّ النوى قُطع النوى كذلك النوى قُطاعة لوصال

(١) العيس : الإبل البيض ، ومناه : أنى حركت بسبب الهم الذى حرك نفسى لإبلا خعما
فى السير .

(٢) قاله فى وصف الخمر : والمعنى : أنها رقت بطول القدم ، ثم رقت رقيقاً فأتى رقيق رقيقها رقيقاً .

(٣) يقول : لما عظمت حتى لم يستطع أحد أن يكلمك مهابة لك ، تواضعت متعظماً عن طلب
العظمة ، وهذا التواضع يعد من العظمة ، لأنه تواضع العظيم .

فقال : لو سأل الله - تعالى - على هذا البيت شاة ، فأكلت هذا النوى كله ا .

وقول المتنبي أيضاً يمدح القاضي المالكي :

ولست بدون يرتجى الغيث دونه

ولا منتهى الجود الذي خلفه خلف

ولا واحداً في ذا الوري من جماعة

ولا البعض من كلِّ ولكنك الضعف

ولا الصعف حتى يذبح الضعف ضعفه

ولا ضعفَ ضعفِ الضعف بل مثله ألف^(١)

والشاهد في البيت الأخير :

وفي هذا البيت يقول ابن سنان الخفاجي : كنت حاضرأ عند شيخنا

أبي العلاء - وقد قرئت عليه قصيدة لأبي الطيب - فلما وصل القارىء إلى قوله :

ولا الضعف

قال هذا والله شعر مدبر^(٢) ! !

وكان من العصبية لأبي الطيب على الصفة التي اشتهرت عنه^(٣) .

وقوله :

أراه صغيراً قدرها عظيم قدره فما اعظيم قدره عنده قدر^(٤)

(١) الضعف مطوف على حبر ايس ، ومثله : منصوب على الحال مقدماً من ألف .
وألف : خبر لمتدا عنوف : أى أنت ألف مثله .

(٢) أدبر الرجل : دخل في الشيخوخة .

(٣) قدرها : الضمير فيها يعود على الدنيا .

(٤) سر الفصاحة - ٩٠ .

وقوله :

وما أنا وحدي قلت ذا الشعر كآله ولكن اشعري فيك من نفسه شعر

وقوله :

واني وإن كان الدفين حبيبه - حبيبٌ إلى قلبي حبيب حبيبي^(١)

وقوله :

إنما الناس حيث أنت وما لنا س بناس في موضع منك خالي

وقوله :

لك الخيرُ غيري رام من غيرك الغنى وغيري بغير اللاذنية لاحق

وقوله :

ولولا تولائي نهبه حمل حمله عن الأرض لانهدت وناء بها الحمل

وقوله :

ملولة ما يدوم ، ليس لها من ملل دائم بها ملل^(٢)!

وقوله :

ونهب نفوس أهل النهب أولى بأهل النهب من نهب القماش

وقوله :

قبيل أنت أنت وأنت منهم ، وجدك بشر الملك الهمام

قال الواحدى : أراد : قبيل أنت منهم ، وأنت أنت في علو قدرك .

يعنى : إذا كنت أنت وجدك بشر منهم ، فكفاهم بذلك نخرآ .

(١) الدفين : المراد به : مملوك سيف الدولة « يماك » .

(٢) ملولة . . . : يريد أن المحبوبة تمل كل شيء يدوم ماعد الملل . فإنها لاتمله .

وقد أخرج وأو العطف في قوله : وأنت ، وهو قبيح جداً ، وهذا كما تقول : قامت زيد وهند ، وأنت تريد : قامت هند وزيد ١١

وقوله : جواب مسألي : أله نظير ولا لك في سؤالك لا ألا لا
أى إذا سألتني سؤال : هل لهذا الممدوح نظير ؟

لجوابي له : لا ، ولا لك أيضاً — يا أيها السائل — نظير في هذا السؤال
الذي لا يسأله عاقل ١١

وأراد : لا ولا لك ، فأخرج المعطوف عليه ضرورة .

وقوله : ألا لا : تكرر للجواب ، وقد أراد به تأكيد النفي تنبيهاً على
شدة بطلان السؤال .

وفي ذلك يقول صاحب — متيماً — : ما قدرت أن مثل هذا البيت
يلج سماعاً ١١

وقد سمعت الفأفأ ، ولم أسمع اللألاء ، حتى رأيت هذا المتكلم
المتعسف ، الذي لا يقف حيث يعرف ١١

وقوله :

أسند فرائسها الأسود يقودها أسدٌ تصير له الأسود ثعالباً
وقد قال فيه بعض النقاد : لا أدري كيف تخلص من هذه الغابة التي
كلها أسود ١١

والحق . أن المتنبي كثر في شعره هذا السخف كثرة تسترعى النظر ،
حتى لكانه كان يعتمد على ليعيظ به الناس ، وما كان أجدره باطراحه بعيداً
عن شعرة وتصفية ديوانه منه ، ولكن الشاعر مفتون بما يقول فتنته بانه ،
ولله در القائل :

ويسىء بالإحسان ظناً لا كمن هو بائنه أو شعره مفتون

وإذا كان المعرى — على تعصبه له حتى سمي ديوانه « معجز أحمد » — قال في بعض هذه الأبيات: هذا شعر مدبر ، فماذا يقول الناقد المنتصف أو الجائر؟ لا بد أن يقول — على أحسن الحالين — إن المتنبي كانت تنقصه الأذن الموسيقية المرهفة ، والحاسة الغنية الدقيقة ، التي تفرق بين الالحن الغليظ الحشن واللطيف الرقيق .

وقد وقع أصحاب البديعيات في هذا الضرب المستقيم؛ لتكلفهم صوغ الأمثلة له :

فقال صفي الدين الحلبي في بديعياته .

الطاهر الشميم ابن الطاهر الشميم ابن الطاهر الشميم

وقال عز الدين الموصلى :

تكرار مدحى هدى فى الشامل النعم ابن الشامل النعم ابن الشامل النعم

وقال الحموى :

تكرار مدحى حلا فى الزامد الكرم ابن الزامد الكرم ابن الزامد الكرم

ومن الغريب أن الحموى — وهو من خصوم التكرار المستهجنين له

— كما تقدم — يقول فى بيته :

والذى يظهر أن مكرر بيتى : حلاوته ظاهرة على بيت الشيخ عز الدين ،

فإن مكرره ناقص الحلاوة^(١) .

ولا أدرى أين توجد المرارة إن لم توجد فى هذه الأبيات جميعها ، وأولها

بيت الحموى !!

وأحسب أن هؤلاء قد أخذوا هذا النسق من قول المتنبي - يمدح أبا
عبدالله الخصبي - :

العارضُ الهتن ابن العارض الهتن ابن العارض الهتن ابن العارض الهتن

وقد قال فيه الخفاجي (١) : فأما قول أبي الطيب ، فمن أقبح ما يكون
من التكرار وأشنع ، وإذا كان يقيح تكرار الحروف المتقاربة المخارج
فكترار الكلمة الثانية أقبح وأشنع .

وفيه يقول ابن الأثير (٢) : وقد زعم قوم من مدعى هذه الصناعة :
أن أبا الطيب أتى في هذا البيت بتكرير لا حاجة به إليه .

وليس في هذا البيت من تكرير ، فإنه كقولك : الموصوف بكذا وكذا
ابن الموصوف بكذا وكذا .

أي إنه عريق النسب في هذا الوصف .

وقد ورد في الحديث النبوي مثل ذلك كقول الرسول الكريم في وصف
يوسف الصديق - صلوات الله عليهما - : « إنما الكريم ابن الكريم ابن
الكريم ابن الكريم : يوسف بن إسحاق بن يعقوب بن إبراهيم » .

ثم يقول : ولقد فاوضني في هذا البيت المشار إليه بعض علماء الأدب ،
وأخذ يطعن فيه من جهة تكراره ، فوقفته على مواضع الصواب منه ، وعرفته
أنه كالخبر النبوي من جهة المعنى سواء بسواء ، لكن لفظه ليس بمرضى
على هذا الوجه الذي قد استعمله فيه ، فإن الألفاظ إذا كانت حسناً في حال
انفرادها ، فإن استعمالها في حال التركيب يزيد حسناً على حسنها ، أو
يذهب ذلك الحسن عنها .

(١) سر الفصاحة — ٩٥ .

(٢) المثل السائر — ٢٣٨ .

ولوتهمياً لأبي الطيب أن يبدل لفظة العارض بلفظة السحاب أو ما
يجرى مجراها لكان أحسن .
وكذلك لفظة الهتن ، فإنها ليست مرضية في هذا الموضع على هذا الوجه .
ولفظة العارض وإن كانت وردت في القرآن - وهي لفظة حسنة -
فالفارق بين ورودها في القرآن الكريم وورودها في هذا البيت الشعري ظاهر .
وقد أخذ العلوي (١) قول ابن الأثير واختلفه - وكثيراً ما يفعل ذلك -
فقال : من الناس من صوبه في تكريره - يعنى المتنبى - ومنهم من قال :
إنه أساء فيما أورد من ذلك .

والأقرب : أنه مجيد في منلقى التكرير ؛ فإنه دال على إغراق الممدوح
في الكرم ، ولكن غير المحمود : لفظة العارض والهتن فهما ليستا واردتين
على جهة البلاغة فيه ، لقلة الاستعمال لهما .

فمن أجل ذلك ، كان ما قاله ليس بالغاً في البلاغة مبلغاً عظيماً ، إلا من
جهة التكرار فإنه محمود لا محالة .

وهذا معنى كلام ابن الأثير المتقدم ، ولكنه غطى سرقة له باختصاره
ونحن نخالفها فيما ذهبنا إليه من استكراره لفظي العارض والهتن ،
فليستا ثقيلتين ولا غريبتين .

ولأنحمد من هذا البيت ما حمده ، بل نعه رديثاً سفيفاً مردولاً أشبه
ما يكون بعيب الأطفال ، سواء أكان من نوع التكرير أم لا .

والمدح بالعراقة في صفة من الصفات ، لا يستوجب هذا الإلحاح الثقيل
على لفظ معين .

وللتبني أبيات مرقصة في ذلك ، منها قوله في مدح الحسين بن علي الهمداني :
وجدت علياً وابنه خير قومه وهم خير قوم وأستوى الحر والعبد

وأصبح شعري منها في مكانه وفي عنق الحسناء يُستحسن العِقد.

فقد قصر السيادة على الممدوح وابنه وأسرته ، ورحمهم فوق الناس جميعاً في إيجاز بالغ ، لم يحتج فيه إلى ملء الشدق بهذه الإعادة الثقيلة المملة .

والفرق بين التكرار في بيت المتنبي السابق وبين الحديث الشريف ، كالفرق بين الخنزف والدر ، فإن الذي حسّن تكرير « الكريم » في قول الرسول الكريم : أن يوسف وآبائه جميعاً أنبياء معروفون ، وقد جاءوا متتابعين في نسق واحد لا يقطعه فاصل .

فكل كريم يشير إلى واحد من هؤلاء الأنبياء — عليهم السلام — بل يكاد لقوة التصاق النبوة بهم ، وانطباقها عليهم ، يجرى مجرى العلم . ولهذا نرى الرسول — صلوات الله عليه — وقف عند إبراهيم — عليه السلام — .

ولو كان والد إبراهيم نبياً لحسن أن يقول: ابن الكريم أيضاً .
وقد كان يحسن تكرير المتنبي لو أنه جاء على نظام التكرير في قول الشاعر :

قيس العلاء . قيس الندى . قيس الكرم

ويخيل إلى أن هذا النوع التي تقع فيه « ابن » لا يقبح في الشعر ، بل لعله يحسن إذا كرر مرتين فقط ، كما يتجلى لنا من مطالعة الأشعار الكثيرة .

فإن ذلك قول « مطران » في رثاء الأمير « شكيب أرسلان » (١) :

العالم العربي من أطرافه بادي الوجوم منكس الأعلام
يبكى أمير بيانه ، يبكي قتي فتياه في الكرم والإقدام

(١) ذكرى الأمير شكيب أرسلان للأستاذ محمد علي الطاهر — ٢٧ .

يبكى العصاميّ الكبير بنفسه والسيد بن السيد القمّ مقام (١)
ولكن بما لا يرتاب فيه الناظر: أن هذا التكرار يجمّل في الهجاء،
ويخف على السمع، لأنه يثير الضحك من المهجور، ويلبس صورة الفكاهة،
كقول بعض الشعراء:

ولقد هزرتك للدمج فكنتَ ذا نفس لكعبة (٢)
أنت الرقيع ابن الرقيع ابن الرقيع ابن الرقيع (٣)

وقد صرح ابن الأثير: بأن تكرار الألفاظ المتغايرة ذات المعنى الواحد
يعاب في النثر مطلقاً، وأما في النظم، فيعاب فقط في صدور الأبيات
وما والاها دون الأعجاز، لمكان القافية لأنها موضع ضرورة.
ودلك مثل قول الحطيئة:

قالت أمّامة لا تجزع فقلت لها: إن العزاة وإن الصبر قد غلبا
هلا التمتت لنا - إن كنت صادقة - مالا نعيش به في الناس أو نشبا
فالبيت الأول معيب لأنه كرر «العزاة» و«الصبر» ومعناهما واحد
ولم يرد قافية.

وأما البيت الثاني فليس بمعيب لأن التكرار جاء في النشوب
وهو قافية.

ومن ذلك أيضاً قول الأُمْنَحَل اليَشْكُرى:

ولقد دخلت على الفتاة الخدر في اليوم المطير (٤)

(١) القمّ مقام بالفتح والضم: السيد.

(٢) الكعبة: اللثيمة والحقاء.

(٣) الرقيع: الأحمق.

(٤) خص اليوم المطير: لأنه لا يصلح للصيد، بل يصلح للهو والأنس.

الكاعب الحسناء تر نفل في الدمع مقس وفي الحرير

فإن « الدمع مقس » والحرير « معناهما : سواء .

وكذلك « خلفه » و « وراه » .

ولابأس بهما لوقوعهما قافية في قول الشاعر الجاسي (١) :

إني - وإن كان ابن عمي غائبا - لُممقاذف من خلفه وورائه (٢)

ولا نستطيع أن نقره على ذلك، فالتكرار الخالي من الفائدة، لا يحسن في نثر ولا نظم، ولا في صدور الأبيات ولا في أحجازها .

وهو لم يحسن اختيار التمثيل كما هي عادته في أحيان كثيرة، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل . فمعنى العزاء : الصبر، أو أحسن الصبر .

فهو على ذلك لا يعاب، لأنه غير مكرر .

ومراد الشاعر . ذهب الصبر كله : أدناه وأعلاه، وأقله وأكثره .

والمال : ما ملكته من كل شيء، وهو عند أهل البادية - ومنهم

الخطيئة - : النعم .

ويقول البغدادي : المال عند العرب : الإبل، وعند الفقهاء :

ما يتم ووصل أي ما يعد مالا في العرف .

والنشب : المال الأصيل . وقيل : العتقار . وقيل : المال والعقار .

فبين المال والنشب - كما ترى - شيء من الاختلاف، فانتفى التكرار .

والدمع مقس : أعم من الحرير : لأنه الحرير الأبيض، أو القز، أو

الديباج أو السكتان .

ووراء : يكون بمعنى « خلف » تارة، وبمعنى « أمام » أخرى .

(١) هو الهذيل بن مشجعة كما في حاشية المرزوق - ٤ - ١٦٨٠ .

(٢) رواها السكري في ديوان المعاني - ١ - ١١ لابن غزوية المدني، وجاء البيت هكذا :

إني - وإن كان ابن عمي واغرا - لمزاحم من خلفه وورائه

وعلى المعنيين جاء قوله — تعالى — : « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » .

وعلى المعنى الأخير جاء قوله — سبحانه — : « ومن وراءهم برزخ إلى يوم يُبْعَثُونَ (١) » ، أى من أمامهم . وأرجح أن يكون الشاعر قد أراد المعنى الأخير ، فليس فى هذه الألفاظ تكرار عند التدقيق ، وهى — إن حسنت — فليس ذلك لوقوعها آخر البيت ، ولكن لاختلاف مغايتها .

هذا ما كنت رأيته باجتهادى ، ثم قرأت بعد ذلك ما كتبه المرزوقى ، فإذا هو يقول : يصف — أى الشاعر — كرم محافظته وحسن نيابته عن غياب أهله وذويه ، فيقول : لئن لمدافع ومُرام دون ابن عمى — إذا غاب عنى — فأذب من قدامه وخلفه .

والمعنى : أنى أقاتل دونه وأكون هاديا له وقد تخلف عنى ، أو حاديا له وقد تقدمنى ؛ فقوله من وراءه ؛ من البين الظاهر أنه بمعنى التقدم ، وقد ذكر معه خلفه ، واشتقاقه من المواراة وهى المساترة ، ولذلك صلح وقوعه موقع الخلف والقدام ، وفى القرآن « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » . وموضع من خلفه نصب على الحال : أى متخلفا أو متقدما (٢) .

وقد عد ابن سنان الخفاجى قول بعضهم :

ولولا دموعى كتمت الهوى ولولا الهوى لم تكن لى دموع
بأنه ليس من التكرار المكروه .

وذلك لأن المعنى مبنى عليه ، ومقصود على إعادة اللفظ بعينه .

وهذا حد يجب أن تراعيه فى التكرار ؛ ففى وجدت المعنى عليه ، ولا يتم إلا به ، لم يحكم بقبوحه .

(٢) الكشاف - ١ - ٧٢٥ .

(١) مقاذف : من المقادلة وهى الرمى .

(٣) حاسة المرزوقى - ٤ - ١٦٨٠ .

ومتى خالف ذلك ، قضيت عليه بالاطراح ، ونسبته إلى سوء
البضاعة (١) .

والذى أراه : أن التكرار يمدح ، ويذم بحسب انطوائه على الفائدة
المقصودة ، أو خلوه منها .

فهناك تكرار لقطعة ، أو لجملة بعينها يحمد بلاغيا ؛ لوفائه بالغرض ،
واحتمياج المقام إليه ، كقوله — تعالى — : «فإن مع العسر يسرا ، إن
مع العسر يسرا» .

وقول عبيد بن الأبرص :

هتلا سألتُ مجموع كندة

يوم ولدتُ وأين أيننا

وقول آخر :

إلى مَعدِن العز المؤثِّل والندى هناك هناك الفضل والنائل الجزل
وقول بعض العصريين :

لم ير الناسُ للصدِّيق أبي بكر مشيلا وأين أين المشيل (٢)

فالتكرار في هذا كله واقع موقعه الذى لا محيد عنه ، ولو خلا منه الكلام
لذهب شطر حسنه ، بذهاب التوكيد والمبالغة المقصودين من المتكلم .

ولكنك لا تلس فائدة للتكرار ، ولا تحس تنغيا يندى على قلبك ،
ولا حلاوة تسيغها نفسك في مثل قول الكلابية العُرفى اليربوعى (٣) :

إذا المرء لم يغشَ الكريهة أو شكت حبالُ الهوينى بالفتى أن تقطعا

لأن الفتى حشو واضح ، وكان يكفي أن يقول «به» لتقدم ذكر المرء
الذى يغنى عن ذكر الفتى .

(١) سر الفصاحة — ٩٩ .

(٢) أغاريد السحر — ٦٤ .

(٣) معنى الكلابية : صوت النار ولهبها ؛ كذا في العباب ، وزاد القاموس كلابيه

بالسيف : ضرب به .

وقول زيد الخيل - يخاطب كعب بن زهير - :
يقول أرى زيدا - وقد كان معدما أراه لعمري قد تموتل واغتنى
فقوله : أراه : حشو لا فائدة منه .

وقول قيس بن منقذ المعروف بابن الحدادية :
إن الفؤاد قد امسى هائما كلفا قد شفه ذكر سلسي اليوم فانتكسا (١)
فأتى بقدر في مصراعي بيت واحد .

ثم زاد على ذلك قبجاً آخر حين أتى بأمسى واليوم مع تناقضهما .
وقول أبي تمام يصف قصيدة :

خذها ابنة الفكر المهدب في الدجى والليل أسود رُقعة الجباب
فالدجى : حشو ، لأن في القسم الثاني ما يدل عليه .

فإن لم يكن في القسم الأول حشو ، كان القسم الثاني بأسره فضلة (٢)
هذا فيما يتعلق بتكرار اللفظ والجمل المتحدتين في المعنى .

وأما التكرار بالترادف ، فنه تكرر لا يزيد الكلام بهجة ، ولا يمنحه
فائدة ، وهو مستقبح حيث وقع ، وقصاراه : أنه يضع الوقت ، ويورث
التعب ، ويبغض في القراءة والاستماع ، ويوقع في الضجر والسامة .
وهو - إلى ذلك - دليل على ضيق العطن ، ونضوب المعرفة ، وجذب
الفكر ، وطول اللسان على العقل .

ومنه تكرر يخلع على الكلام رونقا وجمالا ، ويضفي عليه بشاشة وبهاء
ويضيف إليه ألواناً من الأنغام المحببة ، ويشقق منه صوراً جديدة ، تحمل
أطرافاً جديدة من المعاني والأخيلة ، والصور والعواطف ، وإن امتت
إلى الأصل برحم واشجة ، وسبب أكيد .

(١) قد امسى : وصل همزة القطع لضرورة الوزن .

(٢) الصدة - ٢ - ٥٦ .

وهذا هو الفرق بين الإطناب والتطويل .
ذلك ، أن التكرار الفني البليغ لا يقع متحداً في جوهره أبداً ، بل لا بد
أن يتحفنا بشيء من التلوين اللفظي والمعنوي والصوتي ، فيه جدة وطفرة
لا توجد في الفقر السابقة عليه ، ومن السهل أن ترى هذا في الألوان
كالأحمر والأخضر والأصفر مثلاً ، فإنه يمكن أن تتولد منها ، وتتفرع عنها
ألوان أخرى لا حصر لها ، كل له حسنه ومزيتته ، ووقعه في نفس المشاهد له .
ومرد ذلك إلى أن اللغة بطبيعتها ، وتدرج استعمالها ، تأبى للكلماتها
المترادفة أن تتحد في سماتها وشيائها وشاراتها ، وإن اتحدت في مسمياتها .
فلاسد والغزال والخمر والسيف أسماء كثيرة ، ولكل منها شحنته وأشعته
وظلاله وهمسه وجرسه ووقعه وتأثيره .

فالأسد غير الضيغم ، والضيغم غير الغضنفر ، والغزال غير الظبي ،
والظبي غير الشادن ، والخمر غير المدام ، والمدام غير الشمول إلى آخره (١) .
وقد فطن المعلم الأول قديماً إلى مثل هذا الترادف الغني في الجملة والمفرد
معاً ، فقال :

إن كل عبارة من العبارات التي تؤدي المعنى ، ليست واحدة في الدلالة
بل كلها تغيرت العبارة تغير المعنى ، وكلها دق المعنى واتسع في ذهن الأديب ،
وجب أن تتبعه العبارة دقة واتساعاً .

ويقول : إن الكلمات المتقاربة المعنى — ومنها المترادفة — لا تحمل
مدلولاً واحداً ، وإنما — وإن دلت على المعنى دلالة عامة — فيبينها فروق
بالزيادة ، وفروق بالنقصان (٢) .

ويقول العلوي في الطراز : الترادف — وهو الألفاظ المختلفة في أنفسها
دون معانيها ، كقولنا : سيف وصارم ومهند — هذه الألفاظ متفقة في كونها
دالة على صفة واحدة لا تختلف أحوالها في الدلالة عليها .

(١) فن الأسجاع للمؤلف - ١ - ٢٢٥ .

(٢) بلاهة أرسطو للدكتور إبراهيم سلامة - ١٥٥ :

وإن كان يقع الاختلاف في أمور عارضة ، كصارم ومهند ، فإنهما —
وإن كانا دالين على حقيقة السيف — لا يختلفان فيها لكن الصارم فيه دلالة
على القطع ، والمهند فيه دلالة على نسبه للمهند .
ويقرر «جارت»^(١) : أن المترادفات المختلفة للشئ الواحد ، قد تفاوتت
من حيث الجرس واللفظ .

ويقول «تشارلتن»^(٢) : اللفظتان المترادفتان : تتقاربان كما يتقارب الشقيقان
ولكنهما لا تماثلان تماثل الأصل وصورته .

والشاعر المجيد حين يتناول المترادفات لا يغض من هذه الفروق مهما
دقت ، ومن ثم استحال عليك أن تستبدل في القصيدة الجيدة لفظة بأخرى
دون أن يتغير معنى القصيدة كلها .

والقصيدة العصماء يصيبها الفساد إن تغيرت فيها لفظة واحدة ، لأنها
نتاج شاعر عبقرى عظيم ، ولا يستحق الشاعر أن يرقى إلى صف العباقرة
الأفذاذ ، إلا إذا علم علم الإحاطة واليقين : ماذا يريد أن يقول ، وكيف
يستطيع ، وبأى الأدوات يستطيع أن يعبر عن هذا الذي يريد ، تعبيراً دقيقاً
لا زيادة فيه ولا نقصان .

ويقول «نولدكه»^(٣) : يجب أن نقر : بأن معاجم اللغة العربية قد تضخمت
كثيراً بكلمات استعملها الشعراء وصفاً لأشياء ، فذكرها اللغويون على أنها
أسماء لتلك الأشياء .

ومعنى ذلك : أنك لا تجد اسمين مترادفين يوحيان بمفهوم واحد وبخاصة
عند الفنان ، وهذا سر من أسرار اللغات العليا .

وإذا كان الترادف المفيد محموداً في الكلام المرسل على سهولة مسالكه ،

١ (١) فلسفة الجمال - ١٢٠ .

(٢) فنون الأدب - ٩-١٠ .

١ (٣) فجر الإسلام - ٦٧ .

وخفة المثونة فيه ، فمن باب أولى أن يحمّد في الشعر والسجع والازدواج ،
لفداحة المشقة وصعوبة الكلفة ، وتقييد الحرية ، حتى يخفف من تراكم الخلق ،
ويقلل من ثقل التبلور والتركيب ، ويرفه من عناء التفهم والتذوق .

وقد أشار إلى ذلك العسكري بقوله (١) : ولا بد للكاتب في أكثر أنواع
مكاتباته : من شعبة الإطناب ، يستعملها إذا أراد المزاوجة بين الفصلين ،
ولا يعاب ذلك منه ، مثل أن يكتب : عظمت نعمنا عليه ، وتظاهر
إحساننا لديه .

فيكون الفصل الأخير داخلا معناه في معنى الفصل الأول ، وهو
مستحسن لا يعيبه أحد .

ومثل قول « باسل » خادم مروان بن محمد — لما أحيط بسيده — :
من أغفل القليل حتى يكثر ، والصغير حتى يكبر ، أصابه مثل هذا .

وهذا كلام في غاية الحسن ، وإن كان معنى الفصلين الآخرين داخلا
في معنى الفصل الأول .

ومثل قوله — تعالى — : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى
القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » .

فالإحسان داخل في العدل وإيتاء ذى القربى داخل في الإحسان ،
والفحشاء داخل في المنكر ، والبغى داخل في الفحشاء .

ومن الشعر قول حسان :

إن شَرِّخَ الشباب والشَّعْرَ الأسود مالم يُعاص كان جنونا
فالشعر الأسود داخل في الشباب .

(١) المناعتين - ١٥٨ - ١٨٦

(٢) الحفس : اذعة ، ومنه : مهبش حافض .

وكذلك قول أبي تمام :

رُبَّ تخفض تحت الشَّمرى وغنناء من غنناء ، ونضرة من سُحوب (١)

ويقول العسكري في موضع آخر (٢) : بسط الألفاظ في أنواع المنثور سائغ ، ألا ترى أننا نحتاج إلى الازدواج ، ومن الازدواج : ما يكون بتكرار كلمتين لهما معنى واحد ، وليس ذلك بقبیح إلا إذا اتفق لفظها .

ويسوغ ذلك في الشعر أيضا ، كقول البحترى :

بودى لو يهوى العذول ويعشق فيعلم أسباب الهوى كيف تعلق

فيهوى ويعشق سواء في المعنى ، وهو حسن ، إلا أن أكثر ما يحسن فيه إيراد المعنى على غاية ما يمكن من الإيجاز .

وذكر القلقشندي (٣) فيما يحتاج الكاتب إلى معرفته : المتباين والمترادف ، والحاجة إلى الأخير ، للمخلص عند ضيق الكلام عليه في موضع ، لطول لفظة أو قصرها ، أو اختلاف وزنها في شعر أو رعاية الفاصلة آخر الفقرة في نثر ، أو غير ذلك مما يضطر معه إلى إيراد بعض الألفاظ دون بعض .

ومن يتبع أسلوب الجاحظ وخليفته « طسه حسين » ومن إليهما من يصطنعون الإطناب في التعبير ، يرى الأصباغ والألجان ، والأضواء والظلال ترجع إلى أصل واحد .

ولكنك تمر في هذه الديباجة الألفة الأنيقة ، فيخيل إليك أنك تجتاز

(١) الصناعتين - ١٨٥ - ق ٧٨

(٢) صبح الأعمى - ١ - ١٥٣ - ١٥٤ .

(٣ م - ١٦ - الالفة الفنية)

روضة فيحاء لانهاية لها ، كلها خضرة ونضرة ، ووشى وحلى ، وزهر وعطر
وسجع وغناء ، ينسى لاحقها سابقها ، ويذهل آخرها عن أولها .

وهذا هو الكلام الذي يدعى بيانا ، والبيان الذي يدعى سحراً ، والسحر
الذي يدعى حلالاً ؟ ومزية هذا الأسلوب . أنه يعطيك المعنى واللفظ ،
وفيدك الحلية والنعم ، ويمنحك الدعة والبهجة والانس ، بفضل التأنق
في التخيل ، والبراعة في التصوير ، والافتنان في العرض ، والتلوين في التعبير
وتجلية المعاني المتماثلة في معارض منوعة الرسوم والرقوم .

ويجب أن نفرق في ذلك بين أسلوب وأسلوب .

فالأسلوب العلمي يميل إلى القصد في التعبير ، وترك الزينة والتنميق ،
والبعد عن التكرار والترادف .

والأسلوب الأدبي من شأنه أن يعنى بالصورة ويستجيدها ، ويتأنق
فيها ، فيجولو علينا المعنى الواحد في حلل مختلفة ومعارض متباينة ، زيادة
في الإمتاع والإطراف ، وذلك يقضى بالتكرار والترادف في بعض الأحيان .
والتكرار المعنوي جائز في الخطابة لتثبيت الأفكار في الأذهان ، وتمكين
السامعين من الفهم ، ولقوة التأثير ، ولكن لا بد من تغيير العبارات (١) .

ولم يفعت علماء الدين أن يدلوا بدلوهم في هذا الموضوع ؛ فرأينا فريقاً من
الأصوليين ينكر وجود الترادف في اللغة ، ويذكرون اشتقاقات مختلفة
للألفاظ المترادفة ، ولهم في ذلك حججتان :

الأولى : أنه يؤدي إلى الاختلاف في الفهم ، فقد يعلم الإنسان لهذا

المعنى لفظاً، ويعلم الآخر لفظاً آخر، ومع تأدية اللفظين لمعنى واحد، فلا يعلم كل واحد منهما أن لفظ الآخر يدل عليه، وحينئذ يتعذر التفاهم بينهما .
والحجة الثانية : أن الاسم المترادف يتضمن تعريف المعرف ، وهو خلاف الأصل .

ومن أشد المنكرين للترادف « الحكيم الترمذى » ، وهو صوفي ممتاز — وقد أدى ذلك إلى وجود بعض الخلاف بينه وبين الأحناف .

وقد تصدى الإمام شفر الدين الرازى إلى من أنكروا الترادف، وتمحلوا له الاشتقاقات المختلفة ، وقرروا أن عمل الاشتقاقين هذا ليس إلا تعسفاً لا يقبله عقل ولا نقل .

ثم شرح الدواعى إلى الترادف ، وهى :

أولاً : تعدد الوضع ، وتوسيع دائرة التعبير ، وتكثير وسائله ، وهو ما يسميه النحاة وأهل اللغة بالافتنان ، أو تسهيل مجال النظم والنثر ، وأنواع البديع ، وقد يحصل به التجنيس والتقابل والمطابقة .

وثانياً : تسهيل تأدية المقصود بإحدى العبارتين عند تساوى الأخرى (١) .

وقريب من السبب الأخير قول ابن سنان الخفاجى فى : « القفا » ؛

فقد ذكر أنها من الألفاظ التى تستعمل فى النظم ، وليست من ألفاظ المدح وهو يرى أنه ليس بممتنع أن يكون للشئ الواحد اسمان ، أحدهما يستعمل فى موضع والآخر يستعمل فى موضع آخر :

ولكنه يرجع ذلك إلى العرف والعادة دون أصل وضع الأسماء فى اللغة .

(١) مناهج البحث للدكتور على سامى النشار - ٣١ - ٣٢ :

ألا ترى أن الإنسان إذا مدح ، ذكر الرأس والكاهل والحامة ، وإذا هجا ذكر القفا والأخادع والقذال (١) .

وقد حل بعض المتكلمين المسألة حلا وسطاً ، فالألفاظ المترادفة هي : ألفاظ يشرح بعضها بعضاً ، الجلي يشرح الخفي ، فهي ليست إلا نوعاً من الحد لأن الحد هو : تبديل لفظ خفي بلفظ واضح منه تنبيهاً للسائل (٢) .

على أنه مما ينبغي أن يعرف : أن الأمزجة دخلاً كبيراً في هذا فبعض الكتاب يميل إلى البسط بتنوع الجمل ، والآخر يؤثر أن تكون كل جملة مستقلة بمعناها ، متفردة بمفهومها ، وينفر بخاصة من ألفاظ التضاد والمشتراكات — لفظية ومعنوية — والمترادفات ، ويعدها كلمات ترف ، أو ظواهر ثروة لغوية ، تعوق الغرض ، وتمنع السبيل إلى الإبانة .

ومن محتضنون الرأي الأخير : الأستاذ أمين الخولي ، وقد دافع عنه بجرارة في كتابه « فن القول » (٣)

ومن قوله في ذلك : فهذه المترادفات في الحق ثروة لاسوق لها ولا وزن ، في منافع التعامل ، مع كونها عتمة إلى حد ما في وجه متلقي متن اللغة ، ومحصل مفرداتها ، ودارس أديها ، وهي شيء مما يعوق اتصال الفصيحة بالذي ، والقرب من الألسنة والقلوب على ما نبتغى ونحاول .

على حين يقول الأستاذ أحمد زكي : والتقدم الفكري في الجماعات والأفراد ، يقاس بما عندهم من ثروة لغوية ، كما أن تعود الألفاظ التي تطلق على الشيء الواحد ، دليل على سعة الخبرة بهذا الشيء (٤) .

(١) سر الفصاحة - ١٥٥ - ١٥٦ .

(٢) مناهج البحث - ٣٢ .

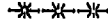
(٣) ١٢٧ - ١٢٨ .

(٤) مبادئ علم النفس التعليمي - ١٨١ .

ولسكل وجمة .

ومهما يكن ، فلا يصح أن نغفل أهمية الذوق في الحكم على التكرار
بالحسن أو بالقبح .

فالحق : أنه — كما يقول ابن الأثير — دقيق المأخذ ، ومقتل من مقاتل
علم البيان .



فهرس لأمهات المسائل

الفصل الأول : الالتزام ٥ - ٥٧

أسمائه . تعاريفه . أقسامه وأمثلتها . حروف العلة
في الروى وما يمنع اجتماعه منها . اللزوم في القرآن الكريم
ورأى ابن الأثير والحموى . نقد شعر لزومى للمعرى . اللزوم
في شعر القدماء والمناخرين ورأى النقاد في ذلك . رأى
المؤلف . اللزوم عمل فنى شاق . أشهر شعراء اللزوم في العصر
الإسلامى . ثمانية «كثير» اللزومية وقيمتها الفنية . آراء النقاد فيها .
غرام ابن الرومى باللزوم . بعض قصائده اللزومية وأقوال
العلماء فيها . وقوع اللزوم في أول الأبيات . المعرى شيخ
الالتزام . شعره ونثره . تآليفه . آراء النقاد فيه . خلفاء المعرى
في اللزوم . اللزوم المطبوع وقيمته الفنية . آراء النقاد فيه . رأى
المؤلف . لا يغتفر للشاعر التقصير في العمل الفنى . ضرر
تسكف القوافى . القوافى المخنثة وأمثلتها . متى يستحسن التصغير .
الأسماء الواردة على التصغير . نكتة تصغير ابن أبى ربيعة للملال
ورأى سعيد بن المسيب . الخفيف . الرقطاء . الموصل . المقطع
الحذف . «واصل» وحرف الراء . أمثلة عجيبة للكلام الخالى
من بعض الحروف . المجاز . شعر معاينة للمعرى ومظفر
الأعمى : التضمين . مثال غريب له من شعر البحترى . شعبذات
لزومية . مصوله عنيفة بين البديع والخوارزمى في ذلك .
المتزلزل وتمثيل الوطواط له . البديع والحريرى فارسا الشعوذة

البيانية . اللزوم في شعر العصرين . البارودي بطل اللزوم
في العصر الحديث . تكلفه القوافي البغيضة حرصاً على اللزوم .
بجاوزته حدود مالزمه الأقدمون . قصائده اللزومية وضعفها .
الشاعر بخيمر تليذ المعري في العصر الحاضر . لزوميات
بخيمر . وصفها وتحليلها . لا يعد اللزوم في جملة من سمات
الشعر المعاصر .

الفصل الثاني التطريز ٥٨ — ٦٧

التطريز في اللغة . التطريز حقيقة ومجازا . طراز الله .
الطراز الأول . مدلولات التطريز ومشتقاته وماتوحى به .
تعريفه في الاصطلاح البلاغي . نماذج شعرية له . خلو الشعر
الجاهلي والإسلامي منه . ندرته بعامة في شعر المحدثين . إكثار
ابن الرومي منه وإجاده فيه . تحليل بعض القطع الشعرية له .
أسباب البراعة في التطريز . كثرة التطريز في عصر التصنيع
البيدي . مخافة العسكري في التطريز للجهمور . أحسن مدح
قاله الشاعر في رأيه . التطريز والمجاورة عند العسكري .

الفصل الثالث : التفويف ٦٨ — ١٠٥

معنى التفويف عند اللغويين . اشتقاقه . تعريفه في اصطلاح
البيديين . تعريف الخطيب له وإرجاع بعض أمثاله إلى مراعاة
النظير والمطابقة . أمثال شعرية له . وروده في شعر الأعراب .
احتفال المولدين به . تفويف المعنى وتفويف اللفظ . يلحق
بالتفويف سياقة الأعداد وتنسيق الصفات . كثرة التفويف
في شعر البحترى . أقسام التفويف . التمثيل له من القرآن
والحديث والشعر والنثر . تفويف لابن زيدون استحسنة

ابن بسام . تفوييف للمبتني أعجب به سيف الدولة . نقده
وتزييفه . رأى القاضي الجرجاني فيه . كثرة التفوييف في شعر المبتني
واختلافه حسناً وقبحاً . أقبح تفوييف للمبتني . حل رموزه
ونقد ابن رشيق له . رأى المؤلف فيه . تفوييف معيب لأبي تمام .
نقد ابن الأثير له . أنواع من التفوييف البارع للبحترى . رأى
الحوى في التفوييف . رد المؤلف عليه . شروط حسن التفوييف
في نظر المؤلف والتمثيل التطبيقى على ذلك . موازنة بين البحترى
والمبتني في التفوييف ، أمرؤ القيس فاتح باب التفوييف . نقد
شعر في التفوييف للدكتور نجيب محمود . مناقشة المؤلف له .
الأشياء التي يفسد بها المعنى والتمثيل لها . الشاعر لا يستقصى
ولا يستوعب . للتشبيه حدود معروفة . المتعة الفنية قد تتحقق
بالأشياء المفترضة . استحسان الأشياء واستقبحها يختلف
باختلاف البيئات . قهقهة الرعد وضحك البرق وما قيل
في ذلك .

الفصل الرابع : التغيرات ١٠٦ - ١١٩

تعريفه . اسمه ومدلوله . وجوده في المنطق باسم القياس
الشعري . كثرته في شعر العرب . تحسين القبيح . أحسن
اعتذار عن الفرار . قدرة العرب على تحسين القبيح . الجمع
بين التهنئة والتعزية . مدح الموت . مدح إفشاء السر . مدح
البخل . تسويغ الحلف الكاذب . مدح الإعراض . مدح الحقد
وذمه . أحسن احتجاج للحقد . كثرة مدح ابن الرومي للأشياء
وذمه وأسبب ذلك . مدح الشر والاحتجاج لذلك من القرآن الكريم .
تقبيح الحسن . ذم الصبر ثراً وشعراً . الشعراء لا يتناقضون
ولا يكذبون في الواقع . احتجاج المرتضى لهم . كراهة الوداع .

مدح الوداع . أشعر الناس في نظر الأصمعي . حسن البلاغة في نظر بعض النقاد . مدح على بن أبي طالب للدنيا وذمها . افتنائه في مدح دار ودمها ارتجالاً . مدح الدينار وذمه للحريري . مفاضلة الشعراء بين السيف والقلم . تقسيم ابن أبي الإصبع للتغاير . لا يعد التغاير تناقضاً . مغايرة المعنى لمغايرة اللفظ . مثالان للتغاير . البلوغ في بعض الآيات القرآنية . التغاير باب واسع من أبواب التريفة والتهديب . ألوان من التمثيل لذلك .

الفصل الخامس : التوشيع ١٢٠ - ١٥٢

التوشيع عند اللغويين : اشتقاقه عند العلوى . تسميته له بالتوشيع وتعليله . تعريفه في اصطلاح البلغاء والتمثيل لأنواعه . وروده في الشعر والنثر . مخالفة ابن شيت القرشي للجمهور فيه . مطرف التوشيع . اشتقاق التوشيع عند الحلبي والحموي والنويري وتعليل ذلك . خطوهم فيما ذهبوا إليه . التوشيع المطبوع من أجل الحلبي البديعية . أمثله منوعة للتوشيع من القرآن والحديث وشعر البلغاء وأثرهم . نقد شعر توشيعي استحسنه الحموي . أبيات في العطف على العشاق . وصف غير العاشق بالسواد وتعليل ذلك . وصف خفوق القلب والكبد . وصف النحول . نقد شعر لابن أبي الإصبع . التوشيع شعبة من الإطناب . حسنه دائماً في النثر وتعليل ذلك . أمثال مأثورة له . أمثال للتغليب وشروطه . التغليب في القمرين والعمرين ورأى العلماء فيهما . التوشيع الحسن قليل في الشعر . فقد الشباب وفرقه الأحباب وما قيل في ذلك ، قديماً وحديثاً . تحليل أمثلة شعرية في التوشيع ونقدها . وقدره البيان على تصوير المحال ممكناً ، والبعيد قريباً وتأليفه بين المتنافرين . نقد أبيات استحسنها العلوى ، وبيان

مثالها . القرابة بين الجود والشجاعة وأقوال الشعراء في ذلك .
نقد قصيدة في التوشيح لأبي عبدالله محمد بن حامد . نقد الدكتور
زكي مبارك لبعض شعر التوشيح والرد عليه . خضوع التوشيح
لروابط تداعى المعانى .

الفصل السادس : الاطراد ١٧٦-١٥٣

معنى الاطراد عند اللغويين والبلغاء . شروط حسنه . علو
الصق الحلى في شروطه . عدم التكلف دعامة الاساسية .
شواهد الشعرية القديمة . بيت لدريد بن الصمة في الاطراد
وبيان جماله . شروط حسنه عند ابن رشيق . أمثلة مطبوعة
له وتوضيح حسنها . أمثلة معيبة له ونقدها . أبيات اختيرت
قوافيها ابتداء . لا يعاب على الشاعر اختيار القافية لغرض
من الأغراض . شروط اختيار القافية . أبيات النابغة الدالية
وأبيات البحترى الفائية ورأى النقاد فيهما . مجيء بعض الأعلام
عفواً في الشعر . الأسماء المستحسنة في الشعر . نقد أبيات وردت
فيها أسماء ثقيلة . رقة الأسماء في عصور الحضارة . للشعراء أسماء
خاصة . الأسماء الحقيقية والمستعارة في الشعر .

سبب حب العرب لتكشبية البنات في الصغر . نقد أبيات
للتنبى حفلت بالأسماء . اختلاف الخفاجى وابن رشيق في الحكم
عليها . نقد كلمة «أنياب» في الشعر . ضرطة سليمان بن وهب .
تهجين العلوى لذكر الأمهات في الشعر . رد المؤلف عليه
بالأمثلة الكثيرة . ما يجب تحققه في المدح بالأمهات .

الفصل السابع : التوسم ٢٠٠-١٧٧

أول من استنبط هذا الباب . تعريفه عند البلغاء وتسميته .

اعتراض ابن السبكي على بعض أسماؤه . أنسب الأسماء له .
ما بنى على قافيتين منه . قصيدة تنسب إلى الطغرائي والحريري معاً .
أمثلة مختلفة للتوهم ونقدها . التشريع في شعر الأخطل . رأى
الوطواط . في الأجزاء الباقية بعد إسقاط الأصل .. مثال لما بنى
من أكثر من قافيتين وتقطيعه إلى قواف عدة . بحر الرجز
أوسع البحور في التوهم . اختلاف البلاغاة في التوشيح . قيمة
التشريع الموسيقية والفنية . أحسن ضروبه وأخفها . أمثال
للشعوذة الشعرية . قصيدة غريبة للرئيس ابن عاصم ونقدها
قصيدة للخلاطى تقرأ على ستين وثلاثمائة وجه وطريقة ذلك .
بيت يشتمل على أربعين ألف بيت . رأى ابن الأثير في مثل
هذه الأشعار . ما يتصل بالتشريع : المتلون . المربع . اختلاف
العلماء في وقوع التشريع في النثر . ليس كل شاعر يجيد التشريع .
التمثيل له من القرآن الكريم . اعتراض السيوطى على ابن
أبي الأصعب في بعض الأمثلة .

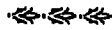
الفصل الثامن : التكرار ٢٠١ — ٢٤٥

تعريف التكرار . أمثلة له من الشعر . أحسن ماورد منه
في الشعر . التكرار في الغزل . في المدح . أمثلة للمفرد والمركب .
التكرار في الهجاء . قصيدة جرير الدماغة .
وروده في الزاوية والتهمك . في التقريع والتوبيخ . في الوعيد
والتهديد . أمثله المفردة والمركبة من القرآن . وروده في التوجع
والرثاء . رثاء زوجة لزوجها . باب الرثاء أولى بالتكرار .
وروده في الاستغاثة . في التفخيم . في التعجب . في الاستبعاد .
في النهويل . في التقرير والإنكار . بلاغة الفاصلة «فبأى آلاء
ربكما تكذبان» وما قيل في ذلك . بلاغة الفاصلة «فذوقوا عذابي
ونذرة» . تكرير بعض الآيات المشهورة . موقع الإطناب

والإيجاز . وجه التكرار في سورة الكافرين واختلاف العلماء في ذلك . تلخيص رأى المرتضى . آراء المفسرين . بلاغة الفاصلة « ويل يومئذ للكاذبين » .

بلاغة بعض الآيات المكررة . تكرير إن وأخواتها . مخاطبة القرآن للعرب والأعراب . مخاطبة القرآن لليهود . الترادف في اللفظ والمعنى . تقسيم ابن الأثير للتكرار .

نقد المؤلف لابن الأثير . التكرار عند ابن رشيق . تهجين المحوى للتكرار . التكرار القرآني وقيمته البلاغية . أمثلة للتكرار المستهجن . تكرير المتنبي المرذول وأمثله ونقد الصاحب له . نقد المعري لبعض شعر المتنبي . تنقص المتنبي الموهبة الموسيقية . اختلاف النقاد في بعض الآيات الشعرية . تكرار لفظة « ابن » وما قبل في ذلك . رأى ابن الأثير في الترادف . خطأه في إيراد الأمثلة . متى يحس التكرار ومتى يقبح ؟ الفرق بين الإطناب والتطويل . رأى الفارابي في الترادف . رأى العلوى وغيره . رأى بعض نقاد الغرب . أسلوب الجاحظ . وطه حسين . الأسلوب العلمي والأسلوب الأدبي . إنكار الترمذى للترادف ورد الرازى عليه . شرح دواعي الترادف . اختلاف الترادف باختلاف الأمزجة .



مصادر الكتاب ومراجعته

اسم الكتاب ومؤلفه

مسائل فلسفة الفن المعاصرة : ج ، م جويو . ترجمة الدروبي

تحرير التجبير .	ابن أبي الإصبع العدواني	مخطوط بالمكتبة التيمورية
بديع القران .	» » »	تحقيق الدكتور - فني شرف
نهاية الأرب .	» » »	النويري
خزانة الأدب	» » »	الحوي
حسن التوسل	» » »	الحلبي
معاهد التنصيص	» » »	العباسي
التجريد على السعد	» » »	البناني
ديوان الحماسة	» » »	أبو تمام « طبع الرافعي »
ابن قيس الرقيات	» » »	علي النجدي
المثل السائر .	» » »	ابن الأثير
مفتاح العلوم .	» » »	السكاكي
ألحان الأصيل	» » »	علي الجندی « ديوان شعر »
شرح المفصل	» » »	الزنجشري
السكامل .	» » »	المبرد « شرح المرصفي »
دولة النساء	» » »	البرقوقي
الأمالي .	» » »	القالبي
مع أبي العلاء في سجنه	» » »	الدكتور طه حسين
سر الفصاحة	» » »	ابن سنان الخفاجسي
تزيين الأسواق	» » »	داود الانطاسكي

معجم الأدباء	ياقوت الحموى
العمدة	ابن رشيق
زهر الآداب	الحصرى
نفع الطيب	المقرى
الغفران لأبى العلاء	الدكتورة بنت الشاطئ
التفسير الأدبى	أمين الخولى
دايون الشريف الرضى	
النابغة الذبياني	عمر الدسوقي
الفصول والغايات	المعرى
كشف الظنون	حاجى خليفة
صوت أبى العلاء	الدكتور طه حسين
أبو العلاء	أحمد تيمور باشا
فن الأسجاع	على الجندى
تجديد ذكرى أبى العلاء	الدكتور طه حسين
وفيات الأعيان	ابن خلكان
دراسات فى علم النفس الأدبى	حامد عبد القادر
تاريخ النقد الأدبى	طه إبراهيم
المزهر	السيوطى
فوات الوفيات	الكتبى
الشعر والشعراء	ابن قتيبة
ديوان ابن ربيعة	
رغبة الأمل	المرصفى
الأغانى	أيو الفرج الإصفهاني ، طبع دار الكتب ،
الطراز	العلوى اليمنى
المقامات	الحريرى

- حدائق السحر الوطواطه ترجمة الدكتور الشواربي ،
البيان والتبيين الجاحظ.
جمهرة خطب العرب زكي صفوت
مفتاح الأفكار أحمد مفتاح
المخصص ابن سيده
الملل والنحل ابن حزم
الفرق بين الفرق اليعقوبي
مفاتيح العلوم الخوارزمي
سلافة العصر المدني
الإحاطة في أخبار غرناطة ابن الخطيب
يتيمة الدهر المعالي
ممرات الأوراق الجوى
المستطرف الأبيشي
حاشية الدمهورى على متن السكافى
الرسالة العذراء ابن المدبر
الأوراق الصولى
الموشح المرزبانى
رسائل البديع
الكشاف الزمخشري
مقدمة لزوم مالا يلزم المعرى
ديوان امرىء القيس
ديوان النابغة
ديوان البحترى
ديوان البارودى
لزوميات نخيمر

القاموس	الفيروز باذى
لسان العرب	ابن منظور
المصباح	الفيومي
الاساس	الزخشرى
ثمار القلوب	الشعالى
الصناعتين	أبو هلال العسكري
ديوان ابن المعتز	
ديوان ابن الرومى	
قلائد العقيان	الفتح بن خاقان
فن الجناس	على الجندى
ديوان ابن زيدون	
ديوان المعاني	العسكري
الإيضاح	الخطيب
بغية الإيضاح	عبد المتعال الصعدي
الذخيرة	ابن بسام
العرف الطيب	اليازجى
المواهب الفتحية	حمزة فتح الله .
نكت الزركشى على البخارى	
فتح البارى	ابن حجر
المغنى	ابن هشام
ديوان ابن الفارض	
فنون الأدب	هـ . ب تشارلتن « ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود »
ديوان ابن هانئ الأندلسى	
المجمل فى فلسفة الفن	بندتو كروتشة

آثار المؤلف

١ - الشعر :

أغاريد السحر . أخذ الجائزة الأولى من المجمع اللغوى سنة ١٩٤٨ م .
٢٦٠٠ بيتاً .

ألحان الأصيل . ٤٥٠٠ بيتاً
ترانيم الليل . ٣٥٠٠ بيتاً .

٢ - النثر :

كتب جامعية .
فن الأسجاع : جزءان .
فن التشبيه : ثلاثة أجزاء .
فن الجناس .
البلاغة الغنية .

٣ - كتيبات :

سياسة النساء .
رمضان فى الأدب .
بين القمر الطبيعى والصناعى .

٤ - كتب عامة :

خمسة أيام فى دمشق الفيحاء .
الشذا المونس . فى الورد والنرجس .

كتب بالاشتراك :

- أطوار الثقافة والفكر .
- في ظلال العروبة والإسلام : طبع منها جزءان .
- المطالعة الوافية : جزءان .
- حديقة الإنشاء : ثلاثة أجزاء .
- بستان الإنشاء : جزءان .
- روضة الإنشاء : جزءان .
- سلسلة المراجعة : ستة أجزاء .

* * *

المختار من شعر القومية العربية ثلاثة أجزاء
« تحت الطبع »

كتب معدة للطبع

- الجن بين الحقائق والأساطير
- الشاعر المؤمن الصوفي
- بستان البهاء زهير .
- في مملكة حواء
- أدب الفأل والشوم .
- التمثيل بالشعر
- أحسن ما قيل في بابه .
- السكناية ثلاثة أجزاء
- العناق في شعر العشاق .
- فلسفة الأسماء
- ملك الغابة
- المرأة والغزل في شعر المتنبى

سيف الله المسلول .
الرقى والأحلام .
سورية : طبيعتها وريبعها .
الفواكه في الشعر العربي
الفنون البلاغية في شعر شوقي .
متحف الكون ثلاثة أجزاء
أغرب المرائي ثلاثة أجزاء
شجون وفنون : ستة أجزاء
القطوف الدانية : سبعة أجزاء .

* * *

سبع الحمام . في حكم الإمام
(بالاشتراك)



المطبعة الفنية الحديثة
٢ شارع الاستقلال الرياض ١١٤٦١





